رواية
أدهم العبودي
بينما نموت
روح
بن أسماء
الرَّب
DAR AJIAL
دار أجيال

الأعمال الكاملة 843

بينمَا نَمُوت

أدهم العبودى

بينمَا نَمُوت

رُوحُ بن أسماءِ الرّب

رواية

الطّبعة الأولى ٢٠١٨

جميع حقوق الطبع محفوظة

تصميم الغلاف:أحمد مراد

الإخراج الفنّي: أحمد عويس

رقم الإيداع: 13414/ 2018

الترقيم الدولي: 4-059-773-977-987

(جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها؛ ولا تعبّر بالضرورة عن آراء وتوجّهات دار النّشر).

أدهم العبودي

بينما نَمُوت

رُوحُ بن أسماءِ الرّب

رواية

الأعمال الكاملة 843

ضَعْنِي خَيرًا في ناس؛
ضَعْنِي خَمرًا في كاس.

«قابيلَ»:
أكانْ لابدّ أنْ تواري سَوءةَ أخِيكَ قبْل أنْ يعْرفَ الحقيقةَ؟

طَسم وحَم، رَبُّ نَارِ إبْراهِيم والصّراطِ المُسْتَقيمِ، رَبُّ المِشْكَاةِ والمرْسَاةِ، رَبُّ المِيزانِ والثّقْلانِ والفُرْقَانِ، ربُّ النّشُورِ والطُّورِ والكِتَابِ المَسْطورِ، رَبُّ الفَجْرِ والسّحْرِ والبَحْرِ المَسْجُورِ، رَبُّ الإعْجَازِ والمجَازِ والإلْغَازِ، رَبُّ الأنْفَالِ والأثْقَالِ والأقْفَالِ، رَبُّ الكَافِ والنّونِ، والتّينِ والزّيْتُونِ، رَبُّ التّبِ والجُبِّ والذّنْبِ المَغْفُورِ، رَبُّ الدّالِ والمدْلولِ، العلّةِ والمعْلولِ، رَبُّ خطيئةٍ أولىَ، مَنْ أنْذَرَ فلمْ نُولىَ، رَبُّ نبيِّه الأتْقَىَ وبنيِّه الحَمْقىَ، إذْ نشْقَىَ فلا يشْقَىَ، ومَنْ ألْقَىَ إلى عَبْدِه فمَا أبْقَىَ، ومَنْ أسْرَىَ فمَا أرْضَىَ، ومَنْ نُؤخَذ بِه رمَقًا فرمَقَا، فكأنّا لم نَكُ عِتْقَا إنْ لمْ نقْتَرِف عِشْقا، أيَا مَنْ على سِرِّه أبْقَىَ، أفمَنْ يَدري مَتْى يُعْطَى ومَنْ يَدري مَتْى يؤتَى؟ أكانتْ آيةً تُرَى يَومَ قام للإنْسِ أبٌ مِنْ ثْرَى؟ ألئن إثْمنا أبْقَى ولئن مصِيرنا أشْقَى؟ ألئن قدرنا أعْفَى وذنبنا أخْفَى وشَرّنا أكْفَى؟

«نَحْنُ»

فِي حِكَايةٍ قديمةٍ، كانتْ عادةُ أهلِ القرْيةِ، أنْ يجْزروا رؤوسَ النّخْل، ويتركونه كفيفًا عَاريًا تحت عَيْنِ الشّمس.

وفي حكايةٍ أخرَى، أكثر حداثةً، استعاد النّخلُ بصرَه، دونما معجزةٍ مشهودةٍ، بينما عاد - بطرفةٍ بكائيةٍ - يرى سوادَ المصائر.

والحكايةُ هنا تبدأ مع الولدِ الذي سينفُث مِنْ فمِه أزمنةَ الوباءِ، الولدِ الذي ستصبح رُوحُه خالدةَ الألم، بل ستنحدر نحو الغيبِ، وتكون قادْرةً على رؤيةِ مصائرِهم، ولو بعْد ألف عامٍ.

الحكايةُ تبدأ مِنْ بيتٍ صغيرٍ تسكنُه الحكايات، بالأحرى تهجره الحكايات شيئًا فشيئًا مع جريان الزّمن، بيت في قريةٍ نائيةٍ، قيل إنّها ملعونةٌ، وقيل إنّها موبوءةٌ، وقيل آثمة، إنّما هي قريةٌ بائسةٌ، مجرّد قرية تعشّش في غياهبِ الصّمْتِ.

والبيتُ في الظّلِّ، والظّلُّ لا يعني النّسْيان، قدْرَ ما يعني الخذْلان، والبيتُ تلفّه جذوعُ نخيلٍ ترقص رقصات وداعِها، والنّخيلُ مطروحٌ من بطنِ الأرضِ، كأُحجيةٍ مأساويةٍ، والأرضُ أسيرةُ الشّمسِ، والشّمسُ تُحاصر الخيالَ، مثلما يُحاصر الشّرُ -أيضًا- أزْمِنةَ البَشْر.

والرّحالُ يعرْف، ليس غيره يعرْف، يسمّونَه الدّرويشَ، يسمّونَه المُنشِدَ، ويسمّونَه العجوزَ، لكنّه مجرّد رحّالٍ، في خلاءِ العالم يسكُن، قالوا إنّه رجلٌ صُرِف له الكَشْفُ الرّبانيّ، يحمِل مِنْ الأسرارِ أكثر ممّا تحمل تواريخُ البشْر، بل إنّه حَافِظُ أسرار الغيْبِ ومطّلعٌ عليها، قيل إنّه مخْزنٌ للنّفحاتِ، وإنّه مُلهَمٌ، وإنّ الرّبَ له معَه مسألةٌ لا يُمكن استبطانُها أو استشفافُها، بل يُبصِر ما لا يُبصِرون، يطوّف البلاد ويسير بيْن النّاسِ

بالوَصْلِ والبَركة، يسير برُوحٍ ليست تُشبِه أرواحَهم، رُوح لم يداخْلها رَيبٌ ولم تفسْد، أدْركَ النّاسُ أنّه يمشي بالسّرِ منْذ بَدت أولىَ بشائره بينهم، واستطاع بقدرةِ الكشْفِ أنْ يَزيح عن الرّؤوسِ همومَها، وعن الأجساد بلواهَا، وعن القلوبِ ضغائِنَها، استطاع أنْ يخْمِد الفِتن التي تنشب بينهم -مرّة بالعَمْدِ ومرّاتٍ بالجهْلِ- في مهدِها، فكان يدْخلَ بيوتَ الكُلّ ويجالسهُم، يشرب معَهم شرابَهم ويأكل مِنْ طعامِهم ويشاطرهم خباياهم، وخيباتهم إنْ أمكن، يزورهم ليقرأ مصائرَهم، على كتفِه صندوقٌ، أسماه «صندوقَ المصيرِ»، وأسموه «صندوقَ الأسرارِ»،مِنْ هذا الصّندوق تخرج مباهجُهم، وتخرج أحزانُهم، وتخرج أحدَاثُهم الكُبْرَى، وما أكثر غفلتِهم، لا يكترثون لها، كأنّما إذا باغتهم بالمَغيبِ، عاجلوه بالنّسيانِ، يستشْرِفَ مصائرَهُم، فسرْعان ما ينشغلون،وتتداعى في فناءِ انشغالِهم نبوءات صندوقِه، يومًا بعْد يومٍ، غفلةً بعْد غفلةٍ، رغم أنّ هذا الصّندوقَ - تحديدًا- أخرَجَ ذات حيلةٍ، لم تحتملْها مصائرُهُم، الحكايةَ كلّها.

«أسْماءُ الرّبِ»

(أ)

أيّامٌ قليلةٌ وتحتفلُ «أسماءُ الرّبِ» بدخولِ ولدِها «روح» عامِه السّادس.

كان ابن أربعِ سنواتٍ عندما كشفَتْ حواسُّه عن خبيئةِ الدّم، وكانتْ «أسماءُ الرّبِ» إذا تَلَهَّتْ عنه قليلًا، منهمكةً في أمرٍ مِنْ أمورِ البيتِ، يغافلهَا ويهرْول إلى الخارجِ، حيْث تمتدُّ مساحات مِنْ أكوامِ التّرابِ الصّالحةِ للّهو، وحيْث كانَ باستطاعتِه، وهو الذي يبْرك على أربعٍ، أنْ يقصّفَ الشّجيرات النّابتة الصّغيرة، التي تستلقي على جانبي الدّربِ، وتتناثرُ أسفل جدْرانِ البيوتِ دون تهذيبٍ.

نساءُ القرْيةِ؛ حين كُنّ يرينَه يجبو على أربعٍ، يُسرفْنَ في الضّحك هُزوًا، إمّا لشقاوتِه، أو لغرابتِه، يُطلقنَ عليه همسهنّ وإيماءاتهنّ، ويتداعبنَ فيما بينهنّ يستدعينَ الحكايةَ الشّائعةَ التي جِيء على أثرِها،

غير أنّ «أسماءَ الرّب» كلّما دنا منها ولعقَ ساقيها بلسانِه ترتعشْ، تلك طريقتُه في المداعبةِ، يغرفَ ترابَ الدّربِ بيديه وقدميه، ويقتربَ منها مُمازحًا، ثمّ يبدأ في لَحسِ ساقيها، يقشعرّ بدنُها لمجرّد تخيّلِها ما سيؤول إليه ولدُها بعْد أعوامٍ.

يعْدو أمام البيتِ مندفعًا على ساقيه ويديه خلف الأولادِ، فيكادُ قلبُها يندفع وراءَه، بدا اكتسبَ كلَّ الصّفاتِ التي خافتْ أن يكتسبها، وبدا بمُضي الوقتِ يتحوّل تدريجيًا ليُشبِه الكائنَ الذي قالت «العرّافةُ» إنّه حتمًا سيكونه.

منذ أنجبتهُ وهي لا تنامْ اللّيل، تسهر فوق رأسِه، تراقب تنفّسَه، تخشَى أنْ تتحقّق النبوءةُ فيسرح في غيابةِ الظّلام، تخشَى أنْ يُعيدونه إليها مِنْ على ضفافِ التّرع ومِنْ بيْن شوارع القرية النائية وأزقّتها، منذ وُلد وبه حسٌّ مُغايرٌ تجاه الأشياءِ، إنّه يتشمّم كلّ ما يُحيطه، لا يتلمّسه، يحدّق في الفراغ مُنتبهًا، ليس كعادةِ الأطفال، بل كعادةِ مستشعري الخطر، حتّى حينما بدأ يحبو، وكلّما اشتدّت قدماه ونمتا، ظلّ يحبو على أربعٍ، تمامًا كأنّه الكائنُ الذي تنبّأتْ به «العرّافة».

وقتَ أنْ اكتشفَ خَبيئةَ الدّم، كانتْ الشّمسُ تُعلن احتضارَها الدّوري، والنّساء يلملمنَ أنفسهنّ ليُغلقنَ أبوابَ بيوتهنّ المُشرعة طيلة النّهار.

فوقَ استواءِ الأرضِ غبارٌ خفيفٌ لا يكاد يصْل لاستشعارِ الأنوف، في السّماء ريحٌ لا يُدرك أثرُها إلّا إذا مرّت، وفي الأنحاء صِبْيةٌ لم تنتهِ ألعابهم بعْد، قال بعضُهم إنّهم انتبهوا للحادثةِ عندما رأوا جميعًا ظلّ

«روح» يلْعَب داخل هالةِ القمر البعيدة المتلألئة، يسرح على أربعٍ، بدا لهم خيالًا، لكنّ اتّفاق الرؤية ينفي صفة التّخيّل عَن الأشياءِ، شاهدوا ظلَّه واضحًا وضوحَ مشهدٍ دائرٍ أجمعتْ عليه الأبصارُ، يسير على وجهِ القمرِ الفضيّ، تجمّعوا، ثمّ رأوه خارجًا من باب بيتِه يقلّب ترابَ الدّربِ بيديه، وينبش قُربًا من موضعٍ بعينه، يقرض الطّريق كأنّما يتبع هاجسًا لئيمًا لا يؤتَى لطفلٍ في مثْل عمرِه، كان «روح» يزْحف وهو ينفخ منخاريْه دانيًا مِنْ بساطِ الأرْض، ويمطّ رأسَه للأمام مرّة ذات اليمين ومرّة ذات الشمال، بل بالأدقّ يحرّك أذنيه، يستوقفه شيءٌ ما، فيلصق بالأرض أذنَه، كأنّما يُنصت لصوت طالع مِنْ جوف الأرض لا يسمعه غيره، يترصّده ويتتبّعه في دقّة وتحفّز واستشعار نادر.

البيوت كلّها من دورٍ واحد، فإنْ تباهَى أحدُهم وتيسّر به الحال أقام دورًا آخر غير مسقوفٍ، تستدير البيوتُ مع استدارةِ الدّربِ المتعرّجِ إلى الشّارعِ الرّئيسي، قريبةً مِنْ بعضِها حتّى يكاد الرّجل المُطلّ مِنْ نافذته يكشف جميعَ أسرارِ غرف البيوت الرّابضة النّاحية المُقابلة، يبدو الدّربُ كأنّه أفعَى تهرب مِنْ حِصار صيّادٍ بعُصيّ غادرة، وهو ينعطف مراوغًا البيوت كي ينفتح في خلاء الشّارع الكبير، يومها كان «روح» أشبه بترِس ساقيةٍ سقط يتدحرج أرضًا ولم يستوِ، وهو يلفّ بيديه وساقيه متحسّسًا، يتسمّر قليلًا، ينتبه، ثمّ يستكمل دورانه على الأرض، وظلّه الذي في السّماء هناك الموشوم على وجه القمر يتحرّك وفق تحرّكه.

تمرّ اللّحظات مسكونةً بالترقّب، وأهل الدّرب يفدون واحدًا بعد الآخر، يدعكون أعينَهم، كأنّهم استفاقوا على معجزةِ زمنٍ يخلو من

الغرائبِ، لا يتابعون «روح» بقدر ما ينتظرون نهاية الحَدث، إذا سعل واحدٌ أسكته آخر، وإذا تمتمت امرأة دكّتها امرأة، كانوا يتابعون مشدوهين، في صمْتٍ، وكانوا وهم يتابعونه يحاولون الفهْم، يحاولون تفسير كيف يحدث هذا الأمرُ، وبدتْ كلّ العواملِ المؤدّيةِ لحدوثِه مستعصيةَ الاستيعاب، كأنّه نموذجٌ معقّدٌ من الإعجاز.

«روح» يستنزف ثباتهم جميعًا، بحاسّةٍ فريدةٍ مُنحت له، قطعًا لم يكن أحدٌ يعرفها ولا استدلّ عليها بعد، لكن أُحيلت التكهنات إلى أنّ ابن «أسماء الرّب» به عطيّة، أو لعنة، لا يُمكن لأحد أنْ يقطَع بيقين الإحالة، وإن شاهدوا بأعينهم، كلّ ما بإمكانهم وصف الولد به هو: ولدٌ موبوءٌ لا يُشبِه أولادنا.

أيُّ وباءٍ؟ لا يُجزمون بعْد، فقطْ أحسّوا أنّ ثمّة شيئًا قادمًا لا يُدرك كُنهُه على وجهِ التّحديد، قد يشعرون به شعورًا كهذا الذي يُشبه الحدْس البالغ حدّ اليقين المُشبَع بالتخوّف الحَذِر، وظِلّ «روح» المرسوم بوجه القمر يرمي عليهم الحيرةَ من أعلى، ويأمرهم أمرًا كي يجوسوا أعينَ بعضهم البعض في تساؤلٍ أبلَه، قد يشعرون، بأنّ إحساسًا ما يكمّم الأفواه الطّامحة للبوحِ، غريبًا عليهم، فيدفعهم للارتْقَابِ ليس أكثر، بل يشعرون أنّ في الأفق ثمّة رهبة، في الأفق ثمّة مصيبةٌ محتومة.

هكذا وقف ناسُ الدّربِ ينظرون، مرّة لأعلى في ظلّ «روح»، ومرّة في «روح» نفسه الذي يخمش بساط الأرض حبوًا.

هكذا نبضتْ قلوبُهم هذا النبْض المتوجّس.

حيال الأفق القريب ريحٌ بدت سترتدّ تطيح بالبيوتِ، وسماءٌ تشوبها حمرة، وخيالٌ يضبّب عقولَهم، وظلٌّ غرائبي النّسب يعانق صدرَ السّماء.

«أسماءُ الرّبِ» حاولتْ أن تجلب ابنَها حيطةً وتستعيده مِنْ آخرِ الدّربِ هناك فتجنبّه مراقبةَ النّاسِ، نادتْ عليه، فلم يستجب، وثبتْ نحوه، إنّما لم تستطعْ اللّحاقَ به، حجزتها أجسادُ النّسوةِ -الجالسات يراقبن- عن المرورِ إليه، إنّها تعْرف عن غرابتِه واختلافِه، وليس لهذا الاختلاف أنْ يُفضّ لثامُه سريعًا هكذا، عاصرتْ بعضُ النّساء طقوسَها - التي رأتْ بعضُهنّ أنّ فيها الكثيرَ مِنْ الشّططِ- وهي في طريقِها لإنجاب الولد، غير أنّ الأمرَ لم يتجاوز نطاقَ «بعض النّسوة»، بيد أنّ المسألةَ تصير مفضوحةً بمثل هذا الشّكل، وعلنيةً، يستلزم الكثيرَ مِنْ الخوفِ والحذرِ على مصير ابنها بينهم، شذوذُ صفاتِه سيجعلهم حتمًا ينبذونه، مِنْ ثمّ يضحى التعاملُ معْه كآفةٍ غريبةٍ.

«روح» يمْضي خلف استشعارِه، يشمّم، يغرس أصابعَه في التّرابِ ويتقدّم نحو موضعٍ هو فقط يحسّ به، بعد قليل توقّف، دخل بيتًا مهجورًا مُظلمًا، أمامه أطنانٌ من القمامة، فهرول وراءه النّاسُ، غاب داخل البيت، دخلوا خلفَه، كان في يدِ أحدِهم شعلةُ حطبٍ، أتاحت للجميع أنْ يستكملوا رؤيتَهم، وإنْ كانت قاصرةً محدودةً لا تشمل كلّ تفاصيل المكان، دبّ «روح» أصابعَه في الأرضِ، ظلّ يُفرّغها مِنْ التّراب على عجلٍ، ثمّ بأسنانه قبض على جسمٍ ليّن، استخْرجه، وعاد ببصرِه إليهم، كان مبتسمًا كأنّه لم يزل يلهو، لكنّهم بُوغتوا، لم يكُن ليجرؤ أحدٌ أنْ ينبس بكلمةٍ، وفي فمّ «روح» ذراعٌ بشريّةٌ، ذراعٌ مقطوعةٌ،

كاملةٌ، بدمّها المتجلّط على حوافِّها، بالزّرقة التي استوضحوها ولو في ظلّ العتمة السّائدة.

أدمغتُهم عجزتْ عن وصفِ الأمر، لم تذهب لأصل الفِعل، المعلوم سلفًا، بل جميعهم فكّروا - وفي نفس اللّحظة غالبًا - كيف أمكن لابنِ أربع سنواتٍ أن يكشف عن خبيئة دمّ باستشعارٍ غير مسبوق؟! ثمّ ما هذا الظّل الذي يتراقص في حشية القمر؟!

لكنّهم سرعان ما استحضروا فضولَهم المسمومَ، فنظروا إلى أعينِ بعضِهم البعض، الأعينُ تصطرع، تلمع، كأنّ بداخلِها إجاباتٍ غير منطوقة، كانتْ الأبصارُ ترتدّ مذعورةً ممّا انكشف، لكنّهم حفروا أكثر مِنْ بعْدِ «روح»، ما دامت افتُضِحتْ الخبيئةُ فليقضِ الرّبُ بتمامِ الافتضاحِ.

في باطنِ الحفرة تمدّدت امرأةٌ ممزّعةُ الأطرافِ، دافنُها قطّعها قبل أن يضعها في قلبِ الأرض، الجثّةُ طازجةٌ بالكادِ، وملامحُ المرأةِ لا يُمكن أن تُلاحظ إلّا بإنارةٍ أكبر وتركيزٍ أشدّ، حمل بعضُهم أجزاءها المُستخلَصة مِنْ بطن الحفرةِ وخرجوا، وبحماقةٍ وتسرّع ودونما تفكير رموها في فضاءِ الدّرب، في منتصفِ طريق العابرين، على أنّ هذا يُفترَض كونُه التّصرّف الأمثل، وقد شاهت ملامحُها مِنْ أثرِ التّراب وعوامل التورية الجبريّة، غير أنّها صارتْ فُرجة القاصي والدّاني، كانوا يتجمّعون مِنْ أطراف القرية، انتشر الخبرُ بطريقةٍ مشبوهةٍ لم يحتسبوها، في لمح البّصر امتلأ الدّرب بالرّجالِ والنّساء، البعض يهمهم عن صاحب الدّم، والكثيرون ما زالوا يتفكّرون في القدرة الغرائبية

لابـن «أسـماء الـرّب»، الـذي تركهـم وانـصرف يجبـو بعيـدًا، الولـد لا يفهـم، اكتشـافُه الخبيثْـة كان مقرونًـا بالحاسّـة، لا بالعقـل، جلـس «روح» هنـاك وابتسـامتُه لم تُفـارق ثغـرَه، كأنّ بـه يُقارعهـم، يسـخر منهـم جميعًـا ومِـنْ غفلتهـم وهـم أصحـابُ مـكانٍ، ظلّـوا يحدّقـون في الجثّـة ويهمسـون بصـوتٍ خافـتٍ، عبـارات أغلبُهـا لا تميّـز، خصوصًـا لـ «أسـماء الـرّب»، التـي افترشـتْ رُكنًـا غـيرَ بعيـدٍ عـن موضـعِ الجثّـة، إلى أنْ وصـل كبـيرُ القريـةِ، المفاجـأةُ أقعدتـه أرضًـا، مـضى يجـوس بعينيـه الرّجـالَ وهـو يزفـر زفـرات سريعـة منفعلـة، حـاول أن يفطِـن بنظراتـه، لكـنّ أحـدًا لم يكـن يفهـم كيـف انكشـفتْ الخبيثْـةُ ليُريـح نظراتَـه الحائـرة، ضربَ كفّيـه، ثـمّ جاهـدَ أن ينْطـق، فصمـت، فمصمـص شـفتيه بلسـانِه، وجـزّ عـلى أسـنانِه محتقنًـا، في الأخـير كان حُكمُـه أن تُدفـن المـرأةُ في الجبّانـة مثْلهـا مثْـل أهـل القريـة، فقـال أحدُهـم مسـتنكرًا:

- لا تُدفن الآثام في جبّانتنا يا كبيرنا!

وقال آخر:

- سيعيّرنا الرّجال!

ردّ وصوتُه مبحوحٌ فيه حشرجةُ الصّدمة:

- إذًا تريـد أنْ تـدوس أقـدامُ «القبضيـة» قريتكـم؟ يقلّبـون بيوتكـم ويهتكـون سـترها؟ أتريـدون لنسـائِكم أنْ ينكشـفن عـلى غربـاءٍ لا يعرفـون منطـق الرّحمـة والحيـاء؟

صـار لغـطٌ وتداولـت المسـألةُ، بـين النّسـاءِ والرّجـالِ، لم يقتنـع بعضُهـم،

لكنّ آخرين أقنعوهم بحجّة المخَافة، آمنون نحن رغم كلّ أسرارِنا، فما الدّاعي نثير انتباه «القبضية»؟

قِيل هذا، فاجتمعَ الرّجالُ في بيت الكبير، صحيحٌ يخشى على مركزِه، يخشى من «القبضية» لو دكّت قريته، لأنّ «القبضية» لو هبطت لن تخرج إلّا بفاعلٍ، ولو ألصقوا التّهمة حتّى به هو شخصيًا، أو كلّ رجال القرية على اختلافِ قربِهم من الضّحيةِ، كان من الأرجح إذًا أن يكتْمون على الأمرِ تلافيًا للشّر، لذا، عن غير قناعةٍ كاملةٍ انصرفَ الرّجال يُطيعون أمر الكبير، من باب درأ الشّبهات عن القرية، وحيث لم تكن لديهم ثقافةُ احتواءِ مثل هذه الأمورِ العُظمى، وإنْ آمنوا بأمرٍ وحيدٍ، هو إبقاء الموضوع سرًّا لا يخرْج عن قريتهم طالما يعرفون جميعُهم أصلَ المسألة.

حملوها، في كلٍّ يد رجلٍ قطعةُ لحمٍ من أجزائِها، وفي الجبّانة المُتطرّفة غرب القرية، حفروا لها قبرًا لا يكاد يتّسع لجسدِ طفلٍ رضيعٍ، لكنّهم دكّوها لتلتصق أكثر ببطنِ الحُفرة، ووزّعوا بجانبِها أطرافَها المُنتزَعة، كانتْ الأصنامُ المقدودةُ من عِظام الموتى، والمنصوبة فوق القبور كشواهدٍ لشهرِ «العَزاء» المُقدّس الذي يحظَى به الرّجالُ من العامِ للعام، مترامية من حولِهم، وبدوا يخشون أن تدبّ الحياة في الأصنام، وتعرّق بعضُ الرّجال، وارتعشت أياديَ آخرين، والسّماءُ أصابها الخَرس، وهم يحثون التّراب فوق الجثّة، ثمّ يهبطون بأرجِلهم يساوون كُتل التّراب النّاتئة، التي تخلّفتْ بعد استكمالهم الدّفن، ببقيّة أرض الجبّانة من حول القبر.

لكـن هنـاك، في الجـوار؛ الجـوار القريـب، بـل ووسـط آلاف الأفدنـة البعيـدة المُترامية، في القُـرَى الأخـرى والمُـدن، وخلـف جـدارات البيـوت، هنـاك بـين الغِيطـان الخـضراء، وبـين تلابيـب الأشـجار، بـين سـفوح الجبـال، ووديـان الصّحـاري، في أفنيـة الـدّور، وعـلى الحُـصر التـي تتضـوّع أمـامَ المنـازل، ولأنّ مثـل هـذه الوقائـع لا تصمُـد عـلى كتمانِهـا الألسـنةُ، شِـيع الخـبر، والـسّر ذاع وبـات مَحكَـيً، جَلـسَ النّـاس، تَزاحموا، وتَهامسـوا سِرًّا، ثـم ردّدوا جَهـرًا، فارتـاع البعـضُ، ولم يُبـالِ البعـضُ، بـل وسَـخِر البعـضُ، وضَحـكَ آخـرون، وتشـفّى ممّـن لهـم عنـد قريتهـم حكايـةٌ تدعو للتشـفّي.

هنـا؛ في القريـة، غالبًـا مـا تكـون الوقائـعُ بنـت النّهـار، فالوقائعُ المشـهود لهـا بالدّيمومـة، كلّهـا تحـدث في النّهـار، وفي اللّيـل تُسـجَّل الوقائـع في ذاكـرة القريـة، وإن كان للّيـل أيضًـا وقائعـه الخاصّـة، إنّـما تلـك مشـكوكٌ في صحّتِهـا دائـمًا، حيـث الـذي أُشـيع عـن اللّيـل، إنّـه لا يؤخـذ منـه ولا له يُعطـى؛ هكـذا حـال اللّيـل في القريـة.

غير أنّ حكاية خبيئْة الدّم حدثت في اللّيل، على غير عادةٍ.

في نهـارِ القريـةِ، تبـدو الشّـمسُ مثـل بلّـورة ناريّـة معلّقـة تترنّـح بـين الأرضِ وأقـرب سـماء، تمامًـا كعـينِ الشرّيـر يـوم أغـواه تحـدّي الـرّب، تبـدو البيـوتُ تحتهـا منكـسرةً خاملـةً، قابعـةً بـلا حيلـة، متراصّةً باسـتدارة المخـاوف؛ كلّ مخـاوف هـذه الحيـاة، كأنّـما منكفئـة ورؤوسُـها مطأطئـة، إنّ البيـوت هـذي - لـو تـدري الشّـمس - لا تخشـى سـطوتَها، لكـن بـدا أنّهـا أيقنـت أنّ النّظـر لأعـلى لم يعُـد ذا جـدوى، فاستسـلمتْ، واندفسـتْ بـين

سباطات النّخيل المترامي حولها دون هدى.

هكذا يجوز للحكايةِ أن تُختزل، وبين حكايةٍ قديمةٍ، وحكايةٍ أخيرةٍ، حفنةٌ من حكايات لا حصر لها، ما أسرع أن تُنسَى، تسقط من ذاكرة المكان، لولا أنّ البعض لم يزل يردّد بعضَها، كعظةٍ متواترة، مجرّد الاحتذاء بها عبث، إنّها عظات مُهدَرة، وحكايات مندثْرة.

والقريةُ تعتزل بنفسِها عنْد آخر حدودِ العطش، وكان يُمكن لأهلِ القرية أن يروا من فوق أسطح البيوت قممَ الجبال البعيدة الرّمادية التي تطوّق مدخلَ الصّحراءِ، كانوا يرون قمّةَ معبد الغرباءِ المُنحدر مِن بطن الجبل، الغُرباء الذين قيل إنّهم رُسل الرّب، وقيل إنّهم رُسل الشّر، الذي يُحاصر أزْمنةَ البشر، بتأويلات مِزاجية.

وكما قيل إنّهم رُسل الرّب، أيضًا كانتْ «أسماءُ الرّبِ» تقول لنفسِها: لعلّهم كانوا رُسلَ الخيال.. رُسلَ الغيب.. أو رُسلَ المصير.

الشّرُ في السّماءِ، وعلى الأرضِ أبناؤه، وأبناؤه يعبثون بالبداياتِ الصّغيرةِ التي لا يُمكن للتّاريخ أن يوثّقها، إنّما تؤدّي بحتميةِ العبْثِ إلى نهاياتٍ جزافيةٍ، فتتبدّل المصائرُ، وتتقاطع الأقدارُ، يمرح أبناؤه بيْن ظلالِ النّخيل، حيث لا تستطيع عينٌ أنْ ترصدهم، إنّما يسمع النّاسُ تصايحَهم، يتقافزون فوق أسطحِ البيوت، ينفخون فيشتعل الصّباحُ، وتأتي الشّمس.

شعرتْ «أسماء الرّب» بأنّ ولدَها «روح» أحد العابثين بالبداياتِ الصّغيرة، فلم تسترْح، أيقنت أنّ ابنَها صار مُضغةً سوف يلوكها الخلقُ، إذ هكذا تبدأ الحكايات، المنسيّة، والخالدة.

حادثتْ زوجَها «دُرّ» كثيرًا عن مخاوفها، كان يعرف جزءًا مِنْ شكل السّرِ القديم، لا باطنَ السّرِ، يعرف - فقطْ - طقسَها الذي مارستهُ للحفاظِ على خبيئْة بطنِها، ولم يكن يعرف كيف نمتْ البذرةُ في الأحشاءِ، إنّما ظلّ دائمًا يردّد:

- ربّما هذا مصيرُه الذي ارتضاه له الرّبُ.

- «روح» يُشبه الـ...

يُجبرها على الصّمت بنظرةٍ حادّة:

- لو أدركنا مصائرَنا لما أصبح للحياة معنىً، يكون مثلها مثل الموتِ.

ولم تكنْ تطمئن مهما طمأنها، تسهرْ جوار «روح» طيلةَ اللّيلِ، تُحملق في ملامِحه الجامدة، في ارتعاشةِ أهدابه وهو يتقلّب، تمسح العرقَ الذي ينزّ من جبهته، صيفًا شتاءً، يتمتم وهو نائم، بمعنى أدقّ، يعوي، يعوي بصوتٍ خافتٍ لا يكاد يلحظهُ إلّا مُنصِتٌ، ويلهج بلسانِه كأنّه عطشان، تسحبه لحضنِها، لكنّه يدفعها بغير حيلةٍ، بغير إدراكٍ، ويستكمل عواءَه الخافت، بل إنّها لاحظت تحرّك أذنيه ولو بشكلٍ طفيف.

هكذا تقوم ليلَها، كأنّما الرّب يمتحنها فيما اقترفتْ، يمتحنها في مُعطيات الغفران نفسه، ولا توشك تقتنص ساعةً أو اثنتين كي تُريح عينيها، حتّى يستيقظ «روح» قافزًا عليها، يلعق خدّها في براءةِ طفلٍ، بل في براءةٍ لا يُمكن أن تكون للأطفال الطّبيعيين.

توسّده صدرَها وتنهنه، إنّها تحبّه كما لم تحبّ شيئًا في هذه الحياة، لا

يُمكن لأحدٍ أن يلاحظَ معانيَ جماله، وبدا لا يتعرّف عليها غيرُ قلبِها، هي فقطْ، قلبُها الذي يُعتصر كلّما تتذكّر كلام «العرّافة»:

- إذا أحببتِ شيئًا بشدّة، فاستعدّي لخسارتِه.

يحمله أبوه على كتفيه، ويسير به في القرية مُباهيًا، يقولون:

- كفاك تدليلًا للولدِ يا «دُرّ»، اتركه يشتدّ عودُه.

فيردّ:

- ومالكم أنتم؟ ولدي أم ولدُكم؟ إنّه هِبة الرّب بعد الصّبر والشّقاء.

«روح» يلهو كما يلهو الأطفالُ تمامًا، نعم على أربعٍ، لكنّه يُدرك اللّهو، فيأتيه، «أسماءُ الرّب» كانت تحتفظ بالسّرِ داخلها، تعرف أنّ الأسرار التي لا يُمكن البوح بها قد تفتح بابًا من الهلاكِ إن أُذيعت، يعرّج الإنسان من ظلمةٍ إلى ظلمةٍ ومن تيهٍ إلى تيه، غير أنّ الرّبَ عارفٌ، يمنحه في المقابل سترًا وإيمانًا ورضا، يجعلونه في عزّ الظّلمةِ والتّيهِ يلمحَ بصيصَ الضّوءِ ولو على قارعةِ الحُلم، كان «روح» هو بصيصُ الضّوءِ، تنظر إليه وهو يعدو أمام بصرِها: آه يا «روح»، بعضُ الجراح شفاؤها أنتَ، وإن كانتْ كلّها أنت.

ثمّ تتمتم:

- اقترفتُ الإثم لأجلكِ يا ولدي، تُرى هل غفر لي الرّبُ بعد كلّ هذه السّنوات؟

كلُّ عامٍ، تتمنّى «أسماءُ الرّب» ألّا يوغلَ ولدُها في أحشاءِ الحقيقة

أعمْق، كي لا يُخبره القدرُ بما خبّأته لسنواتٍ طوال داخل صدرِها، بل وطوتْ عليه طيًّا، لم يهزمها شيءٌ قدر رغبتِها في إنجابه، ظلّت تُعارك رغبتَها تلك، وفي المعاركِ لا توجد حقيقةٌ، فقط يوجد انتصارٌ، إذ سرعان ما تموت الحقيقةُ، كانتْ المعركةُ التي انهزمت فيها هي معركتُها مع نفسِها، غلبتْ عليها رغبتُها في «روح»، كانتْ تشعر كأنّها مُستهلكة، كواحدةٍ من قُدامى تواريخِ البشر، كلّ هذا لرغبةٍ مشروعةٍ، ولو تحقّقتْ من خلال فِعلٍ آثم.

إنّها لم تكن تعرفْ الخيانةَ مِنْ قبل، ولا راودها هاجسٌ أو هفّ جسدُها لنزوةٍ، ولا اشتهتْ رجلًا آخر، ولا يومًا ساورها شكٌّ في إخلاصِها المُفرط والمتناهي لزوجها، غير أنّ المحظور دومًا تفرضه ضرورةٌ ما، ضرورةٌ إنسانيّةٌ ربّما، أو ضرورةٌ مصيريّةٌ، ليس فيها شُبهةُ الشّهوةِ، كلُّ ما في الأمرِ أنّ رغبتَها جارفةٌ وكامنةٌ في إنجابِ ولدٍ، وكانتْ رغبتُها تلك تُجبرها على اتّخاذ كلِّ وسائلِ الأمل، والمُكرَه لا يؤاخذ على ما أُكْرِه عليه، كادتْ السّنون تمضي، بل وبدت تتقطّع في كلّ عامٍ من بعد عام أواصرُ الإنجاب، فيتضاءل العالم في عينيها أكثر فأكثر، فمثلًا؛ هي جرّبت كلّ المشورات والنّصائح والأدوية، والأقاويل المُرسلة حتّى، بلا جدوى، إذ تمامًا، وفي موعده المحدّد في الشّهر الخامس، يسقط الجنين، يسقط مشوّهًا، يسقط حيًّا، ثمّ يموت بين أحضانها، وأول ما تمسّه يداها يلفظ أنفاسه الأولى والأخيرة، تجلس بالسّاعات ترسم في ورقةٍ وفق ما يحلو لها من ملامح هذا الوليد الذي قُضيَ، لم يكن رسمُها موفّقًا في العموم، لكنّها كانتْ تفرّخ أوجاعها على الورق، وكون يموت أبناؤها، واحدًا بعد

الآخر، بنفس الكيفية، كلّ عام، أمرًا كاد يورّث فيها الخبل واليأس، لكنّها لم تزل مستمسكةً بإيمانها بالقدرة، قدرة جسدها أولًا، ثمّ قدرة الإصرار، هكذا كان لابدّ أن تعاقر كافة الطّرق، بدءًا مِنْ طوافها على كلّ أطبّة النّاحية، والنواحي المجاورة، بلْ وسافرت إلى أبعد ممّا يُمكن أن تحتمل، لمجرّد أنّ إحداهنّ زارت حكيمًا أو درويشًا أو صالحًا ناصحًا في ذلك المكان النّائي.

ومِنْ شدّة رغبتها في ولد، اتّفقت معها بعض النّساء على الذّهاب إلى معبد الغُرباء، وهو محرّم عليهنّ بشكلٍ قطعي، وقد عُرف أنّ أصنامَه عرايا.

ستجازف «أسماءُ الرّب» بدخول المعبد، لن تقتصْد في جلْب الحِيل المُمكِنة لبلوغِ الأمل، ولو ترتّب على الأمرِ اتّهامُها بالعِصيان والإثْم، وإنّما ليحدث في كتمانٍ شديدٍ، فإذا لم يكن لامرأةٍ أنْ تعاين الأصنام التي عاينها رجالهنّ في المعبد، ولا أن تفهم سرّ البركة التي تسكنه، ولا أن تعي ما الذي قد تمثّله هذه الحجارة كي يجرّمها عليهنّ الرّجال، فالسّرية فرضٌ، إنهنّ يسمعن الحكايات فقطْ، حكايات القبور المردومة تحت أرضِ القرية، التي يخرج أمواتُها ليلًا ويتفقّدون حال البشر، قبور يحرسها الجنّ والعفاريت والطّلاسم والطّقوس واللّعنات، قبور الأغراب الذين بنوا المعبد ومحا نسلَهم التّاريخ.

أرجأت «أسماء الرّب» زيارتها عامًا من بعد عام، كانت تقول لنفسها ما دامت ثمّة طريقٌ لم تُطرق بعد فلتؤجّل دخول المعبد، ولمّا استفحل بداخلها القنوطُ، وانحرفت كلُّ المسالكِ عن مساراتها المبتْغاة، كادت

تُعتَه، أحسّت بغمامِ الحسرة يطوّق عينيها، فذهبتْ مع بعض النّسوة، دخلن المعبد ذات وقتٍ مُختَلس، تعرّت «أسماء الرّب» تحت قدمي الصّنم الضّخم الرّابض في بهو المعبد، بل تركتْ نفسها تنتحب كأنّما لم تبكي منذ أول الزّمن، أو كأنّما البكاء فريضة متّبعة، فرقصن النّسوة لمباشرة الطّقوس، واحتفلن بقربان الجسد، وظللن يطُفن حول الصّنم و «أسماءُ الرّب» تحكّ جسدها به، وهاجت كثيرات كأنّهن يكتمن رغباتهنّ مثلها، وفارت الأجسامُ، وتلاحمن في الطّواف، والصّنمُ لا يتحرّك وإنْ حرّك المشاعرَ، والرّجالُ في البيوتِ، أصنامٌ تتحرّك، ولا تحرّك المشاعرَ، قيل إنّ الرّب يسكن الصّنم، والغرائزُ مدفونةٌ في عُمق ذاكرة الجسد نفسها، إنّهن كلّما تعرينّ ورقصن، ازددن قربًا من السّماء، بل ولعلّ السّماءَ تستجيب، لا لرجاء «أسماء الرّب» وحدها، إنّما أيضًا لرجاءٍ مكبوتٍ في كلّ واحدةٍ منهنّ، طالما أنّ جميع الدّعوات التي كانتْ لم تُجب، فتعرّت النّساء كما ينبغي التعرّي، ورقدن تحت قدمي الصّنم، وغابت العقول، في طقْسٍ لم يُمارسنه من ذي قبل، لكنّه طقس له نشوةٌ غير اعتيادية، ليست تُماثلها لا نشوة فِراشٍ ولا نشوة ملامسةِ فحولة رجلٍ من رجالهنّ، فملامسة حجر الصّنم لها وقعُ أسطورةٍ دافئةٍ، ووقعُ عشقٍ مقدّسٍ، ولها ألفةُ أزلٍ لم يجرّبنه، وفي الجوار طيورٌ مغرّدة، وريحٌ عاكفة تسامر أرجاء الحجارة كأنّ يربطْهما الأزلُ، في الجوار صدحٌ سماويّ، ونغمٌ، ونورٌ، وبهجةٌ، واكتمالُ الطّقسِ يكمُن في نزوتِه المُشتْهَاة، في تغلغله داخل حشايا كلّ واحدةٍ منهنّ، فالنّساء يرقدن يتمرّغن في تِبر قدمي الصّنم، ويعانقنه، ويسرحن بألسنتهنّ في بطن قضيبه الممتدّ منذ آلاف الأعوام، وفي رأسِه.

قال لهنّ الرّجالُ إنّ تمثالَ الخصوبة قابعٌ في قلب المعبد، ولم يفهمن،لم يحدثهنّ الرّجالُ عن قضيبِه الحجري، ولا عن طلّة عينيه المليئة بالنّزق، ولا عن جسمِه المسوّى بالنّار والذّهب والحجارة والقدسية.

والنّساءُ يلتهبن على أعتابِ كلِّ الآثام الممنوعة، ويتبدّل الطّقس من مجرّد طقس خاص جدًّا استجابة لرغبة «أسماء الرّب» في ولدٍ كاملٍ، إلى طقسٍ عام سرَى عليهنّ وخدّر عقولهنّ، باشرنه رغم الحذر، شغفن به رغم الحظر.

يتأبطنّ الصّنمَ الفحْل، ويجارين نشوة بدتْ طارئةً، وإنْ كانتْ مدفونةً في أجسادهنّ منذ النّشأة، قضيبُ الصّنم واقفٌ كعلامةِ ميلادٍ أزليةٍ، والقريةُ فيها من الأسرارِ ما يكفي، ما يجعل السّرَ الجديدَ أضحوكةً لاهية، وعبثًا لا يُمكن أن يُلام عليه إن أُدرك أو شِيع، بل ولا يؤاخذ عليه، فالسّرُ أصلًا في الرّهبة، رهبة الإتيان، قضيبٌ ضخمٌ، يتبادلنه، دون غضاضةٍ، واحدةٌ إثر واحدة، العُرى دليلٌ على غيابِ الحَرج، والقضيبُ دافئ حقًّا، دفءَ أعوامٍ من الإرث القديم، التأوّهات تبلغ عنان الرّجاء، هكذا تكون القرابين التي لا يُمكن للسّماء أن تصمُد قبالتها، أرضُ المعْبدِ تتخضّب بنزيف الأرواح، بالسّوائلِ المكنونة، المخفيّةِ داخل أعمق نقطةٍ في ضمائر النّساء، والصّنمُ كأنّه سيستردّ عافيتَه ورُوحه.

ومع عودة النّساء، تجتاح البيوتَ اللّعنة، لعنةُ التّجربة التي لن يصبح بإمكان الأجسادِ تناسيَها، وسيُمسي الرّجالُ عاجزين عن فهم نوبات تقلّب نسائهنّ المتفاوتة، لكن «أسماء الرّب» لم يُدهشها طقسٌ،

ولم تصبْها لعنةٌ، كلّ الذي فكّرت فيه في العامِ التّالي، وعندما سقط وليدٌ جديدٌ، غير مُكتملٍ، هو أنّه حتّى الوسيط الذي اتّخذته قربانًا للرّب، كان عاجزًا مزيّفًا.

خرجتْ في صباحِ عامٍ آخر، «دُرّ» لا يدعها وحدها أبدًا، تجهّز لسفرٍ شاقّ، حوّط جسده بعباءة من صوف، وتحرّزت هي بقميصين داخليين من «دبلان»، وعباءة قطنية، و «حَبرة» سوداء واسعة، لفّت بها جسمها، وكان الجو شتاءً، خرجا فارتحلا، قطعا مسافةَ مائة قريةٍ على ظهر جمل، وفي الطّريق تعاقب اللّيلُ بالنّهار، وتسابقتْ أسرابُ طيورٍ فوقهما في مضمار السّماء، واجتازت القافلةُ مساربَ وترعًا ومصارفَ وأنهارًا، مرّة عبورًا بالأقدام، ومرّة عبورًا فوق «رفّاسٍ» ضخم حديدي ينفث من منخاريه الدّخان الأسود الكثيف، وكادت «أسماء الرّب» تُهلك وهي تفتح ساقيها لتضع إحداهما داخل بطن «الرفّاس»، فشدّها «دُرّ» إليه، إذ فجأة تقلقل «الرّفاسُ»، أو بدا سيتحرّك، لكن سقطتْ «أسماء الرّب» بين جسم «الرّفاس» والمرساة، غطسَ وراءها «دُرّ»، دفنَ رأسه في فرجِها وأزاحها لفوق، انتشلها قبل أن يشفطها التّيار، خرجتْ تبصق الماءَ من فمها، شدّها الرّجالُ، ثمّ برزت رأسُ «دُرّ»، فشدّوه، طوتهُ على صدرِها، وانتحبتْ، فقال:

- أمِنْ أجلِ الولد نضيعُ يا «أسماء الرّب»؟

شعرتْ بنبرته، كانتْ تعلم أنّ هوسَها بإنجابِ ولدٍ يفوق رغْبة «دُرّ»، إنّه إذا يئس لتزوّج أخرى، هي نفسها ما كانتْ لتمنعه، مع ذلك احتملَ كثيرًا، لم يحتمل الحرمانَ قدرَ إصرارِها المتأصّلِ، بل وفاقَ صبرُه صبرَها، وكلّما حملتْ شكر الرّب، وكلّما سقطَ الجنينُ في شهرِه

الخامس يشكر الرّب أيضًا، إنّما هي يخيّم اليأس على جوانب روحها، وأطلال الزّمن المهدَر تتبلوّر في كلّ عام عن مصيرٍ لم تعُد تأتلِف معه، النّارُ في الأحشاء، والإصرارُ الدءوب أنجح الاحتمالات بالنسبة لها، أمّا «دُرّ» فلم يعرف القنوطُ مدخلًا إلى عقيدتِه، في كلّ مرّة يقوم بما يفرضه عليه إحساس الأبوة تجاه «أسماء الرّب»، لا إحساس الزّوج، تنظُر إلى عجزِه أمامها بعينِ عاشقةٍ لا زوجة، ومع ذلك، إذا ظلّ يداعب نفسَه في أسى، ويقلّب بين أناملِه قضيبَه، ويتمتم: هل هذا صغيرٌ لدرجة لا يُمكنه بها بلوغ عُمق الرّجاء يا «أسماء الرّب»؟ ما الذي ينقُصني كي يكتمل منّي ولدٌ فيكِ؟ تتأبطه، لم تكن قد جرّبت رجلًا قبله ولا بعْده للحُكم على حجمِ ذكورتِه، لكنّها تهمس له في إشفاق:

- وما أدراني يا رجل؟! أنتَ تُسعدني كيفما كنت يا «دُرّ».

وفي كلّ مرّة يبدو يحمله إليها شوقٌ أكبر من ذي قبل، يجتاحها برغبةٍ كاسحة، كأنّما هي المرّة المرجوّة، لم تفتر ولم تخبُ رغبتُه فيها، ينتظر فقطْ إلى أن تهجع القريةُ، ثم يُوقد مشعلًا لا يكاد ضوؤه يصل أبعد من مرأى جسديْهما، يقول لها:

- أحبّ أن آتيكِ بنورٍ كي أرى شوقَ جسدك بعينيّ.

- النّورُ ينبعث من عينيْك، فأضويّ.

تعوّدتْ أن يصلَ صراخُها للبيوتِ المجاورةِ، وتعوّد «دُرّ» عقب كلّ لقاءٍ أن يقابله جارٌ فيغمز بطرف عينِه، فيبتسم، وكأنّما بغمزتِه أشاد بذكورتِه.

«أسماء الرّب» حين تصرُخ، فهي صادقة أبعد ما يكون الصّدقُ،

تشعر أعصابها بمقدار ما يختزنه «دُرّ» من شوقٍ وعشقٍ إليها، فتترك نفسها لطوفانه، يرميها على ضفافٍ بعيدة، تتيه فيهما، وتتيه الضفافُ فيها، وتبدو مشاعرُها كأنّما نهرٌ فاضَ فلم يكفِه شطٌّ ولا برٌّ، تمتزج روحُها بروح «دُرّ» مثل عجينةٍ، وتصبح الحياةُ ولا كأنّها مرئيةٌ، بل عبارة عن أثيرٍ من دفء، ولم يضع هدفُه قطْ، دومًا تحبل منه، وبعد كلِّ نوبة عشق، يسألها، كأنّه المتحيّر:

- رغم السّنوات، إلى أيّ مدى أبقيتِ على شوقِك لي؟

- المحبّةُ شرطُ البقاء.

- وهل ما زلتُ باقيًا فيكِ؟

تقول لائمة:

- أنت أعرَف منّي بي، لا إكراه في الشّوق ولا شفاعة في الهوى يا رجل.

يهمس مغازلًا:

- خيرُ الهوى أنتِ، ودونكِ كلُّ الهوى شرٌّ.

ويضمّها إليه ضمّة عاشق لم يسترِح شوقه، فتقول:

- لا أحتاج أكثر من هذا الحضن كي أشعر أنّ في الدنيا ملاذًا آمنًا لمحرومةٍ مثلي.

يُبعدها متمتمًا في عتاب:

- مهما حاول الحرمانُ أن يسلبك منّي يا «أسماء الرّب»، مهما

حاولت الظّروفُ وحاول اليأسُ، فحضني هو أمانُك الوحيد، بل مهما كان شرعُ الحزنِ، سوف يبقى حضني لكِ ملاذًا.

ثمّ يلثّمها في جبينها، فيرتعش جسدُها تنهّدًا.

ولم يكن يُغضِبها إن هجم عليها يعجنها ضربًا، كأنّ بها تستعذب الضّرب مرّة وراء مرّة، بل كثيرًا ما جهّزت له نفسها وتحمّمت وضفّرت شعرها وأغرقت جسمها بالعِطر عقب كلّ علقةٍ حاميةٍ، وتشوّقتْ حضورَه لمنحِه ليلة من ليالي المحبّة، وكان كلّما يضربها، ترتمي تحت قدميه تقبّلهما، ويروق لها أن تستنفر غضبَه استفزازًا، بسبب الغيرة أو عدم طاعة أوامرِه، وتتعمّد كسر كلامه كي ينهال عليها ضربًا، وتتمرّغ تحت تراب قدميه، وإن كان منظره يرعبها، تنفر عروقه وتمتلئ بالدّم، ويكبّ وجهه احمرارًا، ويستأثر به الغضبُ فيسبّ ويلعن ويتحوّل تحوّلًا أشبه ببركانٍ سرعان ما يخْمد، كانت تعرف أنّه سريعُ الغضبِ سريعُ الرّضا، طيّب القلب ولا يحيط به النّقم إلّا للحظات قلائل، تحتمي بضمّته قائلةً بعد كلّ خلافٍ أومشادةٍ:

- أجْمل العلاقات وأصدقها؛ تلك التي كلّما تقطّعتْ، صانها الشّوقُ.

عندما خرجتْ «أسماء الرّب» من وحشةِ المياه البّاردة، لم تلتفتْ إلى ملابسها التي تقطّر الماءَ، كان جزعُها على «دُرّ» قد عطّل حواسَّها وأفقدها الحِشمة، أزاحتْ بيديها الرّجالَ الذين حوّزوه، بدا في ساعديها هذا القدرُ من اللّهفة، ضمّته إليها، ابتسم ابتسامةً لا تكاد تُلمح، وكأنّما يتساءل بعينيه: لماذا جيء بنا يا حبيبتي إلى مثل هذه الأماكن المُهلِكة؟ أما اكتفينا بنفسينا عوضًا عن ولدٍ سنموت دونه؟

الرّيحُ فيما قليل استوحشت عليهما، كانا ينفذان من طريقٍ إلى أخرى، وجسداهما يرتجفان من البرد، حتّى بلغا سفحَ جبلٍ قيل إنّ ساكنَه لديه أسرارُ الرّب، طرقا بابَه ولم يكن لديّه زوّارٌ غيرهما، كانتْ الشّمس توشك على السّفر إلى أرضٍ أخرى، وبساقيها ترنّ خلاخيلٌ من ذهبِ النّهار، وكانتْ الأشجارُ من حولهما تتراقص بفعِل الهواء الذي بدا يتدافع من كلّ اتّجاه، فتح لهما رجلٌ عجوز، أنبأته هيئتُهما عن غرضِ الزّيارة، استقبلهما في حفاوةٍ حكيمٍ بلغ أواخر العُمر، ولم يكد يجلس «دُرّ» حتّى انهمرت «أسماء الرّب» في شكواها، المتسائلة حينًا، والسّاخطة أحيانًا، استمع لها الرّجلُ دون أن يقاطعها، في صبرٍ وفي اعتيادٍ مسبّقٍ، أخرج «دُرّ» من جيبِ جلبابه بعضَ النقود كأنّه استشعر الحرج، كيما تستفيض «أسماء الرّب» في قصّ حكايتها مسترسلةً بلا غضاضة، رفض الرّجلُ بداية الأمر، إنّما ترك «دُرّ» المال بجوارِه، فلم يعترض. أنهت كلامها بزفرةِ حسرة، قائلة:

- أخشى أن يستبدّ بي اليأسُ.

قال الرّجلُ وكان يحتسي كوبًا من الماء:

- على المرءِ أنْ يمضي في دُنياه كأنّه إنْ وقفَ، يموت.

قالتْ:

- أموتُ عندما أُخفِق كلّ عامٍ.

- لا حياةَ لشيءٍ إلّا بموتِ اليأس، اقتليه وادفنيه بداخلِك.

- يأسي ينمو كلّما ضاع ولدٌ مِنْ بطني، تعبتُ، أوشك أنْ أموت بالفعل كلّما مات لي جنينٌ.

وضع كوبَ الماء بجواره، وابتسم ابتسامة تألّقت معها عيناه الضّيقتان، طقطقت عظامُه وهو ينهض ليُطلِق عودًا من بخور، نفخ فيه كي يشتعل، ثمّ عاد وجلس، ابتلع ريقَه وأقام بصرَه تجاهها مُستكينًا:

- لا بأسَ بالموتِ في العموم، أتعرفين؛ أصدق اللّحظات إنّما تلك التي نعيشها إذ نُقبل على الموت، أصدقها، وأحقّها، ولأنّ هذه اللّحظات صادقة نحن نخشى الموت، هل سنصبح عدمًا؟ هل هناك حياة أخرى؟ لكن علينا أن نفكرّ أيضًا؛ كيف للإنسان أن يموت مرّتين؟ هل يموت الإنسانُ والزّمنُ الوليدُ كلّه أمامه؟ لماذا لا نثق في الرّبِ ونعتبره الحقيقةَ ولا شيءَ سواه؟ علينا أن نفكّر ماذا إذا قابلنا الرّبَ وجهًا لوجه؟ ماذا إذا شكونا له قلّة حيلتنا وهوان حالنا؟ إذا حدّثنا الرّب لربّما احتملنا تصاريفه التي لا نُدرك من أين تأتي أو أين تذهب بنا!

- لكنّي إذا حدّثته وجهًا لوجه سأقول له إنّي سئمتُ أقدارَه.

- العلّة في إيمانك بالرّب لا في الجسد إذًا، يفنى الجسدُ ويبقى إيمانُ المرءِ، كان الشّكلُ الأوّلُ لنا رملًا وحجرًا وطينًا، ثمّ الرّبُ أنشأنا نحن البشر، قادرٌ هو على أن يُنشئ فيكِ من عدم، مهما داخلك اليأسُ.

ثمّ بسط يده على كتف «دُرّ» والتفت نحوه بعينيه يُغمغم:

- اتركا نفسيكما لمصيرِ الرّب، خيرُ الأمور التي تأتي بلا حسبان.

بدت على «دُرّ» ملامح عدم الإدراك، ابتسم الرّجل وأكمل:

- اسْتَرح، دَع البحرَ يفيض، سينبعث منكما حياةٌ، دواؤكما فيكما، وقد أخطأتما في القصد، اذهبا يا ولدي.

بقليلٍ من ارتباكٍ وحرج، وكثيرٍ من حيرة، نهض «دُرّ»، حطّ يدَه على كتف «أسماء الرّب»، وسحبْهَا تمضي معه، ولم يعُد ببصره حتّى نحو الرّجل، أجل لم يُشعره كلام الرّجل بالغضب، وإنّما بالعجز تجاه أمورٍ كثيرة، أولّها طلاسمه.

كان بيتُهما يقبع داخل الدّرب النافذ إلى الشّارع الرّئيسي، دربٌ يمتلئ على مشارف الصّبح بالباعة الذين يدورون بمختلف البضائع، توابل وأقمشة وفواكه؛ تين ورمّان وتفّاح، وخزف ومصنوعات يدوية من الخشب، لكن الدّرب يمتلئ عن آخره ويتعاظم فيه الزّحامُ كلّ جمعة من كلّ أسبوع؛ وهو يوم السّوق، حتّى لا يكاد يصبح فيه موضعٌ لقدم، وفي هذا اليوم عندما آبا من رحلتهما، ومع طلعة الصّبح، كان يمرّ «غبري»؛ المُنشد الدّرويش، وفي فمه غابٌ، ظلّ يصدح بالأغاني واللّحن:

يوزّعوني على البطون.. أشبِه فتافيت الغموس

أشبِه جريح إن دُسنا على جرحه.. يدوس

ويوزّعوني على العيون.. أشبِه رسومات البيوت

أشبِه جريح إن دُسنا على جرحه.. يموت

يطرق الأبوابَ، بحثًا عن قطعةِ جبنٍ أو رغيفَ خبز، أو بعضَ الفاكهة، أو عملة نقدية إن استلزم الأمر، يسامرونه، وينسجون عنه

الحكايات، يهابونه كأنّه قدرٌ ربّانيٌّ يمشي على قدمين، يضع صندوقَه جواره ويجلس أمام فوّهات البيوت، تخرج إليه النّساء، يضع كفّه على رأس واحدةٍ فواحدةٍ، ثمّ يُسبل جفنيه، ويتمتم، ويمنح البَركةَ لكلّ سائلةٍ، وتتهامس النّساء:

- رأيتُه في الحلم يجلس على مقعدٍ في قلب السّماء.

- كان يرتدي ثوبًا من أجنحةِ الطّير.

- لقد فسّر لي أحلامي كأنّي أراها أمام عينيّ.

كان الدّرويشُ دومًا يقول إنّه سيطير إلى السّماء البعيدة بجسدِه وسينبت له جناحان، فيتندّرون عليه بكثيرٍ مِنْ الحذر، بلْ كثيرًا ما سخر منه «دُرّ» شفاهةً، مِنْ واقعِ صداقتِهما القديمة، غير أنّه يردّد:

- سترى، أنا مكشوفٌ لي، غايتي غير غايتك مِنْ هذه الحياةِ وما فيها.

يقول له «دُرّ»:

- بعضُ المكشوفِ عورةٌ يا «غبري».

فيتلكّأ في الرّد مصمصًا شفتيه، ثمّ يستريح بظهرِه إلى جدارٍ قائلًا:

- سأروي لك حُلمًا يا «دُرّ»؛ كنتُ أسير كمَنْ يسير إلى حتفٍ، حذاء بستانٍ ليس له لا أول ولا آخر، وكان قلبي منقبضًا، يشعر بالجهل والعدم واللا جدوى، وكانتْ الأصواتُ تترامى إليّ من حشايا البستان، منها ما يحذّرني من استكمال الطّريق التي فيها أسير، ومنها ما يعينني وكنتُ لا أفهم، أو وددتُ ألّا أفهم، فالفهمُ في معيّة العدمِ

مجازفةٌ كُبرى، قلتُ عليّ أن أسير بلا إدراك، كي تتوضّأ طريقي بنورِ الحقيقة.

- وما الحقيقةُ يا «غبري»؟

- الحقيقةُ بعضٌ مِنْ كلٍّ، إنْ أدركها بشرٌ طاب له العيشُ في خلودِ النّور، وإن سعى إليها بشرٌ ولم يدركها، يكفيه سعيُه، يُجازى البشرُ بالسّعي أكثر ممّا يجازون بالوصول.

- والذي يسعى متأخّرًا..!

- للرّب فضلُ الاستجابة، ولنا فضلُ التأدّب.

- وكيف كان سعيُك يا «غبري»؟

- نزحتُ عن وطنٍ عاش لي فيه أحبّة، إلى وطنٍ مات لي فيه أحبّة، وإن كان بحثي عن الحقيقة نفاني من أرضي، طواعية، أوغلتُ في بلادِ الرّب الواسعة، ارتحلتُ، وسافرتُ سفرًا بعيدًا يستأثر بي هاجسُ السّعي، كنتُ أسْعى كأنّي سأعيش أبدًا، سعيي أبعدني عن وجوهٍ لم تزل تخامر ذاكرتي، رغم ذلك قنعت بأنّي يومًا سوف أصل، لم تكن لي غايةٌ أخرى، كنتُ أريد أن أرى الرّبَ، كنتُ أحسبه الحقيقةَ على إطلاقِها، نزعتْ رُوحي إلى الثّورة، انسلختْ عن كلّ التفاصيل ولم يبق بهيًّا متجليًّا فيها غير السّعي، ثمّ أثناء هذا الزّمن المنقضي، وكيفما يُمكن أن أصف نفسي، وُصمت بقلّة الحيلة، أو يجوز أنّي كنتُ منشغلًا عن السّعي بالتّفاصيل؛ تفاصيل الحياة التي وجب تركُها، كنتُ ولست في حاجة للنكران- أشبه بالثّور الذي يدور في ساقيةٍ، لا أعرف لي لا بداية ولا مستقرّ، لهوت كلهو صبيّ بِكر، وجُبلت على

تهوين نفسي، وما أرزل أن تهون النفس! لكنّي أدركتُ أنّ السّعي سعي الرُّوح، لا الجسد، فعُدت إلى الوطن الذي عاش لي فيه أحبّة، لكنّ الذي جرى، ثم تراكمت بعده جميع المقدّرات التي قد تدفع رجًلا مثلي للسّعي، بدّل صفاتي، وحوّلني من مجرّدِ رحّالٍ عاقر السّعي، إلى مكشوفٍ له يحول عن أحبّتِه دون الأحداثِ الجسام.

- ولماذا نسعى إلى الرّبِ إنْ كان الرّبُ نفسه يسعى إلينا في ديارِنا؟

ويخبطه على كتفِه مُلاطِفًا، كان «دُرّ» يميل إلى الجلوس إليه، وحين يسمعه يغنّي عند أحد الجيران، من فوره يهبّ لينادي عليه، يدعوه أن ينشد داخل فناء بيتِه:

- تعال يا «غبري».

يدخل الرّجلُ، يحتسي زنجبيله المحبّب أولًا، بعدها يرافقه «دُرّ» لفناءِ البيت، ثمّ يهتف يخاطب زوجتَه:

- تعالي اجلسي جوارنا يا «أسماء الرّب» تبرّكي بالجدّ «غبري».

في كلّ زيارةٍ يمنحها هذا الدّرويش عروسًا من طين، حتّى إنّها ظلّت تجمع تلك العرائس بمرور الوقت آملة في الخِلفة، تضعها على رفٍّ خشبي، وفي كلّ صباح تمسحها بخرقةِ قماشٍ في حرص حتّى لا تتفتّت، كأنّ بها أرواحًا ناطقةً، في اللّيلِ يبدو كأنّها تسمع تهامسَها، ولم تكنْ ترهبها، بل تأنس بها، تستنطقها لو تطلّب الخيالُ، وتشاركها الهمسَ والشّكوىَ، تخاطبها كأنّها حيّة:

- مثلكم أنا عروسٌ حائرةٌ، لا أتحرّك وفْق إرادتي، أشعرُ بكلِّ الألم

وإنْ لم أستطع التعبيرَ عنه.

ثمّ تحتويها في ضمّة كبيرة:

- خيّط الرّبُ فمي منذ زمنٍ بعيد.

مِنْ شرفتِها المطلّة على الدّرب، تتابع بعينيها الحركةَ التي تعجّ في السّوق، ولمّا ترى «غبري» مارًّا يغنّي وصندوقه الخشبي يتدلّى مِنْ على كتفِه، تتذكّر أحاديثَه مع «دُرّ» كلّما زارهُما، وتتذكّر أيّامَ كانت تلهو مع صاحباتِها في الطّفولةِ البعيدة، أيّامَ كانتْ تخرج مع البناتِ لتتسلّى يوم الجمعة في قريتها التي خبتْ ملامحُها، و «غبري» - دونما سببٍ مفهومٍ - كانتْ ملامحُه تُحيلها لملامحِ رجال قريتها، تُحيلها لملامحِ أبيها، وإخوتِها، وكلّما انقطعتْ أخبارُه وانقطع عنها وجهُه، سألت «دُرّ»، وكان يُجيبها:

- صاحبي رحّال شارد، يومٌ هنا ويومٌ هناك.

كان «غبري» واقفًا في فضاء الدّرب هذا النّهار، يتصايح مع الأولاد، قبل أن يدعوه «دُرّ»، يقفز من ولدٍ لآخر، ويستدير يصيح، ثمّ يتجادل مع أحدِهم في لُطفٍ واتّزان، كانتْ يدُها - بشكلٍ عفويّ - تسجّل ملامحَه داخل ورقة، وجدتْ نفسها تستعير ملامحَه داخل أوراقها.

لم يكن ينتبه لاهتمامها برصدِه، في الغالب يمرّ على النّاس ولا يعيرهم اهتمامًا.

ظلّت صورتُه محفورةً داخل الورقةِ لسنوات، من حينٍ لآخر تتأمّلها، وتتذكّره وهو جالسٌ يشخص ببصرِه في الأفق، وبقدر ما

كانت تتعجّب لتناقضه، يجذبها إليه هذا التّناقض.

تجلسْ جوار «دُرّ»، تستمعْ بشغفٍ لحكاياتِ الدّرويش الذي طاف البلادِ من الشّرق للغرب، وإنْ كانتْ معظم حكاياتِه عن النّساء اللواتي ضاجعهنّ، تلك الحكايات التي كان يحكيها في غيبةٍ منها، وفي خصوصيةٍ أكسبها لـ«دُرّ» بامتداد المحبّة التي جمعتهُما منْذ سنواتٍ، وكانتْ كلمة «دُرّ» المعهودة ردًّا عليه بعد كلِّ حكاية:

- ليس على الرّاوي رقيب.

يردّ «غبري» بغضبٍ مفتعل:

- قد يموت الرّواةُ، لكنْ تعيش حكاياتهم.

- هذا إن كانتْ الحكايات صالحة لأن تعيش.

- أتكذّبني يا «دُرّ»؟! صحيح المرءُ لا يُدرك كلّ المعاني التي تمتلئ بها بطونُ الحكايات!

ويسحب من داخل صندوقِه قنّينةَ نبيذ، يجرع منها حتّى تكاد القنّينة تنفد، فينهره «دُرّ»:

- لهذا لسانُك دائمًا لا يستطيع أن يقاوم خيالَ رأسِك.

يستدير إليه «غبري» وتتّسع عيناه:

- خيالُ رأسي! أنت بائس يا صاحبي، تنتصر لأفكارك فحسب، لعلّنا ذات مساءلةٍ سنجلس في نفس المكان وتعرف أنّ خيالي مجرّد تسجيلٍ لما هو قادمٌ، ستستمع لي وتعرف أنّ الإفاقة من طِباع

الجهلة، سنثرثر في جدل أحمق صدّقني، وعلى كلِّ حال أنا لستُ بهذه الاستحالة، قد تتلاقى وجهاتُ نظرِنا في النّهاية، أعرف يا «دُرّ» أنّك تحمل على كاهلك أكوامًا من الأسئلةِ العقيمة، لكنْ فضفض معي، سوف أحمل أسئلتك وأطوف بها عبر رحلتي التي لن تنتهي.

يتنهّد ثمّ يغمغم راصدًا حيرةَ «دُرّ»:

- أجل، ذات مساءلةٍ سنجلس.

لم يحتمل «دُرّ» هذا الطّرح فانطلق إلى الضّحك وهو يطبطب بكفّه على كتف «غبري»، وخرجت كلماتُه متقطّعة:

- يا للخمر يا «غبري»! هل نصّبت نفسك وصيًّا على ضميري ونيّتي؟

- كثيرًا ما رأيت رجالاً بلا ضمائر ولا نوايا، لكن هذا ليس شأنُنا الآن، هل تعرف أنّ خمر البائدين مُهلكة، وخمر الخالدين أمثالي أكسير الحياة؟ لو تُدرك أنّ شرابي ترياقٌ من الموتِ نفسه! بالخمر نحيا وإن أفقنا نموت.

- الحياةُ والموتُ مصير الإنسانِ يا «غبري».

- آه على هذا الإنسانِ ومصيره! وُضعتْ الخمرُ بين أيدينا فشربنا ولم نرتوِ، حُدّدتْ الطّريقُ فسرنا ولم نصلْ، للأمام فمضينا، للوراء فعُدنا، توقّفوا توقّفنا، اركعوا ركعنا، فماذا بعْد؟ هل هذا هو المصير؟

- أطلِق وجهَك للرّبِ تستريح يا «غبري».

- وهل الرّبُ يكفي؟

- إنّي اكتفيتُ بالرّبِ، فكفاني.

- نعيش بين الظّلال بأنصافِ وجوهِنا، وأنصافِ الأحلامِ، أيُّ نصفٍ أُطلِقه للرّب إذًا؟

وجرعَ جرعةً أخرى.

أحيانًا، ومِنْ بين شقوقِ الباب، تلمح «غبري» وهو يُريحَ ساقيه ويمصمصَ شفتيه، ويتجشّأ عقب جرعةٍ وافرةٍ من قنّيتِه، ويخاطب «دُرّ»:

- ما كنتَ لتخالفني لو نلتَ نصف ما نلتُ يا «دُرّ»، زمان، كنتُ أجري على ضفاف الأقنية، وأراقبُ أفخاذَ البناتِ اللّواتي يغسلن المواعين، وأداعبُ نفسي حتّى أجيء، أيّام كنتُ أسمع شكاوى الحريم اللّواتي لا يجدن غيري كي ينفّسن عن غضبهنّ ويأسهنّ مِنْ الحياة، يقولون عليّ رحّال غريب، رحّال طبعًا، لكن الرّحال فيه قضيبٌ ولا قضيب الرّحايا، إذا رشق علّم، وجاب دمّ، وإذا نام لا يرتخي، بل يبقى متأهّبًا لكلّ الظّروف، كم امرأةً عاشرتُ؟ آه، لا أتذكّر، راحتْ الأيّامُ يا رجل.

لا تتمالك نفسَها «أسماءُ الرّب»، تضحكْ مِنْ خلف الباب وإنْ غالبتْ ضحكتَها، إنّما «دُرّ» يصيح متحرّجًا:

- ما أشدّ وقاحتك يا «غبري»! لا حديثَ لك إلّا عن الخمرِ والنّساء!

- لا يموت الرّجلُ ما دام فيه وتدٌ شغّال.

ويفتل «غبري» لحيته وهو يحدج «دُرّ» كأنّما يغيظه.

- أيّ وتدٍ هذا الذي يبحث عنه شيخُ السّبعين يا «غبري»؟

- ولو سبعة قرون.

- تشتاق أنت إلى فرصة أخيرة أيّها الجَدّ!

- لا توجد فرصةٌ أولى ولا فرصةٌ أخيرة، الفرصةُ فرصة يا رجل، اقتنصها بالشّكلِ الذي تجيء به، وإلّا ضاعتْ للأبد.

تضحك «أسماء الرّب» ثانيةً، الدّرويش يدمدم متفكّهًا عندما يسمعَ ضحكتَها العالية، الأقرب للرّقاعة، ينادي عليها، فتدلفْ إلى مجلسهما، يُخرج من صندوقِه عروسًا من الطّين، ويقول:

- حافظي عليها يا امرأة، لأنّها ستكبر معك كلّما كبرتِ، وقد تتحوّل إلى صبيّةٍ جميلةٍ تعوّضك سنينَ الحِرْمان.

تحتفظْ بالعرائسِ كلّها، تستيقظْ في دُجنة اللّيل، تتفقّدها، تطمئن عليها، تشعر بها تراقبها، بل وتواسيها إنْ كان في المواساة عوضٌ، لم تكن «أسماء الرّب» مشغولة بالتفاصيلِ كثيرًا، مهما دار العالمُ من حولها، هي بداخلها عالمُها، وحلمُها في إنجابِ ولدٍ كامل، في خيالها ذكريات بعينها، وفي قلبها سفرٌ ليس ينقطع، رحلة تمضي كأنّما للأبد، لا مستقرّ لها، تحمل بداخلها كلّ من التقت بهم بامتداد العمر، تحمل الذّكريات والأحبّة، تحمل الآفلين والقادمين، في قلبها شوارعٌ من نور، تنبّئ عن ملامح صغيرٍ قادمٍ لا تعرف ميقات قدومه.

تقف أمام مرآتها، وتصفّف ما تبقّى من ذكريات، تلتمس الأملَ

بيقينٍ راسخٍ لا يتبدّل، تلتمسه في قدرٍ لم يُولد بعْد، في حلم، إنّما الأملُ هنا، وإنْ لم يظهر.

غرفتُها الخالية إلّا من الأمل تُشبه حياتَها، حياتُها ليس فيها غير «دُرّ»، والحلم، وغرفتُها تسكنها الذّكريات البعيدة، أخطر ما في الذّكريات أنّها إذا خلتْ إلى نفسِ الأماكنِ ونفسِ الرّوائحِ القديمةِ لا تُشعر إلّا وكأنّ الماضي كان البارحة فقطْ، كأنّ شيئًا لم يمُت، كأنّ القلبَ لم يزل متوقّدًا بعاطفته تجاه نفس الشّخوص، كأنّها ستُغمض عينيها للدقيقتين القادمتين انتظارًا كي يُبعث الماضي من رقادِه.

ظلّ جسدُها يرتعش كضوءٍ في بدء خبو، نفس الأماكن يا ربّ، نفس الرّوائح، نفس كلّ شيء وكأنّنا لا شيء، لا شيء غير ذكرياتنا.

تتشبّث بذكرياتها، كأنّما ستحييها.

ذكريات بنت القرية النّائية، التي رآها أحدُ التّجارِ مصادفةً وهي بنتُ عشرةِ أعوامٍ لا غير، فطلبها للزّواج، ذكريات أب لم يكن يعرف طريقًا كي يُدفئها بمشاعره، كان يكدح منذ طلعةِ النّهار، وكان يقول لأمّها:

- لولا عُسر الحال لأدرك أولادي كم أحبّهم!

كان يأتي في المساء، كلّ الذي يفعله أن يتمّم عليهم وهم يتوسّدون فراشًا وحيدًا، ثمّ لا يحْتمل أكثر من دقائقٍ حتّى يكون قد تهاوى أسفلهم ممدّدًا على الأرضِ من شدّة الإرهاق.

- لقد تمزّق جلبابُك يا أبي!

تقول، فيصمت.

يدور بعينيه على إخوتِها، فيصمتون بدورِهم، يكتشفون أنّ جلابيبَهم ممزّقة كذلك، كانت تعرف إنْ هي إلّا أيّامٌ ويبدأ شهر «العَزاء» -طالما قالت أمّها.

هذا الشّهر، يكتفي المقاولُ العموميُّ باستئجارِ أقلّ من نصفِ عمّال فِلاحة الأرض، كان طبيعيًا ألّا يستأجر أباها طالما اقتصد، فأبوها نحيفٌ وضعيف، إنّه يعلم لماذا يعتبرونه نفرًا «فوق البيعة» دائمًا! خاطبه كثيرًا ولم يجبِه بردّ، أرسل نفرًا واثنين وثلاثة، والمقاول ولا كأنّ له عزيزًا، كان صمتُه مُهينًا.

أبوها رجلٌ عظيم، لم يقل لهم أحبّكم، إنّما في مُنتَصفِ شهر «العَزاء»، حينما وجدوه مقعيًا على وجهه بجلبابه الممزّق، ولمّا صرخت أمّها، وتأكّدوا أنّه بالفعل فارق الحياة ولم يعُد هنا، وجدوا أصابعه مضمومة بقوّة على ورقةٍ راحت تهتريء، وقد كان أحدُهم ممّن يعرفون القراءة والكتابة قد كتب نيابة عنه رسالة إلى المقاول تنصّ على:

«سيّدي؛ لقد أقسمت لي أنّك ستستأجرني للعمل في شهر «العَزاء»، أولادي يحتاجون جلابيبَ جديدة».

صرختْ أمُّها في لوعةٍ وكان أبوها راقدًا كورقةِ شجرٍ جافّة على الأرض:

- لقد قتلَ المقاولُ أباكِ بصمتِه، بالصّمتِ فقط يُقتَل أصحاب الكرامة والعزّة.

بعد موتِه، سرحتْ أمُّها زمنًا على ضفّافِ التّرع، تنوح وتتضرّع السّماء، كأنّها لم تعُد واعيةً أو متّزنةً، ظلّت تجمع الحلفاءَ والتّرابَ، وعند السّاقية الكبيرة التي تسقي أرضَ القريةِ كلهّا، غرب البلد، نثرت التّراب والحلفاء داخل بئر السّاقية، وترّحمت على أبيها، وقالتْ:

- ستُنبت الأرضُ نباتًا طاهرًا أخضر، ولن يغيب اللّونُ الأخضر عن أرضِ القرية.

ولكن اللّونَ بعْدها غاب، كأنّ القدرَ لا يؤمن بالنّجوى والرّجاء.

تتنهّدْ «أسماء الرّب»، وتنفخ أنفاسَها في المرآة، كأنّما تنفخ أثقالَ صدرِها في فضاءِ هذا العالم الجُزافي، تحاول أنْ ترَى شكلَ الحقيقةِ عبر الدُّخانِ الذي يتكثّف من تنهّدها، تحفر قلبًا على سطحِ المرآة، ثم تتأمّله وتسرحْ، هل هكذا يكون شكلُ القلوبِ؟ طيّب، والقلوبُ التي شابت قبْل أوانِها..!

في تلك اللّيلة، شاهدتْ «غبري» في الحلم، قال لها وهو يحتويها بين ملابسِه الفضفاضة:

- شغفي بالنّساء لا يقف عند حد المواقعة، بل يذهب إلى أبعد، حيث كلّما انتهيت من واحدةٍ، رمّمتُها، وعلّقتُها في إطارٍ على الجدار، كيما تُبعث في حياةٍ أخرى.

ضحكت في الحلم، وقالت:

- يا لخيالك..!

- أنفقتُ خيالي على الرّاحلات اللواتي تركنني وحيدًا في نهاية الأمرِ، أرجوكِ رجاء المُعدم، إذا ذهبتِ، لا تعودي إلّا وبين أناملك

رقاقة من العالم الآخر أرتّق بها جروح أيّامي، أنا عارٍ يا «أسماء الرّب»، فاستري ضعفي بمحبّتكِ.

- إذا كنتُ أحبّك فهذا وهم، وإنْ كنتَ موهومًا، فمعناه أنّك أحببتني.

- كلّ عشقٍ يحكُمه المنطق لا يعوّل عليه.

- وأيضًا كلّ حلمٍ لا تحكمه استفاقة.

- كالأحلامِ تفنى مشاعرُنا، لكن مثل الصّخرِ يبقى الألمُ، والألمُ أولى عتبات الحقيقة.

- الألمُ رغم كلّ مغامراتك وبركاتك مع النّساء يا «غبري»؟!

- أعشقُ واحدةً وأخرى وغيرها، فلمّا أبكي لا يسعني إلّا حضنُ واحدةٍ بعينها، أنتِ.

- تبكي! تبكي وأنتَ الرّحال حامل السّر!

- الحزنُ لا يعرف الأسرارَ، وكلّنا أتباع الحزن، لكن أنا الوحيد الذي إن يحزن يموت، حزني يملأ كلّ شقوق روحي القديمة، يملؤها بالعدمية، التي تساوي تحديدًا معنى الموت.

- العاشقُ لا يموت حزينًا.

- لكن غيّرني العِشق، كنتُ لا أعرف الحزْن، اليوم لا أعرف غيرَ الحزْن.

- دعني أمرُّ إلى قلبِك واعشقني.

- أجل سأعشقكِ أنتِ، وأثرُ العشقِ كأثرِ القَدر، لا يُمكن أن نعرف كيف بدأ ولا إلى أين ينتهي، ولكنّي سأصبح عاشقًا لكِ، كأنّي من أول الزّمان.

في الحلمِ نفسُ المرآةِ، نفسُ التنهّدِ، لا تعرف إنْ كانتْ لم تزل في عوالمِ الحلم أم استيقظتْ! على كلِّ حالٍ، خرجتْ أنفاسُها تدفئ جوّ الغرفةِ الرّطب، ولكنّها لاحظت نبتةً تخرج كبروزٍ مِنْ الجدار، تحسّستْها، كانتْ نبتةً خضراء، صحيح نبتة لا تكاد تصل لحجمِ عقلةِ إصْبعٍ، ولكنّها نبتةٌ حقيقيةٌ...!

تنهّدتْ ثانيةً، فبدأتْ الجدرانُ بالاخضرار، وكلّما تنهّدتْ، اخضرّتْ، فكاد عقلُها يطير، من مذاقِ اللّعبةِ، ومن الفرحةِ، حلمُها راح يكسوه لونٌ مُغاير، مِنْ جديد.

أخذتْ تدور في الغرفةِ تتنهّد، ومع تنهّدِها، يرتسم عالمٌ بتفاصيلٍ لا يُمكن لغرفةٍ ضيّقةٍ أن تستوعبها، فبدأتْ تتّسع الغرفةُ، لمزيدٍ من ملامح العالم الوليد.

تلال، وزروع، ووديان، وأنهار، وأبنية، وأناس.

ولم تكد تُجهد من تنهّداتها، حتّى بزغ لها «غبري» كشمسٍ لم تزل تحبو، استقبلته قائلة:

- هاه.. هل أنهيتَ شغفَك بالنّساءِ؟

فطواها في صدرِه وقال:

- إلّا أنْتِ.

ثـمّ شـكّلها دُخانًـا ونفخهـا داخـل صندوقِـه الخشـبي، فحبسـها، وكان يُشـير بإصبعـه نحـو السّـماء يهمهـم:

- انظُـري، هـا هـو قـادمٌ، صدّقـي إشـارات قلبِـك، أصـدقُ الإشـارات؛ هـذه التـي تـأتي فحسـب، دون انتظـارٍ، لكنّهـا تـأتي، فعليـكِ اتّباعُهـا، أينـما مضـتْ بـكِ.

(س)

سوفَ أحْكِي عنْ «روح»، الذي كانَ أصْلَ خطيئَتي، بل لعلّه خطيئَتي الوحيدة، مهْما حاسبوني على الخطايا.

في طستٍ مِنْ «الألومونيوم» أحمّمه، ينفْض شعرَ رأسه ويُغرقني بالماء ورغْوة الصّابون، يحاول جَاهدًا أن يحكِي شيئًا، لكنّ لسانَه لا يُسعِفه، ألاحقهُ وهو يرْكض مبْتلًّا بالماء، يلهَث وهو يعدو في جميع الاتّجاهات، ألهثُ وراءه، يتناول الأواني ويضْربني بها، وكاد يسبّب جُرحًا في رأسي إثر خبطةٍ باغيةٍ شقيّةٍ.

أجل، «روح» شقيٌّ، وإنْ كان يمشي على أربعٍ، يبعثر كلّ ما تناله يداه، وأنا منهمكة في أشغالِ البيت، أو أنا نائمة، مِنْ شقاوتِه اضطرّني أن أصنع بابًا من الحديد أمام بابِ البيت خشيَة أن يغافلني فأجده سارحًا

في فضاء الدّرب، كاشفًا عن خبيئةٍ أخرى.

طفلي الصّغير تجاوز منذ شهْرين عامَه السّادس، لكنّ الحروفَ لا تزال تخرج من فمِه متكسّرة، تفتقد سلاسةَ النّطقِ، ولا أفهمُ من حواراتِه معي سوى القليل، نصحتني إحداهنّ بأنّ الحلَ الأمْثلَ لحالة ولدي المتأخّرة في النّطق هي لسان «الجَدْي»، أشتريه فقطْ وهي ستتولّىَ طهيه.

في البدايةِ ابتسمتْ بتهكّمٍ وغادرتُها دون اهتمامٍ، ثم بعْد شهرٍ يليه الآخر، وبعد أن ثبت أداء لسان ابني وقرّر ألّا يتحرّك، فكّرتُ؛ معتقدات السّلف قدْ تخيب وقدْ تصيب، ولن أخسر مِنْ المحاولةِ شيئًا.

وفي الحقيقةِ، ها هو المعتقدُ الذي سخْرتُ منه يحثّ السّير نحو الصّواب.

كانت جارتُنا قد طهْت اللّسان، والتهمَه ولدي بشهيّةٍ أثارت تعجّبي، لم تمرّ أيّامٌ حتّى بدأ نطقُه يستعيد التّوازن، أصابعُه باتت تشير لكلّ الأشياء بـ«ها»، لعلّها مصادفةً، إنّما كلّ شيء بعدها بدا يتغيّر، ابني ها هو يمر بكلّ مراحل نموّه مثْل كلّ الأطفال، يزداد شقاوةً كما يزداد خفّةَ دمّ، نعم لم يزل يجري على أربع، لكنّ التطوّرَ ملحوظٌ، له كفٌّ ثقيلةٌ يصفعني بها وأنا نائمة فأهبُّ فزعةً لكنّي أضمّه إلى حضني، بعد أن ينظر لي معتذرًا، أقبّله وننام سويًا، كما صارتْ يدُه تعبث بكلّ المقتنيات التي أحتفظ بها في مكانٍ عالٍ، ينظر لي نظرةً مُداعبةً ويهرول إلى الفناءِ ضحكتُه تملأ البيت.

حتّى هذا اليوم..

حينما سمعته بأذني يتكلّم مثلنا؛ نحنُ الكبار!

لم أصدّق أذنيّ، فتحتُ عليه بابَ الغرْفةِ ودخلتُ، كان جالسًا على الأرضِ وعرائسي القديمة -التي ما زلت أقتنيها- في يدِه، استدار نحوي وناولني عروسًا مهمهمًا:

- ها.

كثيرًا ما كنْتُ أتساءل مال ابني حقيقةً؟! هل بالفعل تنمو النبوءةُ معه كلّما نما؟ يجلس بالسّاعات وحيدًا في غرفتِه، هل يشعر بتلصّصي عليه؟

أنادي عليه، بعد ثوانٍ يخرج، نظراتُه متلعثمة، يرميني بواحدةٍ، ويهرول إلى الغرفة مرّةً أخرى، أهرعُ وراءه، أدفعُ بابَ الغرفةِ بيدي، يبتسم ابتسامته اللّطيفة، ويحاول أنْ يُبعْد وجهَه عنّي، لكنّي أنتظرُ، أنتظرُ حتّى يستدير برأسِه ناحيتي.

فلمّا استدار، كان يضع إصبعَه في فمِه، وببقية أصابعِه كان يداري عنّي حبة أرز ملتصقة بثغره، وبقايا قطراتٍ مِنْ لبن.

أرتدّ للوراء مفزوعةً، من أين له بالأرزِ واللّبن؟

قالتْ لي «العرّافة»: سيكون كما لم يكُن أحدٌ.

«روح» الذي جئت به إلى هذه الدّنيا رغم كلّ شيء، رغم المعصيةِ والضّلالِ، رغم الخطيئةِ التي سأحملها على كتفيّ ما حييت، «روح» بدأ يصنع عوالمه التي تُخيفني عليه!

كان شهرُ «العَزاء»، شهرُ الحزنِ الذي يأتي من العامِ للعام، الشّهرُ

الـذي تتقلّـص فيـه الأعمالُ وتلزم النّسـاء بيوتهـنّ، موعدُ الخلاصِ مِـنْ آثامِ المـاضي، والتطهّرِ من خطايا الأسْـلافِ، يخـرج الرّجال إلى الجبّانـة، يُقيمون عـزاءً لا ينقطـع إلّا بحلـولِ الصّبـح طيلـة ثلاثين يومًـا بالتّـمامِ، يُهيلون على رؤوسِـهم الـتّراب، ويتمرّغـون فـوق قبـورِ الأسْـلاف، ثـمّ يتناوبـون حفرَ القبـور، ينتزعـون عِظـامَ كلّ مَـنْ مـرّ عـلى موتِـه عـامٌ، يجلـس بعضُهم على قارعـةِ الجبّانـة، يصحنون العِظام، فـإذا صارتْ مطحونةً لا موضعَ لخشـونةٍ فيهـا، يعجنوهـا مـع القليلِ مِـنْ مـاءِ النّهرِ المقـدّسِ الذي يجـري في عاصمةِ المُقاطعـة بـين غاباتٍ من الشّـجر، ومِـنْ بعضِ الزّيـوت التـي يبتاعونها من قُـرى بعيـدة تحـت سـفوح الجبـال، حتّـى يصـير العجـينُ لدنًا، يبـدؤون في صنـع قوالـب تماثـل أطوالهم، يتركونهـا في العـراءِ ليلـةً كاملةً حتّـى يكتْمل جفافُهـا، ثـمّ يغطّونها بأجولةٍ مـن الخيش، وبعد انتهاءِ شـهْرِ «العَـزاء» بيومٍ واحـدٍ، يمضـون في إقامـةِ هـذه التّماثيل فـوق القبور.

كانـتْ عقيـدةُ جماعتِنـا أن نصنـعَ أشـكالًا مـن العظـمِ عـلى هيئـة الأنبياء القُدامـى، كـي يشـفع أنبياؤنا لنا عنْـد الـرّبِ، وكلُّ رجلٍ وخيالِـه في ابتكار شـكْل النّبـي، وبانتهـاء شـهرِ «العَـزاء»، ينصبـون فـوق كلّ قبرٍ مـن القبور التـي اسـتخرجوا عظامَهـا صنـمًا، شريطةَ ألّا يخطـئ رجلٌ ويضـع صنمًا من عِظـام ميّـت قـبرٍ آخر عـلى قبرٍ بديـل، لابـدّ أن يوضَـع الصّنمُ المصنـوعُ مِنْ ذات عِظـام ميّـت القبر على قـبرِه نفسِـه، لأنّ الخطأ هنا بمثابـةِ غرامة فادحة يحمـل الرّجـلُ ذنبَهـا حتّـى يُبعث في العـالمِ الآخر.

وبينـما نـزورُ الجبّانـةَ في مواسـمِ «البُـكاء»، ترتفـع الأصنـامُ بيضـاء اللّون حولنـا مِـنْ كلّ اتّجـاه، تبـدو كأنّها الأنبيـاء الذين لم يشـفعوا لنا رغـم امتدادِ

إحيائِهم على أيادي الرّجال.

وكنتُ أسأل «دُرّ»:

- لماذا لم يخلق الرّبُ نبيّةً أنثى؟

يبتسم ابتسامةً حائرةً، يحاول أنْ يردّ، لكنّه يهزّ كتفيه، ويمضي عنّي كأنّه لا يجد إجابةً وافيةً تُقنعني.

شهرُ «العَزاء» هو الشّهر الذي غزا فيه «روح» أحشائي.

أذكرُ هذا الشّهر بعينِه، الغبارُ؛ الغبارُ كان أسود، والدُخان بدا كأنّه قادمٌ من عُمق الأفق، والشؤم فوق القرية، ذُعرٌ في نفسي، ذُعرٌ كامِنٌ، تحرّكه الخيالات، وتسبق عواقبَه التكّهنات، ذُعرٌ لم أجرّبه مِنْ قبل.

كنتُ قد سئمتُ مِنْ كثرة ما حملتْ بطني صغارًا لا يكتملون، في نفس الشّهر من كلّ عام يسقط الجنين، أزرعه في الفناء ويُنبت زهرةً حمراء، بات الفناءُ مليئًا بالزّهورِ الحمراء في كلِّ موضعٍ، سئمتُ أكثر من مشورات لم تنفع، وأطبّة لم يداوني أحدُهم، وعرّافات كان كلامهنّ يضيع أدراج الرّياح عامًا من بعْد عام، كلُّ ما سعيت للحصول إليه مجرّد ولد، لكنّ سعْيي كان بلا جدوى.

حتّى إذا ما استحكم بي اليأس، دلّتني إحداهنّ - قدرًا - على عرّافةٍ تسكن قريةً بعيدةً، وأكّدتْ أنّ راحةَ بالي لديها.

هذه المرّة قلتُ لـ «دُرّ»:

- أستطيعُ السّفر بدونك.

«دُرّ» لا تعنيه أبدًا غير سلامتي، تعوّد ألّا يكترث لموضوع الخِلفة منْذ سنوات، بل إنّ إيمانَه بالرّب وتصاريفِه مُطلقٌ، قال لي:

- أرافقكِ ليطمئن قلبي.

إصراري على السّفر وحدي كانتْ تحرّكه رغبةٌ مشبوهةٌ، لعلّي لم أعُد أتفاءل كثيرًا بوجود «دُرّ» معي في كلّ مرّة، أو لعلّ هاجسًا حرّك رغبتي هذه، مِنْ النّوع الذي ينبغي أن يخلو المرءُ فيه إلى نفسِه، ولليالٍ ظللتُ أحاول أن أثنيه عنْ قرارِه بالسّفر معي، دون جدوى، ولمّا بلغ إصرارُه حدّ الغضبِ والتقريعِ والضّربِ بغير شدّةٍ، قلتُ في قلّةِ حيلةٍ:

- ليكنْ يا «دُرّ».

طرح الصَبحُ اللّيلَ سريعًا، وعاد الرّجال مِنْ طقوسِهم اللّيلية في الجبّانة، لم يسترح «دُرّ»، إذ رغم ذلك؛ راح يستعدّ للسّفر.

أحكم «دُرّ» لفّ العمامة البيضاء فوق محيط رأسه، ونفض بيديه صدرَ جلبابه الصّوف - المُدّخَر لمناسبات بعينها - في شيءٍ من تخايل، هذّب وضعية جذعه على ظهر الجمل وهو يسعل، ظلّ يتململ قليلًا، لثوان، مرّة شمالًا، ومرّة يمينًا، فيُنهك، يحتدم صدرُه، ويسعلَ ثانية.

بات يُدرك أنّه لم يعد يحتمل الإجهاد، قلتُ بضحكةٍ قصيرة:

- الدّنيا أضيق من المُكابرة يا «دُرّ».

ربّت عليّ وهو يضحك، ثمّ حتّى إذا ما اطمئن لاستراحة جسمِه فوق ظهر الجمل واعتداله، استكانت أنفاسُه وزفر بارتياحٍ.

باليدِ اليُمْنى يُمسك سنام الجمل المرتخي فيشدّه، وفي اليسْرى يعلّق عصاه -ذات الثنية المحدّبة- بالسّاعد، يلحق بنا أحدُهم، يتمخّط، ويهرول سائرًا جوار الجمل وبين يديه نعلُه، فيعبس وجهُ «دُرّ».

- تعود بالسّلامة يا سيّد الرّجال.

ينظر «دُرّ» إلى السّماءِ كأنّما يصرفه، ويُسبل جفنيه قليلًا كأنّه ينتظر طلوع الشّمس، كانتْ السّماءُ قد بدأت تتخلّلها أشعةُ الشّمس بالفِعْل.

يجلس «دُرّ» متمكّنًا فوق ظهر الجمل الذي راح يلتهم بدنَ الطّريقِ في تؤدة، يرمق أولًا معالمَ البيوت البسيطة الغافية المنبسطة في وداعةٍ وسكينةٍ قهريّةٍ، والنّخيلُ السّامقُ لا يحْفل، يرمق معالمَ الحياة التي تفارق القرية في اللّيل وتدبّ مع مطلع الشّمس، ثم يرنو بعينيه نحو المدى البعيد، وأحدُهم هذا يلهث وهو يساير بقدميه خطوات الجملِ المتأنّية، ويكح ويبصق في الناحية المخالفة لوجه «دُرّ»، ثمّ يمسح بكمّ جلبابه قطرات اللّعاب، فيرمقه «دُرّ» بغضبٍ، ويكاد يزعق فيه، لولا أنّه يولينا ظهرَه ويهرع مبتعدًا.

في الأفقِ الذي هناك عند مرمى البصر البعيد تتشكّل سحبٌ مِنْ غبار، وحلقات مِنْ بشر، مِنْ صوب الأفق تأتي أصوات متخالطة لا تميّزها أذن، هكذا يخرج الرّجال يسعون إلى أرزاقِهم.

نعبر التّرعةَ، حافّتُها متعرّجةٌ تملأها تكتّلات الحلفاء المسنونة، والطّريق نحو أطراف القرية مليئة بالحصا والطّين، يكنس «دُرّ» القرية بعينيه، الشّمس بدت تسلّط نارها فوق الرؤوس، مشرعةً كبوتقةٍ مِنْ صهد قبالة

الأعين التي يتخالط فيها الدّمع بالعرق، ومن عنْد حدود القرية، يشمخ النّخيلُ على ضفّة التّرعة الغربيّة ويطلّ مساندًا وجذوعُه اغرورقت بعرقِ النّهارِ المضني الذي يتقاطر على التّرابِ فيليّن حدّةَ التهابِه بعض الشّيء، وبضعةُ بيوت طينية تختبئ في داخل ذلك النّخيل أسلمتْ نفسَها للظّل، وثمّة هسيسٌ خافتٌ يشمل الأجواءَ، هسيسُ جريان مياه التّرعة وغفوة الدّواب في قيظِ النّهار، لم يكن بشرٌ في تلك الضفّةِ مِنْ التّرعة، إلاّ تلك العِرسُ التي مضتْ تقطع الطّريق من التّرعةِ وإليها، مارقةً في سرعة خشية أن تدهمها أقدامُ الجمل التي لن تعرف أيّ حِرصٍ أو رفقٍ، وجرو هزيلٌ راح يتوكأ على ساقٍ عرجاء ليبلغ شجرةً ظليلة.

في مشقّة امرأة ذات عشرين ربيعًا وإنّما تبدو عجوزًا، كنتُ أمتطي الجمل خلفه، سعلتُ سعلةً طويلةً متقطّعة.

شهرُ «العَزاء»؛ شهرُ الفَرْج لو يشاء الرّبُ.

زفرتُ متنهّدةً، أودعتُ نظرةً عميقةً للحقولِ القريبةِ الغنّاء بالنّدَى؛ الذي يخفّف بعضًا من وطأةِ الاختناق، ونظرةً لأسرابِ الطّيورِ المتدافعةِ في عباب الأفق متلاحقةً، كما لو تحاول الفرارَ مِنْ خطرٍ وشيك.

خرجتُ وفي روحي عصيانٌ على الواقع، كان يتنقّل الجملُ بنا بين القُرى، وكلّما ابتعدتُ عنْ قريتي، كانتْ تبدو ملامحُ الشّمسِ في وجه السّماء المليح كجدائل مِنْ ذهبٍ مغزولة في أناةٍ وفي صبر لا يعرف الكللَ، وإنْ كانت تصرّ أن تضفي على السّماءِ سقفًا من الألغاز.

بعْد يومٍ من المسير، وعلى مشارف قريةٍ بعيدة، بدا «دُرّ» مُرهقًا، جوار

ركنٍ ظليلٍ عنْد شجرة «كافور» عملاقة دانية من إحدى التّرع هبطَ، فتبعتُه، دنا مِنْ زير ماء وجرعَ كميّةً وافرةً.

مدّد جسمَه يستريح، وددتُ لو أُطفئ سخونة جسدي في ماء التّرعة، ظللتُ جواره يقظِةً قرابة السّاعتين، فتحَ عينين حمراوين، وحدّقَ فيّ قليلًا، ثمّ اعتلينا الجملَ لنستكمل المسير.

ينازع الجملُ في الطّلوع الشّاق بين الطّرق غير الممهّدة، وهديلُ حمامٍ خافتٍ يجيء مِنْ سطحِ بيت واطئ، مطموسًا في صياحِ ربّة البيت، وبضعُ نسوة جالسات منحدرات في عبّ ترعة يغسلن المواعين، أسرعن يخفين وجوههن بالطُّرح عند مرور غريبين.

زادي في هذا السّفر أملٌ وشوقٌ لوليدٍ أعرفُ أنّه سيأتي، لعلّ ليس ثمّة علّةٌ في «دُرّ»، ولا فيّ، العلّةُ لعلّها قدريةً بالأساسِ، الرّبُ لم يسمح بعْد بتمامِ فرحتي، سأظلّ منقوصةً ما دام العمرُ، ولن أكتملُ إلّا به، القادمُ مِنْ حشايا الغيب.

تُرى؛ هل يُمكن أن تصبح رسائلي إليك يا رب مُجديةً؟ لم أعد أعرف! كلّ شيء بات مثلَ ذاكرةٍ محترقةٍ، الذّاكرةُ ساحت في انتظار ما لا يجيء، كأنّي مجرّد كيان خرافي سيتمّ أسطرتُه.

العالمُ ألفُ وجهٍ، وألفُ حزنٍ، الوهمُ منسوجٌ في رداء الحقيقةِ، والخيالُ واقعٌ، والأحلامُ مشاهدٌ يُمكن أنْ نستوقفها ونُعيد مشاهدتَها مِنْ البداية.

أين ضحكتُكِ يا «أسماء الرّب»؟ ألهذا الحدّ يُبكيكِ الشّوقُ إلى ولدٍ؟

لا بأس، الذي أبكاكِ قبْل ذلك، لعلّه يُضحككِ الآن.

مشينا أيّامًا، أخذتُ أفكّر في حالي: ما أتعسني وما أصعب بلوغ غايتي؟

كان الظّلامُ أحيانًا يتكتّل أمام قدمي الجمل فيعرقلهما قليلًا، وكنّا كثيرًا ما نهبط في أماكن نستشعرُ فيها باطمئنان، أوقدنا نارًا تدثّرنا بدفئِها في مساءٍ بارد، رأيتُ في حدود ما أمكنني وفي حدود ما سمحتْ لي به العتمةُ أشكالًا مِنْ الحيوان، ظهر بجانبنا واحدٌ يتبختر، حيوانٌ له قرنان، تهيّبته إذ ناطحنا بقرنيه، لكنّه لم يفلح أنْ يقتلعنا فنسقُطْ، استكملنا طريقَنا وكانتْ الأراضي القفارُ تتناثر مِنْ كلّ اتّجاه، وأمِنّا في موضعٍ يخلو مِنْ البشر، فهبطنا لنستريح.

بسطتُ جسدي فوق الأرض الباردة حين استأسد بي الإرهاقُ، أغمضتُ عينيّ وتركتُني للنّوم.

مِنْ السّماء كانتْ خيوطٌ من نورٍ تنحدر نحوي، اعتدلتُ، فتحتُ عينيّ لأستوضح النّورَ وكان غامرًا، أقمتُ بصري للأمام وكان ولدٌ يلاطفني مِنْ نقطة في السّماء، بدتْ ملامحُه تمامًا، بدتْ كحلمٍ أحلمُ به منْذ زمنٍ بعيدٍ، هِمتُ، مرفرفةً وراء الولد، كانتْ ثمّة طريقٌ تسحبني، وهوامٌ تحلق حولي في مدار هالة النّور التي تُحيط بوجْه الولد، بدتْ كأنّها تدندن، إنّها تدندن، لابدّ أنّها تفْعل، كمثل دُخانٍ تتحرّك على نغمٍ لا أسمعه، يشعر فقطْ به كياني، تتحرّك في مصفوفةٍ مِنْ خيالٍ وتحرّكني معها، بل أحرّكها معي، نعم، أنا أتأرجح يمنةً ويسرةً ولا تطرف عيناي، وهي تتبع تمايلي

كأنّها ريشٌ ينبت مِنْ جسدي، كأنّ بى لم أُدرك إيقاعًا متوافقًا كهذا مِنْ قبل، ثم هذه الهوام ها هي تشدّني وتنزل بي إلى أسفل، أجدني قدْ وقفتُ على سجّادةٍ ناعمةٍ لم أر أروعَ منها، بدتْ كأنّما فُتلت مِنْ حريرٍ.

تطلّعتُ حولي، كنتُ في منتصف بشرٍ لا حصر لعددِهم، يتزاحمون رافعين أياديهم لأعلى، لا أعرف أين أنا؟ أعرفُ فقطْ أنّي في عالمٍ قُدّ مِنْ خرافة، على يميني تجويفٌ في حائطٍ تتدلّى من أعلاه ثُريا نورُها يغمر الرّوح، وعلى شمالي ضريحٌ، قلّدت المحيطين بأنْ رفعت كلتا يديّ لأعلى ثم انحنيتُ وراءهم وقبّل جبيني ثغرَ السّجَّادة الباسم، احتواني شعورٌ أميَز من أن يوصَف، أحسستُ أنّي أحلّق في ثنايا غرائبية.

صحوتُ، وانقباضٌ مستحبٌّ يحتوي كلّ عضلات جسدي، الحلمُ يُشعِل رغبتي في استكمالِ المسير، عرفتُ بعد الحلم أنّي على أتمّ التأهّب لمعاودة العصيان مِنْ أجل رغبتي، ولو دام عصياني لأبد الدّهر، حملقتُ في «دُرّ» وبدا لي طيفًا آتيًا بدورِه مِنْ حلمٍ غرائبي، ابتسمتُ وارتميتُ على صدرِه.

مررنا -أثناء سفرنا- بعاصمة المُقاطعة، ولم أكن قد زرتُها مِن قبْل، كان ليلٌ، وكان احتفالٌ بعيد «القصر»، قال «دُرّ»:

- فلنقضِ ليلتنا في المدينة ثمّ مع مطلع الصّبح نعاود السّفر.

اصطحبني لنباشر الاحتفالَ مِنْ أمام قصر «المرمر» الذي يسكُنه الحاكمُ، القصر المشيّد من الرّخام، والذي بُنيَ في زمنٍ قديمٍ، أخذتُ أتأمّل تفاصيلَ القصر المعماريّة، وكان فناؤه مزيّنًا بالأعشاب مُختلفة

الألـوان والأطـوال، وواجهتُه الخارجيـةُ مزخرفةً بحجـرِ الرّخام الأخضر، وكانـتْ قبّتُـه ترتفـع أمام أبصـار الوافديـن يحتفلون، لونُهـا مِنْ لـونِ النّور، وقـد قـدّت على نمـطٍ لم تـره عينـاي مِـنْ قبْل.

ابتاع لي «دُرّ» بسكويتًا غارقًا في ماء الورد، قلتُ له وقد عبستُ متدلّلة:

- لستُ صغيرةً على هذا البسكويت يا رجل!

فقال:

- لو بيدي لاشتريت لكِ القمرَ هذا.

وأشـارَ إلى السّـماء، فتناولـتُ منـه البسـكويت وقضمتُـه وأنـا أبتسـم، عـلى حـين قبّلنـي عـلى جبيني وشـخصَ ببـصرِه نحـو النـيران التـي تنفجر مِـنْ خلـف قـصر «المرمـر»، وكنّـا ننـدسّ في بـطءٍ ورفـقٍ داخـل الأجسـاد الدّافئـة، والـكلُّ يتصايـح ويهلّـل، والطّبـل والزّمر دائـرٌ في الأنحـاء، ثمّ في لحظـة دُرتُ بعينـيّ فلـم أجـدهُ، تحجّرتُ في مـكاني، وإنْ ظلّـتْ رأسي تدور مِـنْ حـولي بحثًـا عنْ وجهِـه، لم أعـرف إلى أيـن أتّجه، فقـطْ رُحـتُ في عجزٍ أقلّـبُ بـصري في الأنحـاء، وكان الزّحـامُ باغيًـا، ووجدتُ أحدَهم يشـدّني مِـنْ يـدي، صحـتُ، لم يسـمعني نفـرٌ، كانـتْ يـدُه صلبـةً خشـنةً، وكنـتُ كلّـما حاولـتُ الإفـلات مِنْ يـده تشـبّثَ أكثـر، وهو يسـحبني لنشـقّ قلبَ الزّحـام، ونبتعد شـيئًا فشـيئًا عـن موضـع «دُرّ»، غاثت بعينـيّ الدّموعُ، وفي قلّـة حيلـةٍ وقـدرَ مـا أمكننـي قاومـتُ، بـلا جـدوى، كان الرّجـلُ يشـدّني بقـوّةٍ، والأجسـادُ تخْبـط في بعضِهـا، وصيـاحُ البـشر يـدوّي في السّـماء، ولم يكـن صـوتي مسـموعًا عـلى الإطـلاق، بُـحّ صـوتي، وانهـرتُ تحـت قدميه

باكيـة، فشـدّني أكثـر، وتـشرّد شـعري عـلى وجهـي، وتمرّغـتُ في الـتّراب، وتجرّحـت ركبتـاي مِـنْ الحجـارة التي ترصـف الشّـوارع، ولم يكـن الرّجلُ يكـترث لصراخـي، بـل إنّه عانـدَ، وظـلَّ يجرجرني مِـنْ خلفه ولسـتُ أفهم شـيئًا، ثـمّ في لحظة توقّـفَ، عندما انهالتْ يـدُ «دُرّ» على وجهِـه بلكمةٍ عنيفةٍ عفيّـةٍ، وكان يصيـح:

- يا لصَّ النّساءِ يا نجس.

كان وجهُه منتفخًا مِنْ الغضب، استدار نحوي يدمدم باحْتقانٍ:

- رجلٌ مجنونٌ مَنْ يصحب زوجته لمثل هذه الاحتفالات الماجنة.

بعْـد أربعـة أيّـام مِـنْ المسـير، اسـتطعنا بلـوغَ بيـت «العرّافـة»، اضطُررنا للانتظـار خـارج بيتِهـا أكثـر مِـنْ نصـف يـوم، كان ثمّـة رجـالٌ يحوّمـون حـول النّسـاء اللّـواتي انتظـرن بالخارج، سرعان مـا يمضون ويـأتي غيرُهم، ربطنـا الجمـلَ في جـذع نخلـةٍ، بَـركَ واسـترحنا تحتـه، وإحداهنّ تمـرّ بأواني مِـنْ المـاء كي يـشرب المنتظـرون، كانتْ الشّـمسُ لاسـعةً تلك السّـاعة مِنْ النّهـار، وكنّـا لم نشـبع جوعَنـا إلّا ببضـعِ كـسرات مِنْ خبـزٍ جـافٍّ، وبقليلٍ مِـنْ الفحـصِ واسـتراقِ السّـمع أمكننـي إدراكَ أنّ معظـم النّسـاء اللّـواتي يجلسـنَ منتظـرات حالهنّ مثل حـالي، لا يُنجبْن، وبـدا أنّ هـذه «العرّافة» لها حوادث سـابقة تؤكّـد فعاليـة اللّجـوء إليها.

كان الأمـلُ مرادفًـا لرحلتي هذه، أمـلٌ غريبٌ، لا أفهمه، قـرأ «دُرّ» الأملَ في عينـيّ فضمّنـي إليـه، كان الرّجـالُ الذين يسـيرون حولنا قـد اختفوا، ولم يكـن في الجـوار إلاّ رجـلٌ جالـسٌ في ركنٍ هناك، يبدو شـبحُه مـن بعيدٍ مثْل

رجل يناهز المائة عام، كان ظهرُه محنيًا انحناءة تكوين هيكله نفسه وهو جالسٌ في خمولٍ وفي سأم، داخل كشك مِنْ خشبٍ يعلو عنْ الأرض مسافةً لا تتجاوز الثّلاثة أمتار، ويتّصل بها في ذات الوقت عنْ طريق درج خشبي ضيّق ملتفّ إلى أسفل يحدّه سياجٌ حديدي تباينت عليه بقعٌ قديمةٌ مغبّرة فيما بين درجات اللّون الرّمادي متفاوت الكلح، الباهت من شدّة الصدأ، وشعرتُ أنّ الرّجلَ يسكن كشكَه هذا منْذ الأزل.

كان الرّجلُ يستدير في بطءٍ ويولّي لنا وجهَه، يتوقّف قليلًا يتطلّع نحو هذين الجسدين المتكوّرين في التصاق مع بعضهما البعض، كان ينظر نحونا متفرّسًا في غرابة، وعلى فمِه تلوح بسمةٌ لا تشي بأيّ تعبيرٍ مفهوم، وبدا لي عظيمَ الشّبه بالدّرويش «غبري».

ثمّ لم يعُد هناك سوانا بالخارج، رحتُ أرتعش بين أحضان «دُرّ»، وبضعُ غيماتٍ استرحن في تكاسل عنْد حافة الأفق الذي لمّهن في طيّاته، كان الجو يمتلئ بضبابٍ خفيفٍ، وروائحُ الحقول القريبة الباردة المحمّلة بأثر الألفة تصل إلى أنفي، وصريرٌ متقطّعٌ يترامي إليّ مِنْ الكائنات التي تقطن حواشي التّرع القريبة، روائحُ الرّوَثِ والتّرابِ المطعّم بأزلية البدائية وعبقها الفطري تملأ الأجواء، قال «دُرّ» وهو يفحصني بعينيه:

- اطردي الحزنَ مِنْ عينيك يا «أسماء الرّب».

ابتسمتُ ابتسامة شاحبة وأردفتُ:

- إنّه الأمل.

لكنّي قلتُها بابتسامةٍ مريرةٍ، فتسلّلتْ عيناه بعيدًا عنْ وجهي، وبدا

أنّه يئس مِنْ إصراري، فشعرتُ أنّي أودُّ لو أشدّه مِنْ يده وأطيرُ به نحو السّماء دون رجعةٍ، بعيدًا عمّا اقترفه قدرُ هذه الحياة في شأننا، ثمّ قلتُ بغير أنْ أُفلت نظري مِنْ عليه:

- ماذا إذا متنا! هل سيكون لنا في السّماء أولادٌ؟

- النّاس موتى، وأهلُ الحبِّ أحياءٌ، ولو ماتوا يا «أسماء الرّب».

وابتسمَ في رقّة، ضمّني أكثر، وأعمدةُ الإنارةِ ترعش في وهنٍ مِنْ بعيد، الوقتُ صار مساءً، والفضاءُ بالخارج يخلو إلاّ مِنْ جسدينا اللّذيْن يكملان الصّورةَ الباهتةَ لمشْهدٍ كهل.

فيما قليل، نادتني إحداهنّ، أسرعتُ بالدّخول كأنّي انتظرتُ دهرًا، «دُرّ» انتظر خارج البيت وفق طلب السّيدة التي نادتني، جدرانُ البيتِ طينيّةٌ، لا ملمحَ بعينِه يدلّل على رفاهةٍ، تفترش «العرّافةُ» جلدًا بدا كجلدِ ماعزٍ، ومِنْ حولها تتناثر القدورُ وأكوابٌ مِنْ الفخّار، حدجتني لأجلس، جلستُ جوارها، لكنّها بإشارةٍ مِنْ يدها جعلتني أستبدل مكاني، فجلستُ قبالتها، راحتْ تتأمّلني، قالتْ بعْد قليل:

- أسماءُ الرّبِ لا حصر لها.

وضحكتْ ضحكةً خبيثة جعلتني أرتجفُ، فلم أنبُس، كدتُ أقول لها: وما أدراكِ باسمي؟

لكنّي أيقنتُ أنّها تدري، مَنْ غيرها يدري إنْ كانتْ لا تدري؟

أشعلتْ موقدًا فيه حطبٌ، وكوبًا فخّاريًا يحوي ماءً، لم تتكلّم، وظلّتْ

تنظر إلى الماء حتّى بدأ يغْلي، ثمّ رفعتْ الكوبَ بيدٍ ثابتةٍ، وناولته لي:

- اشربي.

تردّدتُ، فسرعان ما حدّقت بعينيّ وكرّرتْ:

- اشربي إنْ ابتغيتِ جدوى زيارتِك.

رفعتُ الكوبَ إلى فمي، وكان مذاقُ الماء فاترًا برغم أنّه يغْلي، جرعتُ الكوبَ برشفتين لا غير، قالتْ بصوتٍ خفيضٍ:

- أبناؤنا الذين في غيبِ البطون، لمَ العجلة؟

مع هذه الألغاز، لم أستطع أنْ أجاريها، تركتُها تتحدّث، كانتْ كأنّما تُطلق السّؤال وتجاوبه:

- ستجرّكم أمّهاتُكم إلى هذه الحياة دون أيّة صلاحيات أو ضمانات، ستجرّكم أمّهاتُكم مِنْ نورِ البطونِ إلى ظُلمةٍ لا نهايةَ لها، انظُروا إلى أنفسِكم، ستخرجون يومًا مِنْ مجرى الحكاية وتدخلون في مغبّة النّسيان، كلُّ الحكاياتِ قاهرٌ ومقهورٌ.

ورفعتْ عينيها إليّ قائلة:

- نقضي أعمارَنا بحثًا عنْ الحقيقةِ، لكنّها موجودة تحت أقدامِنا، في العموم أعطِ النّاسَ عظةً وإنْ تجاهلوك.

- ولكنّي أبحث عن الحقيقة لديكِ!

- دوري ليس صنع الحقائق، ينتهي دوري عنْد تجميل الأكاذيب.

- ستكتمل حياتي بحقيقةٍ واحدةٍ، عدا ذلك كلّ حياتي مجرّد أكذوبةٍ كُبرى.

- سترين الحقيقةَ بعينيك، لكنْ لن تكتمل حياتُك، فما أكثر الحقائق المشوّهة.

- ليكن..

- رغبتُك مشبوهةٌ!

نظرتُ إليها لا أفهم، ردّدتُ:

- رغبتي أصيلةٌ وطاهرةٌ.

- لكي تتحقّق رغبتُك، لابدّ مِنْ اقتراف خطايا لم تأتِ على البال، لابدّ أنْ تحرّري نفسَك تاركةً روحَكِ لفوضى الأقدار، قد تنْشطر الرّغبات ما بين بين!

- تهون الخطايا مقابل ولد.

- عليكِ الاقتصاد في الرّغبة، قد يأتي ولدٌ لا يُشبهه ولدٌ!

- المهمّ يأتي ولد، ثمّ ليكن ما يكون.

فوضعتْ أناملَها على بطني، تمتمتْ بما لستُ أستوعبه، ومضتْ تتمتم لدقائقٍ، ثم ارتدّتْ إلى الوراء، وأغمضتْ عينيها تقول:

- الخُلاصةُ؛ لكي يأتي الولدُ لابدّ مِنْ زرعةٍ غريبةٍ، عابرةٍ.

- لي زوجٌ!

- زرعتُه مبتورةٌ.

- وماذا إذا جرّبتُ وكانتْ العلّةُ فيّ؟

- هذا شانُك، في النّهاية التّجربةُ أجدر مِنْ الانتظار.

- انتظرتُ طويلًا.

- وحده ماءُ الغريبِ يستطيع أنْ يروي بطنًا جدبة، بل ويُنبتها.

- وبعدها؟!

ناولتني إناءً وقالت:

- بدمِ جرو ولحمِه، تكتمل التجربةُ.

واستفاضتْ، رُحتُ أصغي إليها وفي الجانب الآخر مِنْ البابِ يتحرّك ظلُّ «دُرّ» القلِقُ جيئةً وذهابًا، وكانتْ تهمس، فلم يتعدَ علو صوتِها غيرنا، كان أداءُ ذراعيها فقطْ يعبّر عمّا تشرحه لي باستفاضةٍ، تتّسع عيناي قليلًا، ثمّ تُفلِت منّي ضحكةٌ فتدكّني في صدري بحزمٍ، تمسح على رأسي بأناملِها وقد ابيضّتْ عيناها، وتحذّرني مِنْ مغبّة رغبتي، قالتْ إنّ الخسائرَ لا تلحق بنا إلّا عبر رغبات لم يتمّمها القدرُ، لكنّي كنتُ مصرّةً أنْ أحصل على شرحِ الوسيلةِ التي بها سيجيء ولدٌ مُكتملٌ لنهايتِها، مضتْ تستكمل شرحها، وعيناي معلّقتان فيما وراءِ الباب.

بعد أنْ انتهت، أولت رأسَها النّاحية الأخرى، وأشاحتْ بيدِها كي أخرج، لملمتُ ثوبي، لكنّها استوقفتني قائلةً:

- إنّما عليكِ أنْ تعرفي أنّ الذي سيأتي سيكون ولدٌ ليس كمثله أحدٌ،

سيصبحَ كائنًا له أصلٌ في البشر، وفي الحيوان، فإنْ سار على أربعٍ، قامتْ الدّنيا له، ولم تقعد، واعلمي أنّك إذا أحببتِ شيئًا بشدّة، فاستعدّي لخسارتِه.

(ط)

طاشتْ برأسي إشاراتٌ، واستعمرَ نفسي الأملُ كما لم يفعل مِنْ قبْل، شعرتُ به يقتحمني ويستقرّ في قرارةِ خيالي، كلامُ «العرّافة» وإنْ بدا معظمُه مُستغلقًا عليّ، لكنّ روحي استجابتْ له، استبدلتْ الأملَ بيأسي، وكان الكلامُ يضوّي أمام عينيّ، ماذا لو كانتْ الخطيئةُ سبيلًا مؤكّدًا للنّجاة؟

الجَملُ قطعَ كلَّ مسافةِ العودةِ في يومين، كأنّ الأملَ الذي انبذر بداخلي مِنْ جديد دفعه لحماسٍ أهوج، كاد يُهلكِنا غير ذي مرّةٍ، إنّما كلّ الذي استحوذ على رأسي هو فكرة الولد الذي سيأتي مِنْ زرعةٍ غريبةٍ، مَنْ الغريب الذي يُمكن أنْ أستأمنه على جسدي وعلى ذنبي؟

ظللنا نسيرُ بين ظلال أشجارٍ باسقةٍ تزيّن حوافَ الطّرقات تارةً،

ومررنا عبر شارعٍ جانبي تارةً، وتارةً تتفرّع الأقنية التي تضخّ الماء بداخلها، وعلى حواف الأفق المسوّر للقرية، تبرز أسنّةُ جبالٍ مكسوّةٌ بالغيبِ، وكأنّما تحتضن القريةَ حضنًا أزليًا.

دخلنا القرية وكان اللّيلُ قد هبطَ بعضُه، لم يقضِ «دُرّ» في البيتِ أكثر مِنْ ساعةٍ وحيدة قضاها في التحمّم وتجهيز نفسه، ثمّ سرعان ما مضى يصل طقس «العَزاء» الذي انقطع عنه بالسّفر، لعلّه كان يخشى مِنْ لومِ الرّجالِ وهو ذو مكانةٍ بينهم.

وكان مِنْ العجيب أنْ يزورَ القريةِ «غبري»، تحديدًا في مثْل هذا التوقيت، في هذه اللّيلة، إنّه لا يمرّ عليها إلّا كلّ بضعةِ أشهرٍ، وفي يوم الجمعة، لم يزرها أثناءَ شهر «العَزاء» مِنْ قبْل، ما الذي خطرَ ببالِه؟ هلْ تبعَ حدسًا ما وقدُم؟ لعلّه يعرف أنّ واحدةً مثلي تنتظر غريبًا لتحقيق أملٍ شغوفٍ راودها! بل كان مِنْ الأعجب أنّه طرق بيتَنا دونًا عنْ كلّ البيوت، كانتْ النّسوة قد أغلقنَ عليهنّ بيوتهنّ في غياب الرّجال، ولم يكن رجلٌ في القرية، خرجوا جميعُهم ليباشروا طقسَ «العزاء» في الجبّانة.

طرق «غبري» البابَ، دون تخوّف فتحتُ له، باغتني قائلًا:

- كيف حالُكِ يا أمّ الولد؟

هؤلاء يعرفون، الرّحالةُ يعرفون ما لا نعرِف، إنّهم يطوّفون البلدان لأجل جمع الأسرار، أظنّه لم يزر القريةَ إلّا كي يمنحني الولدَ الذي تصبو إليه جوارحي.

ارتعشتْ شفتاي، لم أردّ عليه، بعْد قليل قلتُ وقد خالطني حياءٌ:

- «دُرّ» في الجبّانة، يعود مع مطلع الصّبح.

أولى لي ظهرَه ونظر لي نظرةً بدوت أدركتُها، فلم أطمئنُ إليها، كأنّه يريد أن يُبلغني بدافع زيارتِه، لكنّه تمتم:

- حسنًا، سأنتظره هنا في الخارج.

ووضع صندوقَه أرضًا ليجلس عليه.

في سكرةِ الإحباط قد يبزغ المصيرُ المُرتقَب، إنّ المصائرَ مراوغةٌ، أمنياتي قد تُزهر على شجرة الخيبة المُحدِقة، لعلّها! أيٌّ منّا قد يجزم بالقادم؟ الآن صرتُ مجرّد وليمة للتردّد الذي لا جدوى منه، وليمة مِنْ الرّغبات المتضاربة والآمال المُقيمة في أحشاء الخيال، ليس بعد التقهقرِ خلفٌ آخر إذًا، كلّا لا يُمكنني الصّمود، ماذا لو كان «غبري» مجرّد رسولٍ للأقدار؟! خشيتُ أن أفقد فرصتي عند غريبٍ مُنتَظر، هو نفسه قال مِنْ قبْل إنّ الفرصةَ لا تأتي إلّا مرّة، أفسحت له رغم إجهاد السّفر وهمهمتُ:

- حسنًا، انتظره بالدّاخل، الهواءُ باردٌ عندك.

بلا نِقاشٍ دلفَ، أوسعني عنْ طريقه بدفعةٍ واهنةٍ حانيةٍ، وربّت على ظهري، بسط قدميه أرضًا، أخرج مِنْ صندوقِه عودَ «قرنفل» وقنّينةَ شرابِه، استطردَ وهو يناولني إيّاهما:

- امضغي «القرنفل» واحتسِي الشّرابَ، هذا المساء لن أمنحك عروسًا، ربّما منحتُكِ ولدًا.

كأنّ الأسرارَ كلّها تتآمر كي أقع في المحظور، الخيوطُ تتشابك بين

الخيالِ والواقعِ، بين «العرّافةِ» وبين «غبري»، هلْ اتّفقا معْ القدر؟ هلْ بإمكاني استيعاب مثْل هذا التآمر؟ آه مِنْ ضوضاء رأسي، ازدحمتْ بالصّخب، أخشى أنْ تكون المؤامرةُ قد دُبّرت ذات لهوٍ قدري!

وضعتُ عودَ «القرنفل» في فمي، بعد مضغتين رفعتُ القنّينةَ وارتشفتُ، لم يكنْ مذاقُ شرابِه مُرًّا كما توهّمتُ، بل كان حارقًا مستحبًّا وكأنّه نارٌ انطفأتْ في أحشائي، لم أحتج كثيرًا كي أفقد اتّزاني، سرعان ما ثملتْ رأسي، وسقطتُ متطوّحة على صدرِه:

- لقد أسكرتني يا «غبري».

- وهل ضربتُكِ على يدِك؟ إنّ في الخمر انبساطَ الزّمن بأكمله، الزّمن المحسوس وغير المحسوس، في الخمر لو تدرين يا امرأة مصلٌ يهدهد الحياة ويذلّل أوجاعها، فليس مِنْ إحساسٍ في غمرة التّعاسة التي تشمل الكون يوازي لمعةَ الفرح التي تطلّ مِنْ عينيك عقب رشفةٍ مِنْ سعادة، هذه الخمرُ تثني عزائمَنا عنْ شرٍّ كبيرٍ، ففي الحياة هناك أشدُّ ما يبعث في الأحياءِ التوجّس والحيرة فكرة أنْ يجدوا أنفسَهم يومًا تحت الأرض معْنا في رحلتنا، وهنا أخوفُ ما يراودنا أنْ نجد أنفسَنا يومًا فوق الأرض نعاني مثلما يفعلون، مفارقة، أليس كذلك؟ لكنْ رغم الخوف ثمّة شيءٌ يجذبنا إلى هناك، شيءٌ مريبٌ، لا نستطيع الوقوفَ على تداعياته أو ملابساته، شيءٌ يرغمنا على التّوق إلى النّور البعيد، ربّما فكرة الحرية نفسها، أو فكرة مضادة، مَنْ يعرف حقًّا؟ المهمّ لا النّور يأتي ولا الرّحلة تنتهي ولا حكمة الأقدار تنذر بخبرٍ أكيدٍ، فاتركينا للخمر تصرع الهلاوسَ الكامنةَ في رؤوسِنا.

- أتعلم يا «غبري» أنّنا أبدًا لا نختار وفقًا لرغباتنا! مثلًا لماذا لا نعرف للألم نهايةً؟ لماذا ننحصر في دور المحكومين؟ لماذا لا نخرج دومًا مِنْ الحكاية في سلامٍ؟ فقطْ نبقى معلّقين كالظّلال الشّاحبة واهنة الحركة التي تسكن هوامش التّاريخ، تطاردنا القسوةُ ويطاردنا التوحّشُ وتطاردنا الرّغبات المُستحيلة.

- الخمرُ إذًا هبةٌ لا بأس بها، حتّى لا يعود أحدٌ فينا يذكر أنّه عاش أصلًا أو مات، ما جدوى التذّكرِ في ظلّ ضياع الحكمة؟ عليكِ الإيمان بأنّه لا توجد رغبة مستحيلة، توجد فقط الرّغبات المؤجّلة، المُستأنَفة ولو بعْد حين، ثمّ ما أنفع الخمر في مثل رحلتنا القصيرة!

- يا رجل أتحسب نفسك عاقلًا؟ مَنْ فينا عاقلٌ؟ في لحظات الثّمل يعود كلّ عقل لأصله، الجنون، الجنون الغريزي الذي ليس أشبع منه إحساس، سأجنّ، سأجنّ وقد تُجنّ معي إلى غاية المنتهى.

- أهكذا يبحث الكلُّ عنْ جدوى؟

- ما أعذب هذه الخمر!

كانتْ رائحةُ «القرنفل» وروائحُ الخمرِ تكتنف عقلي، وروائحٌ أخرى ليست مكتملةَ الوضوح، حواسي تقترب مِنْ مرحلة التّخالط، ولا تعود لي قدرةٌ على التحكّم فيها، الضوضاءُ تواصل الشّجي بتواترٍ داخل رأسي، وطبولٌ تدمدم مِنْ بعيد، بعيد، طبولُ عالمٍ تعيش فيه أحلامي حبيسةً، في فمي طعمُ «القرنفل»، وفي يدي لمساتٌ باقيات مِنْ طيفِ «دُرّ»، في فمي طعمُ المساء واللّقاء، وبقلبي غصّةٌ لا تُحتَمل، والرّغبةُ لعنةٌ ماضية الألم.

قال وهو يسحبني إليه:

- تعالي أُدفِئك بيْن ذراعيّ.

قلتُ وأنا أترنّح:

- سكرة الموتِ تدفئ قبْلما تُهلِك، تمامًا كذراعيك.

- كلّا، تعالي، أنتِ الحبيبةُ القريبةُ اليوم.

- ليس الحبيب بالقُرب، ما أبعد الأحبّة الذين يعبروننا كجسورٍ إلى ضفّةٍ أخرى!

لكنّي تمدّدتُ داخل ذراعيه مستسلمةً، مستنفدةً كلّ صبري، أمام عينَيّ يزدوج الخيالُ، فيزوغ بصري، وأنا أتقلّب وأتأوه كمنْ يتراقص والنّارُ ممسكة بأحشائِه، أحببتُ أنْ أتآخى وأسرارَ الرّحال، مؤكّد ثمّةَ لحظةٌ في الغيب لم تُكتشَف، لحظة مُبهمة، منتَظرة، يستشرفها قلبي ويؤكّد لي وقوعَها، كلّا لن أخطئ هدرًا، ثمّة لحظة أنتظرها، لحظة تتمّم سلطتي المُطلقة على كلّ الأشياء: الزّمن، والحكاية، والطّريق، كلّ الأشياء المرهونة بالرّغبات المُستنفدة.

أرقدُ بين ذراعيه، ورأسي عامرةٌ بالذّكرى، على حافة الحُلم المسوّر بالخوف مِنْ مجهولٍ بدا أنّه يربض آجِلًا أو عاجِلًا وقد يباغتني بما لا أحتسب، ولم أستشرف، أتأمّل مشاهد الماضي، وأنا أمشّط شَعري تأهّبًا، كان كلّ ما فيه يُفضي لراحة السّريرة، تعلو شفتيه ابتسامةُ الاستقرار الشّعوري، نفس الاستقرار الذي طالما صبوتُ إليه.

أقبلت معه على لحظةٍ مِنْ خلود، في ضمّته فقدتُ رزانتي، ولكنّ شيئًا لا أستطيع إدراكه يمور في قلبي، ثمّة قهرٌ خبيثٌ يختبئ في تجاويف الرّوح، يلوح كلّما أغمضتُ عينَيّ وحاولتُ التجديفَ بخيالي بعيدًا، خوفٌ آسِرٌ مِنْ شيءٍ ما قادِم.

علَّمني في بضع دقائق أسماءَ الزّهور ومعنى روائحها، وددتُ لو أدخل فيه لأستعيد اللّحظة الأولى لخطيئةٍ لم تكن في البال، آنذاك كنتُ سأعرف الطّريق إلى روحي المُستهلَكة، أليس كذلك؟ لم أكن قد أعددتُ صورةً واضحة لِما سيحدث بين ذراعيه، ولم يسألني، بلْ تيقّنت مِنْ مبادلة القدر بيقين وعمق الحزن ذاته الذي يسكننا دون احتساب، كلّ شيء ساعتَها كان فريدًا، كلّ المعاني تشابهت، راحت مشاعرُنا تتناسخ في فوضى، وتتلاطم، وأخذنا دون حذرٍ نتلامس بروحينا لسنا نخشى القيامَ بأيّة خطوةٍ عشوائية، ولم أكن خائفةً مِنْ أيّ شعورٍ بالإثم، ولم يكن مترقّبًا، كنّا غائبيْن عنْ الحاضر، والدّموعُ على وشك أنْ تطفر مِنْ عينَيّ في إحساسٍ ليس له مثيلٌ، وهو يتناول شفتي السّفلى ويضغط عليها، ثم يهبط بها إلى أسفل فينفتح فمي عنْ آخره، ويضغط برفق على خصري، فيُرْفَع جسدانا إلى أعلى، كما يُرفع عنّا التّروي، وبساقيه يدخُل بين ساقيّ، فلا أستطيع مقاومة الانجذاب إلى مركز جسده المُنتَصب بامتداد بطني.

رفعتُ ساقيّ حول رقبتِه، لكنّه وضعهما تحت صدره، ونزل عليهما، ودكّني فوق أرض الحصير، فانبعجتُ، وانفردتُ، وأطاحَ كمجنونٍ بكلّ طاقةِ احتمالٍ كان يُمكن أن أدّخرها، حشّ فرجي بمنجلٍ عريضٍ، خاض في عُمق منطقة اللا أمان، كان يغوص بداخلي، ويغزو، ويجابه

الموج العالي بذراعٍ من حديد، يلطم بها الموج فيتكسّر، وكاد الرّيمُ يغطّي حدودَ الملكوت، وهو يلج كلّه في المُهمَل مِنْ أحشائي، ويضرب على غير هوادة، وأعوي، وأسحّ المياه من فرجي، وأنبح، وأتوه، ويئن، ويدخل أكثر، ولا أكتفي، أكثر، فأكثر، وقاعُ فرجي لا يصله إلّا عابثٌ مثله، آه، لحظات خارج حساب الزّمن.

وأرْقدني على بطني، وبيديه استكشفَ أولًا، ضغطَ برفقٍ على جرحٍ قديمٍ مستطيلٍ بامتداد ظهري، ثمّ بأصابعه، مرّر إصبعًا فإصبع، فرحتُ أتلوّى، وبغير حذرٍ دفعَه داخل ثُقب الرّوح، فكدتُ ألعق ترابَ الأرض، وطلعَ ونزلَ عليّ، وصرخَ وصرختُ، وراحَ ورُحتُ، وبدا أنّا لنْ نجيء، لماذا لم تأتِ بشائرُ أملٍ كهذا مبكّرًا؟!

تتسارع دقّاتُ قلبي، نجد نفسينا عاريْين بغير درايةٍ، أمام الوعد بإقرار المُستحيل، وأمام اللذّة، بدونا جائعيْن حقًّا، ولم نعرف لماذا استمدّ جسدانا كلّ هذا التحرّر والهيام المخلوط بالجنون؟ ثمّ وكأنّنا نُبعَث مجدّدًا، نقتحم روحينا بحثًا عنْ أماكنَ لم نطأها مِنْ قبْل، نشهق، ونخور، نغرس أظافرَنا في لحم الأكتاف وفي قهر الماضي، نُخرِج للماضي ألسنتَنا ونغيظه، ونودّعه قائلين ها نحن هنا نولِّد جسدينا مِنْ جديد، تصدُر أصوات لم تعرفها حناجرُنا قبْل هذا، تتسارع دقّات القلوب، وتتلاحق الأنفاسُ، يصبح الدّفءُ والخدَرُ بديليْن عنْ أزمنةِ الحرقة الموبوءة، تُشلّ الأطرافُ وتستجيب للتّمازجِ، تتسلّل مِنْ بين ستائر النّافذة أضواءُ النّجوم، واللّمعةُ التي تضوّي في ظلامِ الغرفةِ جرّاء اللّحظة السّخية أقوى في تأثيرها، ولم نكنْ بحاجةٍ إلّا أنْ تتشاءب الكائنات.

كيف لا يُريد جسدي أن يهدأ؟ كنتُ موقِنةً أنّ هذه اللّحظةَ لن تتشابه وأيّة لحظة أخرى، لأنّها لن تتكرّر، هي لحظة البذر لنيل المُراد، فجعلتُ أنهل منها كيفما تراءى لي، مِنْ دون رغبة في الرّجوع إلى العالم ثانيةً، وقبلاتُه تترك فوق جسدي بقايا أحاسيس غامرةٍ مدهشة، تجعل الأنفاسَ تتهدّج، فأفتحُ عينَيّ، ربّما لأتأكد أنّني لستُ في حُلم، الجميع متوفّرون الآن عداي.

فيما قليل، أحسستُ به يكبّ ماء الحياة وكأنّ الماء يغلي، لم تهدأ رُوحي وإنْ ثملتْ، لم يرقني إتيانه وإنْ اكتفيتُ، أوقدني ولم يُطفئني، أما كان للحظة العشق الفوّارة هذه أنْ تتمدّد وتجاوز حدود العقل والخيال!

أنهض شبهَ مترنّحةٍ فاقدة الصّواب، ولا أعرف إلى أين أذهب؟ ولماذا يتسلّل هذا الظّلامُ اللّذيذ إلى عقلي؟ لم يكن الظّلام مستحبًّا قبْل ذاك، إنّما الآن يشدّني للتساؤل عنْ معنى الحياةِ أصلًا؟ فأقولُ لنفسي: وهل في الحياة معنى أكثر جنوحًا ممّا يحدث الآن؟

يلملم جسمَه مِنْ فوقي، يستدير عنّي ثمّ يرنّم بشفتيه في خفوتٍ، ويهمس:

- لي أمانةٌ مستردّةٌ يا «أسماء الرّب».

أحاول العبثَ في بعضِ الأشياء، في عرائِسه، في المُقتنيات، كأنّما أُصرِف نفسي عنْ امتداد اللّحظة بداخلي، أستخرج أوراقي، أسجّل المشهَد، كان شبه عارٍ، مضيتُ أرسم تفاصيلِه داخل ورقةٍ ستعاقرني للأبد، ولم أهدأ إلّا حين استدرتُ إليه كاشفةً عنْ صورتِه، فابتسمَ متفضّلًا، كأنّه لا يكترث.

وحين راحَ يستعدّ للرّحيل، رحتُ أنظرُ إلى الحياة داخل الغرفة، فوجدتُ كلّ المَشاهد مِنْ حولي ترمّلت فجأة، ولا أعرف لماذا انتفضتُ؟ ما الذي ألمّ بصوابي فجعلني أستعيده دفعةً واحدةً؟ لماذا تركتُه وعدوتُ خارج الغرفة؟ هلْ كنتُ خائفة حقًّا؟ هلْ جثمَ الإحساسُ بالذّنبِ عليّ بعْد إتيانِه؟

كان جسدي محبوسًا داخل حدّ، وحُلمي محبوسًا داخل حدّ، وعقلي محبوسًا داخل آخر، وكلُّ الحدودِ في النهاية مُغلقةٌ أمام الخيال.

حين تذكّرتُ الطّفلة التي كانتْ ارتجفتُ أكثر، كأنّي رحتُ أتفرّج على يأسي القديم عبر إثمٍ وُليد، وثمّة سوادٌ يستفحل فيّ.

هل عليّ أنْ أحاكم نفسي الآن كأنّني مسطولةٌ أفاقتْ؟

أجاهد الارتحالَ عنْ كلّ الأفكارِ دون جدوى، وهبتُ نفسي طواعيةً للخطيئة، يرميني الألمُ فوق صمت اللّحظة باكيةً، وأتساءل: كيف استسلمتُ لمثل هذا الذّنب؟ هل لشرابِه مثْل هذا التأثير؟

منْذ سنوات، كان الذّنبُ حليفي، ولو أُرغِمتُ عليه، تتصارع الآن ذكريات الماضي داخل روحي، أراني نفسَ الطّفلة التي تعدو وراء الصّبية والفتيات، نتجمّع على ضفّة التّرعة الصّغيرة، يشكّل الأولاد دائرة ثم يكشّرون في وجوهنا [نحن الفتيات- يأمروننا بالتنحّي عنْ ألعابهم، تتفرّق الفتيات، لم يكنْ لهنّ سوى الاحتماء بظلال الأشجار الوارفة، يستهويني التحديق في الدوّامات التي تصنعها أجسادُ الأولاد الواثبين داخل متن التّرعة، يغوصون لأسفل بحثًا عنْ القراميط، يغيبون قليلًا

تحت صفحة المياه الخضراء المليئة بالطّحالب، ثم يبزغون وهم يبصقون مِنْ أفواههم بقايا المياه العالقة بعْد كتم الأنفاس، يصيح ولدٌ وهو ينهرني:

- هربتْ منكِ القراميطُ، ابتعدي كي تعود، هيا ابتعدي.

أتزحزحُ للوراء بعض الشيء مبتسمةً ابتسامة خانعة، لكنّني أظلّ مطلّة نحو المياه، كم أودُّ بالفعل رؤية أحد القراميط، يقول لنا الأولادُ إنّ القراميط تكره البنات، لذلك تسرع بالاختفاء في حشايا المياه عندما تتواجد واحدةٌ منّا على الضفة، أتعجّب، لماذا تكرهنا القراميطُ؟! أدنو قليلًا من الأولاد، أكلّم أحدَهم هامسة:

- هلْ للقراميطِ شوارب حقًّا؟

لم أكنْ قد رأيت واحدًا مِنْ قبْل إلاّ في إناء أمّي ولحمُه الأبيض المغطّى بجلدٍ أسود أملس يسبح في عصارةٍ مِنْ الطّماطم والبصل والثّوم، وحتّى قبْل أنْ يُطهى، كنتُ أراه ميّتًا بلا روح، عيناه ساكنتان وشارباه متدلّيان إلى أسفل، لم أكنْ ليشبعني موتُ عينيه، كنتُ في الحقيقة أكثر فضولاً لرؤيته وهو يمرح في المياه.

ينظر الأولادُ لبعضهم البعض، يزعق أحدُهم:

- هل تريدين رؤيةَ قرموطٍ حيّ؟!

ثم يقبّ قليلًا فيظهر نصفُ جسدِه عنْ صفحة المياه، أدنو متشجّعة، يخرج لي قضيبَه وهو يهلّل:

- ها هو قرموط حيّ يلعب في عبّ المياه.

ويضحك ضحكةً بلهاء ظافرة.

كنتُ صغيرةً جدًا، طفلةً لم يعلّمها أحدٌ معنى اللّهو، والتفرقة بين العيْبِ والهزل.

كنتُ واقفةً قُرب التّرعة، واقتربَ منّي أحدُ الأولادِ، حفّزته نظرتي الباسمة إليه، قال لي:

- هل أغضبتك رؤيةُ القرموطِ؟

لم أردّ، تلعثمْتُ.

- تعالي معي، سنلعب لعبةً معًا.

تردّدتُ، فقال موسوسًا:

- لا تخافي، سوف نلعب فقطْ.

ومع القليلِ مِنْ الإلحاح والمداهنة استجبْتُ، الصّغيرات كنَّ ها هنا لا يعرفنَ عنْ النوايا غير المحمودة، كلُّ ما تعرفه البنات الصّغيرات في قريتنا هو الطّيبة، انسقتُ خلفه ببراءةِ وفضول وانجذاب الطّفلة التي تُمنّي نفسَها تجربة اللّعب مع ولد، ولد بالخصوص.

قادني نحو سقيفة مِنْ العنب قبالةَ التّرعة، بحثت بعينيّ عنْ صاحبةٍ تشاركنا اللّعبة فلم أجد، ويبدو أنّ ما دُبّر منه هو تدبير جماعي، كان الأولادُ كلّهم يتغامزون ويهلّلون، بدءوا في الخروج واحدًا تلو الآخر مِنْ التّرعة، والتجمّع أمام سقيفة العنب مترصّدين، والولدُ في الدّاخل

كان يـراودني، ولم أعِ، أولًا سـحبَ جلبـابي بمكـرٍ ثـمّ تحسّـس مؤخـرتي، استسـلمتُ لتجربـة اللّعبـة الجديـدة التـي لم أفهـم إلى أيّ طريـق تـؤدّي، لكنّـي كنـتُ أرتعد، ربّما مِـنْ خوفٍ باطـنٍ في عُمـق الغريزة، أو مِـنْ انعدام فطنـة التـصرّف، أمسـك الولـد عـودَ ثقـابٍ، أسـند مرفقَـه فـوق ظهـري ولـواني برفـقٍ وغوايـةٍ وأولج العـودَ في دُبري بحـرصٍ ودقّـةٍ، لم أكنْ أدري أيّ نـزقٍ في استعماله عـود ثقـابٍ! إنّما تأوّهـت، مِـنْ الألم، أو مِـنْ الوجل، لسـتُ أدري! وشـعرتُ أنّ هـذا هـو الذّنـب بعينه الـذي قد يُغضـب الرّب منّـي، لكـنّ التجربـة لم تكنْ لتُقـاوم، وأنا صغـيرة، صغيرة كفايـة لأنْ يجرّني الولـدُ خلـف إغوائِه، عـودُ الثّقـاب مثلَ نفخـةِ هواءٍ مِـنْ الـوراء، مع ذلك هـي نفخـةٌ فيهـا القليلُ مِـنْ الوخز، الكثـيرُ مِنْ الحـلاوة واللـذّة التي لم تك قبـلًا، ينغمـس العـودُ ويخـرج، وتلتحـم أوداجـي في نشـوة لُعبـة لذيـذة، لم ألعبهـا مِـنْ قبْـل، كذلـك تصطـك ركبتـاي، ما يجعلنـي أفكّـر لـو أنّ أحدًا شـاهدني فهـذا هـو العيـبُ بعينـه، سـيقتلني أبي لـو عـرف أنّ ولـدًا عبـث بمؤخرتي.

مِـنْ خلفـي الولد ينهـج، ثم يبـدأ يطلع ذكـرُه حـادًّا صعبًا عـليّ، فُزعت، وازداد صمتـي المُدجّج بالشّـغف، يُغرِق ذكـرَه بلعابه، ويدور بـين ردفيّ به، ينـازع مـروره داخلي، لـه ملمسٌ دافئ مسـتحبّ، وإحسـاسٌ كدبيب النّمل عـلى جِلـد نائم، ثمّ في مباغتةٍ يرشـقه فيّ، أتقلّص، أسـتفيق مِنْ سـحجة الألم بداخـلي، وأسـتدير في روع، أنتفض عندمـا أراه ضامًّا أصابعـه حول قضيبه في نـزقٍ ذكـوريّ، أجري إلى الخـارج لاهثـةً ووجهي مُغـرق بالعرق، لأجد جمعًـا مِـن الأولاد واقفـين في انتظـار طلوعي، ومِـنْ خلفي الولد بـدا ظافرًا

باللعبة، يتبعني متباهيًا، يجري ورائي الأولادُ، يزفّوني مهلّلين، تحاوطني البنات صاحباتي، ويبتعدن بي.

بالمُصادفةِ، بالنّميمةِ، يصل الخبرُ إلى أمّي، بالطّبعِ لم تَقل لأبي، كانتْ تعرِف أنّه يحمِل مِنْ الهَمّ ما يكفي بلدًا، لكنّها عاقبتني بالخِصام مرّةً، وبالحَبسِ مرّةً، ولمّا كانتْ كريمةً في إسداءِ النّصحِ، جلستْ إليّ، وقالت:

- أنتِ صغيرة على التبصّرِ يا «أسماء الرّب»، مهما شاهدتِ مِنْ الأولادِ كانْ لابدّ أن تفطّني إلى مَكرِهم.

ثمّ أحاطتني بذراعيها، ونهنَهتْ:

- لكنّها ضريبةُ البنات في قريتِنا يا ابنتي.

وقالتْ:

- بالبصيرةِ لا بالبصرِ يُمكن أن نفطِن إلى مَكرِ النّفوسِ وشرِّ البشر.

وشطّفتني، واستغرقتْ في سردِ حكايةٍ عنْ البنات اللواتي بإمكانهنّ أنْ يَصرنَ رجالًا يحملنَ فوق أكتافهنّ الجَدّ والالتزام والصّرامة وأثقال العالم، بل بإمكانهنّ أنْ يرمينَ الرّجالَ في التّرعة تأديبًا لهم.

في باحة بيتِنا القديم، كنتُ أجمّع أعدادًا مِنْ البنات لنلهو، كنتُ أشعر أنّ الذّنوب تجسّدت في تلك البنات، وكانت التساؤلات التي تدور في رأسي آنذاك عبثية، ولم تكنْ الإجابات متاحة بأيّ سبيل، لذا؛ كنتُ أقضي وقتًا طويلًا في تصفّح وجوه البنات، لعلّ إجابة هناك، وقلتُ لأمّي:

- سأقرأ ذنوب البنات على جباههنّ.

- كبرتِ يا «أسماء الرّب»، لكنَ لسانك لم يزل صغيرًا على ذِكر الذّنوب يا ابنتي.

كانتْ جارتُنا ترشّ الورود بمرشٍّ نحاسيّ، وتدنو باشّةَ الوجه مِنْ سورِ شرفة بيتنا الطّيني، الشّرفة المنصرفة إلى الباحة المُشتركة بين البيوت، والملتصق قعرُها بحجارتِها، وتقول:

- متى نفرح بابنتِنا؟

فتردّ أمّي في لوم:

- ابنتي صغيرة على الزّواج يا امرأة.

وحين أسألها عن مبرّر ردّها الجاف على جارتنا، تمصمص شفتيها وتُردف:

- إنّها امرأة حاسدة.

أقول:

- وهل الحسدُ يؤذينا؟

- بدرجات يا ابنتي، مَنْ اقترب مِنْ الرّب ابتعد عنه الحاسدون والكارهون، إنّ الإنس مكتوب على جباههم أفراحهم وأتراحهم، وكلّما ازدادوا قربًا مِنْ الرّب تبدّلت ألوان جباههم إلى أفراح.

- لكنّ فرحتَنا نادرة.

قالتْ لي في زيارةٍ بعْد زواجي، ولم تكنْ تسيطر على دموعِها:

- رحلتِ وأخذتِ فرحتي معكِ، مِنْ دونِك شاخَ بيتُنا يا ابنتي.

كانتْ أمّي طريحةَ الفِراش أيّامها، استبدّ بها مرضٌ حيّر الأطبّة، فهمدَ جسمُها، وبات ينضح عرقًا له طعمُ السّكر، وفقدتْ أكثرَ مِنْ نصف وزنِها، قبعتُ قرابة أسبوعيْن جوارَها، ورُحت أعاصرُ أحداثَ موتِها يومًا بعْد يوم.

أفلتْ أمّي، كشمسٍ غريبةٍ، في مكانٍ ناءٍ، رحلتْ وتركتْ أثرَ الحسرة، وعلّمتني كيف يكون الوجع في أحلك حالاته.

لا أكادُ أسترجعُ حكايةَ موتِها حتّى تُدهشني، مثلما أدهشتني -وأبكتني- لحظة حدوثها، بل وأتساءل: بأيّ منطقٍ جرتْ! ثمّ سرعان ما تجيبني نفسي: مثْل تلك الحكايات لا تُحدث إلّا لبائسةٍ مثلك.

كنّا أُسرةً تقْطِن في بيتٍ مِنْ طين تحوّزه مساحات مِنْ أرضٍ مزروعةٍ بالعُشب يملُكها جيرانُنا، مِنْ تلك البيوت التي قد يصيبنا فيها بعضُ أمراضِ البيوت الطّينيّة، وفي بيتِنا، اعتدنا على القليل مِنْ الحشرات النّافقة، أو الزّواحف -غير المؤذية- التي تخرج مِنْ شقوق الحوائط، اعتدنا أكثر على وجود الجرذان.

كانتْ قدماها قدْ شلّتا، فلم تعُد تتحرّك، ثمّ بالتّدريج، وعبر أيّامٍ قلائل، راحتْ تفقد بصرَها، وخلال الأسبوعيْن، حتّى وفاتِها، مضتْ حالتُها تتدهور.

استيقظتُ ذات صباحٍ، ووجدتُ دمًا ينزف مِنْ قدميها، لم أُخبرها، وتحيّرتُ، كانتْ قدماها مقضومتيْن، متوّرمتيْن، ومحفورتيْن في أكثر مِنْ موضعٍ.

أدركتُ بعد أيّامٍ أنّها -لبؤسِها- لم تكن تشعر بالجرذان التي تأتي خلسة لتقضم قدميها بسبب هذا المرض، تقضمهما بلا رفقٍ، حتّى إنّي -ومع تكرار الأمر- اضطُررتُ للفّ قدميها بشاشٍ أبيض، كثيرًا ما استبدلتُه حين تغطّى بالدّم.

إنّما ماتت أمّي وانتهت حكايتُها، وكلّما بدا لي أنّي لم أعُد أتذكّرها بالتمام، تهبط إليّ أمّي مِنْ السّماء، لتذكّرني بحكايتها.

بموتِ أمّي، أدركت لماذا انقطعت عنّي سُبلُ النّجاة في مجاهل هذا العالم الطّائش، أدركت معنى أنّي كُنت، ثم لم أعُد، كانتْ أسطورةً حيّةً يُمكن أنْ تنتشل بقايا البراءة مِنْ أحشاء التّاريخ، فأستعيد بكارتي وأمضي لا أحفل بمثل كمّ الألم الذي يسكن الحياة، لكنّها -في لحظة- اختفتْ، لم أصدّق أنّ التي تبتسم على فطرتِها لن تفعل، أنّ التي تربّت على جبهتي تراخت يداها للأبد، أنّ التي تكسوني بمحبّتها ستتركني عاريةً حتّى مماتي.

الجبّانةُ؛ المرقدُ الأخيرُ، أهناك ينامون حتّى يشاء الرّب؟ دفنتُ أبي وأمّي، وباتا يُسكنان الحقيقة، ونحن نسكن الشّكَ العظيم، نمرّ أمام الجبّانة فنتأسّى على غياب الأحبّة، وهم مِنْ الدّاخل يقرؤون لنا خطايانا.

أمّي لم تعلّمني نُطقَ الكلام، بل علّمتني الكلامَ الذي لا يُمكن لأحدٍ أن ينطقه.

يُروى عنْ أمّي إنّها كانتْ ستّ البنات، لم تكنْ تتزيّن إلّا للصّباح، كي تخرج على أمل أنْ يصطحبها الصّباح لعالمٍ رَحبٍ واسعٍ ليس فيه بشرٌ، كان يراودها الأمل، وكنتُ لمّا أكشّر في وجهها تضحك، ببساطة لم أكن أعرف عن شكل الدّنيا ولا بهجتها ولا دعمها إلّا أمّي، فعندما تبتسم، فقط إذا ابتسمتْ، تضخ شرايين الحياة بداخلي دمًّا نقيًّا نورانيًا، وإذا عبستْ، تتوقّف الأوردة فأكاد أختنق، تمامًا كاختناقي يوم رأيتُها مسجّاة أمامي ولا رُوح فيها، ظللت أداعبها علّها تستفيق، دون جدوى، ظلّلت أتحسّس يديها، قدميها، جبهتها، أصيح فيها: قومي يا أمّي. بلا ردّ. المسافة بعيدة عليّ يا أمّي. لا تُجيب. هل ستتركيني وحيدةً دون مأوى ولا سند ولا بهجة؟

وكانتْ عيناها سابحتين في غمام اللا عودة.

اختنقتُ، هل في الدّنيا أقسى مِنْ اختناقي وأنا أعرف أنّي لن أموت وراءها؟! لا أحد يموت لموت أحد، إنّنا نختنق فقطْ، نبقى مختنقين طيلة العُمر.

حدّقتُ في وجه أمّي، يتصايح النّاسُ حولي، ترتبك الدّنيا، ينهار «دُرّ» على انهياري، يحاول لمّ شتاتي، ولكنّي أحدّق في وجه أمّي، يتسابق الجميعُ لإحضار عطور الدّفن وتجهيز الكفن والجبّانة، ولكنّي أحدّق في وجه أمّي، ذلك لأنّها ابتسمتْ، هكذا فجأةً، ابتسمتْ وهي الميّتة، كيف أستدركُ أعصابي؟ ابتسمتْ وكان عليّ أن أبتسم، حيث ينبغي أن أوقن أنّها لم تمُتْ بعْد، في جسمِها قليلٌ مِنْ حياة، قليلٌ فقطْ، إنّما يكفي للاطمئنان أنّها لم تغادر، بلْ باقية، سأستعيدها بأملٍ واهنٍ ضعيفٍ، أملٍ

بائسٍ عاجزٍ، سأستعيدها، وريثما يتباكى الجميعُ مِنْ حولي يُمكن أنْ أدبّر شيئًا مِنْ حنين، سأسقطُ فوق جسدِها، وأذرف دموعي كي أمنحها بعضًا مِنْ حرارة الحياة، لعلّها تسعل سعلةً واحدةً، كافيةً لاستعادتِها، كلّا يا أمّي، إنّ الشّجرَ الذي يرحل، مِنْ بعْده يرحل خضارُ الحقول والمزارع والحياة، إنّ الشّجرَ الذي يرحل يبوّر الأرضَ، وإنّي أرضٌ في حاجة للخضار، لا البوار.

عندما ابتسمتْ أمّي، أدركتُ أنّي مجنونة، فأنا ألفّق الآن ما هو دون الحقيقة، إنّها مسجّاة يائسة عاجزة، ولا سبيلَ لاستعادتِها.

ترحل الأشجارُ، وأمّي شجرةٌ يافعةٌ، أفرعُها في السّماء، لكنّها رحلتْ.

ظللتُ أتساءل: هل ماتتْ أمّي حقًّا؟ لماذا كانتْ تبتسم رغم أنّهم يخبّئون فمها بابتسامته في كفنٍ أبيض له رائحةُ الحياة؟

نُولد وكأنّ الحياة مُنتهى، ونموت وكأنّ الموت مُبتدى، وبينهما لا كأنّنا عشنا، ولا كأنّنا أدركنا أيّ معنى، نحن عدم، نُولد ونموت، ونسلّم حسراتنا لأبنائنا من بعدنا.

لعلّنا موتى منْذ بدء تكويننا، لعلّ ثمّة زمنًا متماهيًا لسنا على دراية بكلّ ألاعيبه، ربّما، وربّما أنّ الموت بعينه في الأساس مجرّد ملاذ مِنْ موتٍ أشدّ ضررًا على النفس، هل في الموت ألمٌ يا أمّي؟

دُفِنت أمّي في يوم جمعة قاتم كما دُفن أبي قبلها، كنتُ قد تزوّجت في يوم جمعة، والتقيت «غبري» للمرّة الأولى في يوم جمعة، وأنجبت «روح» في يوم جمعة.

في مثل يوم الجمعة هذا، كان أبي يخرج إلى أصحابه، للسّمر وتدخين النّرجيلة، وحيث كانتْ وجبةُ طعامنا الرّئيسية هي العشاء.

كان أبي يعمل يومًا، وينقطع عشرةً، فبالكاد يسدّ احتياجنا، لكنّه كان يسافر كثيرًا بين المُدن والقرى، ومِنْ نِتاج ترحاله أنْ تزوّج أمّي، قابل أمّي في مدينةٍ بعيدةٍ، وكان أهلُها ميسوري الحال، صاهرهم وكان يكبرها بنحو عشرين عامًا، وجاء بها إلى قريتنا، وحكتْ لي أمّي إنّ أهلَها رفضوه في بداية الأمر، لكن حُسن أخلاقه وشكله وإصراره طابوا لها، فتشبّثتْ بالزّواج منه، وقالت: رزقي رزقه، الرّب وحده عليمٌ بأقدارِنا.

في يوم الجمعة، كانتْ أمّي بعْد شروق الشّمس بقليل تستقبل جاراتنا، يتسامرن معًا، ثمّ يجلسن في الباحة، يحتسين الشّاي مِنْ «برّاد» ضخم مركون في زاويةٍ على موقد، وكانتْ معظم أحاديثهنّ تدور حول توافِه الأمور، وما جرى قبْل ألف عام، ويتأسّيْنَ على أمورٍ بعينها، ويستغرقْنَ في حكايات الفِراش، والأزواج، ويمصمصنَ شفاههنّ.

لكنّي كنتُ أترك كلّ هذا، وأتحرّر منطلقةً إلى الشّوارع، أركضُ، ويخبط حذائي أديمَ الأرض المبلّط بالحجارة، تلك الحجارة التي سقطتُ يومًا فوقها فانفلق ظهري بجرحٍ طولّي، وقبعتُ شهورًا في البيتِ للتّعافي.

كانتْ الشّوارعُ تحمل بهجتي ومغامراتي، أتّجه للسّوق، أنا وبنات القرية، ونراقب بائعي التوابل والفواكه، ونأكل التّين والزّبيب اختلاسًا، ونراقب صانعي النّحاس وهم ينفخون في المواقد والشّرر يتطاير مِنْ حولهم.

في هذا السّوق، شاهدني «دُرّ» لأوّل مرّة.

كنتُ صغيرةً، لكن «دُرّ» كان رجلًا موفورَ الصّحة والمال، استطاع استقطاب أبي وأمّي بإغراء لا مقاومةَ معه، وعندما خرجنا لبيت «الحياكة» لتجهيز ملابس الزّفاف، ومررنا عبر الأزقّة المكسوّة أقبيتُها بالثّلج هذا الخريف، وأثارة مِنْ ضوء الشّمس تجد لها منفذًا خلال النّوافذ المفتوحة في بطون أسقف الأقبية، سألتُ أمّي:

- هل تريدون التخلّص منّي بتزويجي؟

فشدّتني إلى ذراعيها ونهنهتْ:

- هذا شرعُ البنات يا «أسماء الرّب».

شققنا وجهتَنا عبر الشّارع الكبير، وأصواتُ الباعة تتلاحم مع حشودِ المارّة، كانتْ أمّي تضمّني في حذرٍ تخشى عليّ سطوةَ الزّحام، كانتْ الحشود متخالطَة، وروائحُ العرق نافذةً، فأمسكتني مِنْ يدي بحرصٍ، وأخذت تُسرع الخُطى، حيث بيت «الحياكة».

استقبلتنا صاحبتُه بحفاوةٍ بالغةٍ، ثمّ جلسنا نحتسي كوبيْن مِنْ عصير «الخوخ» الطّازج، إلى أنْ تحضر «الخيّاطة» بالأقمشة للقياس واختيار ما يناسب ذوقينا مِنْ ألوان، فرَدَتْ لنا أكثر مِنْ خمسة ألوان مِنْ الأقمشة، ظللنا متحيّرتيْن نقلّب فيهم، قالتْ لها «الخيّاطة»:

- كم عمر العروس؟

- عشر سنوات.

ردّت أمّي باقتضاب، لكنّ «الخيّاطة» أكملت:

- نفصّل لها طرحةً واسعةً إذًا كي تحشّم شعرها!

- البنتُ صغيرةٌ يا امرأة.

- هذا سنُّ زواجٍ، عيبٌ عليكِ يا سِتّ.

أقنعتها الماكرةُ بتفصيل طرحة مزركشة واسعة، ومِنْ لهفتها فصّلتها لي ولم نزلْ جالستيْن عندها.

قطعنا طريقَ العودة وكان الزّحامُ أشدّ، وصلنا البيتَ أخيرًا، كان أبي جالسًا على كنبة في صحن الدّار، وأمّي توجّهت مِنْ فورِها تجهّز لنا طعامَ العشاء، لحقتُ بها، وجلست تحت شجرة «الجمّيز» السّامقة أستريح بين أغصانها الظّليلة، وبعد لحظاتٍ؛ سمعتُ صياح أمّي، كانتْ تتذمّر وتسبّ وتلعن نارَ الموقد؛ التي أحرقتْ الطّعام.

لكنّها راحت تستأنف إطعامَنا، تُعيد تجهيز العشاء مرّةً أخرى، ونأكل ولا تأكل معنا، كأنّ رحيلي ترك أثره قبْل أنْ أرحل، وكثيرًا ما صادفتُها تنتحب قبيل زواجي، وكانتْ إذا خلا البيتُ، تجالسني تحت شجرة «الجمّيز»، تضع راحتها على رأسي، وتظلّ تخمش بأناملها جرحَ ظهري في حنوٍ، وتقول:

- سأحكي لك حكايتي مع أبيكِ، كنتُ في مثل عمرك يا «أسماء الرّب».

كنتُ أحبّ هذه الحكاية، خصوصًا لمّا تحكيها أمّي، وكنتُ أعرف أنّها

إذا ضاقت بأمرٍ، جلست إليّ تحكي حكاياتها.

ضمّتني إليها، وشرعت تسرد، وقبل أن تُكمل حكايتها، كنتُ -كالعادة- قد غفوتُ على صدرِها.

نفني أعمارنا بحثًا عنْ الأماكن فلا نجدها، الأماكنُ نفسها - الحيّة بذكرياتنا- إذا بحثت عنّا، وجدتنا، لأنّنا رغم كلّ شيء لم نبارحها.

لو أنّي أعقدُ صفقةً مع الرّبِ، سوف أبادل يومًا مِنْ عمري بأمّي، تعود فقطْ، أسمع ضحكتَها وأضمّها، لكنّي سأضمّها ضمّةً كبيرةً، ضمّة يومٍ كامل.

يا رب، لو نبيع أعمارَنا مُقابل أنْ نستعيد أحبّتنا، ولو ليومٍ واحدٍ!

(و)

وروَى الماءُ الغريبُ عَطش أرضي، بينما لم يرحل إلّا وعلى جبينِه سوءتي، كانتْ رغبتي سوءتي، وكنتُ أخشى أن تُفضح فيراها العابرون على وجهِه.

أيُّ إثم أتيتُ؟ هل فاقت رغبتي في الولدِ حدّ الخطيئة؟

في هذه اللّحظة روحي تجهل موضعها، والعتمةُ تلفّ كلّ الزّوايا، كأنّي سحابةٌ تضرب في السّماء على غير هُدى، ونفقتْ كلّ الأفكار الخبيثة التي عزّزتْ رغبتي، وتبقّت فكرةٌ واحدةٌ يجب أن يُثار عليها؛ أنا، بكلّ التداعيات التي تقلقل روحي الآن، أنا الفكرة التي ينبغي أنْ أُعيد أدائها كي أنجو، أنا التي عُلّقتُ في اللّحظة، وسُجنتُ وراء قضبانٍ مِنْ خِزي، الرّغبات أفكار عابثة، والعبث يستنفد البصيرة، سأوصد كلّ أبوابِ

الأفكار المواربة، وسأعيش سبيّةً لإثمي، سأحتمي بالبقاء وحيدةً، وسأنسى كلّ الأماكن البعيدة.

إنّما أخشى أنْ تكون الأماكن الأقرب غربتُها أفدح، أخشى أنْ يأتي وقتٌ يُصبح فيه الأقربون أشدّ قساوة مِنْ الأبعدين، ألم تقُل لي أمّي إنّ الأماكن بمنْ فيها؟

لملم «غبري» مشاعري كلّها معه ومضى، كما جاء بغير تنبؤٍ رحل، تركني أشبهُ بشجرةٍ وحيدةٍ في خلاء الكون، نظرتُ إلى وجهي في المرآة، لم تكنْ «أسماء الرّب»، بل كانتْ لعنته، ورغم انتهاء الأمر، لم تنتهِ الضّوضاءُ، ظلّتْ رأسي تطنّ، في لحظةٍ عزفتُ عنْ كلّ رغباتي، حتّى رغبتي الأصيلة في إنجاب ولدٍ، ووددتُ لو عاد بي الزّمنُ سنوات، ما كنتُ اخترتُ هذه الطّريق، بل لظللتُ ألهو مع البنات في الشّوارع القديمة وعلى ضِفاف التّرع، نختلس فرحتنا، ويتوقّف الزّمن عنْد لحظة الفرحة تلك.

اقترب الصّبحُ، واقترب مجيء «دُرّ»، هل سيغفر الرّبُ سيئاتي؟ أوليس يُبعث المرءُ بميزان عذاباته يا رب؟

استُنفدتْ منّي كلمات الاستتابة، بقيتُ أحدّق في جدران البيت، جدران اليأس، كأنّي فقدتُ الرّجاء، ورنوتُ إلى القادم مُحبطةً، مستسلمةً لمكيدةٍ قدرية، يضيع معها كلُّ معنى للغفْران.

شعرتُ أنّ انهياري سيدوم للأبد، كيف إنْ أمرتْ لي رغبتي أطعتُ، إنْ أوعزتْ اخطئي أخطأتُ؟ كم أخاف مِنْ شرّ نفسي! أيبدو فيها شرّ كامن لئيم؟ رأسي تصوّر لي احتمالات، فأهرول خلفها، تمتلئ روحي

بالمقت هذه اللّحظة، كيف يصل بي الأمر إلى ارتكاب حماقات ما كنتُ ارتكبتُها لو لديّ حكمة ورجاحة وإيمان بالرّب؟ أبدًا لم تنل منّي رغباتي كما نالت هذه اللّيلة، تتسارع أحداثُها أمام بصري، وأعرف أنّي لا أتذكّر ممّا جرى قدر ما يُخيفني ممّا هو آتٍ، كيف يُمكن ترتيب الأحداث بعشوائية التّجربة نفسها؟ أخشى أنْ تتوالى تراكماتُها إلى ما لا نهاية، دونما جرد أو طرح أو تنقيح، بذات الفوضى، وبذات الانحرافات، إنّ التّاريخ الذي يرصد ويدوّن الحقائق باقتدار، يرى الأكاذيب أيضًا، بل ويرويها، التّاريخ الذي مِنْ دورِه أن يردّ دلالات المفردات لمعانيها، يعرف مع ذلك أنّنا البشر ننحدر مِنْ خبل إلى خبل ومِنْ سفه إلى سفه، ومِنْ موتٍ إلى حياة خرافية إلى فناءٍ مُبهم.

لا بأس مِنْ الوجع والمرارة والخيبة، حتّى وإنْ كنّا عشّاقًا صادقين يا «دُرّ».

لم يَعُدْ ثمّة طوقُ نجاةٍ لي يا «دُرّ»، لا ينتظرني أملٌ ها هنا، بل لعلّ النّاجين مِنْ هذه الأرض يحلّقون في السّماء بغير عودة، وأنا لم أنجُ، حيث فاقت اللّعنات كلّ رجاء، وأمستْ ذنوبي أثقل مِنْ أيّ غفْران.

بداخلي نزعةٌ جنونيةٌ لإنهاء الطّقس، طالما بدأتُ مسلسلَ الخطيئةِ فلأستكمله، كنتُ في حاجةٍ لنفسي، لكن ولدي القادم في حاجةٍ أكبر لي.

عقدتُ النيّة وخرجتُ، فوق رأسي شالٌ مِنْ القطيفة، وعليه تنسدل «حَبرة» سوداء فوقها «جِبّة»، تلفّ جسمي كلّه، وتغطّي وجهي، الدّروبُ هي الدّروبُ، لم تزل تائهة في شتاتِ المصائر، خرائطُ القريةِ محاها الزّمنُ، القدرُ نافذٌ كرمحٍ له سنٌّ ذهبيةٌ بلونِ الشّمس، اليومُ

حاسمٌ في تاريخ أرض الرّب الجدلية، والنّورُ ساكنُ السّماء.

رأيتني أحلّق بيْن الأزمنةِ، أستوقفُ الأحداثَ، أقدّم وأؤخّر، أستشرفُ المستقبلَ البعيد، والقريب، أرى الخواءَ ساكنًا طلعة القادم، أعودُ بالزّمنِ للوراء، الرّمل والحجارة والتّراب والإنس والجّن، للوراء أكثر، ملايين السّنوات انقضتْ وليس للإنسانِ ذِكرٌ، للوراء أكثر فأكثر، يعرف الإنسانُ ما معنى الدّفنِ، ومعنى الذّنبِ، ومعنى القرابين البديلة.

أدورُ بيْن الأزمنة كفراشةٍ لا جسمَ لها، رُوح، لا أكثر، ولا أقلّ، بيْن الأزمنةِ أدورُ، وعلى أرضِ الرّب العامرة بالشّكوى، والقرية مجرّدة مِنْ الحيلة، صامتة صمْت الزّمن القاصر، الغافل عمّا يجري بأمرِ الرّب.

بدا أنّ كلّ شيء يرتسم أمام بصري المضبّب كأنّما يفعل مِنْ تلقاء نفسه، فقط كي يشاطرني قسوة الخيال، كلّ شيء بدا كظلالِ أشباحٍ مراوغة، كالضّباب المتراقص في هجعة هذا السّكون المستفزّ، نَبَض اللّيل قبالتي بالأرواح، أرواح غير مرئيةٍ لكنّها حاضرةٌ بدلالات الذّهن الذي يستبق الأحداث، وإنْ بدا ذهني غائبًا منْذ خضت غمارَ الإثم، إثم الرّغبة قبْل كلّ الآثام.

تفقّدتُ أجواء الدّرب، وكنتُ قد اطمأننتُ أنّ عينًا لن تراني، رُحتُ أبحثُ مثل مخبولة، كانتْ الأشجارُ على جوانب الشّارع تنكفئ تطالعني وسط هدوء اللّيل، تعابثها ريحٌ، فتتطاير حولي أوراقُها كصفحاتٍ مِنْ كُتُبِ عشقٍ هائمة، أنقّل بصري، ضوءُ القمر خافِتٌ، والسّكون لا يُنبئ بشيء، ليس في نهاية المدى ولو جرو عابر، لم يكن خوفي ليجعلني أُحبط، سأجد جروًا مارقًا، أنا أسجّل خيبتي الآن أيّها التّاريخ، لكنّي

في حاجةٍ للفرار، اطردني، اطردني قبْل أنْ أُفسِد تتابع الأحداث، قبْل أنْ أشهد فجيعتي بعينيّ، ليس هكذا يكون الاختيارُ، إذا ما غاب الوعي فسُد صلاح الاختيار، لم أجد قاهرًا لرغبتي، تمرّدتُ على الأقدار جميعها، مِنْ أجل ولدٍ، مِنْ أجل فرحةٍ تدوم، ولد أمسّد شعرَه، أمسكه بشدّة فيقول: يدُك يا أمّي، رفقًا. ولد أعيّره بشاربٍ لم ينبُت، وصدرٍ لم تبرز فيه شعرة، فيقول: سأكبر ويصبح لي شاربٌ كشاربِ أبي الذي تهذّبينه بالمِشط كلّ صباح، سيصبح لجسدي نفس العضلات ونفس القوّة ونفس العزم، تمامًا كأبي. ولد يشكو سخونة الماء وأنا أحمّمه، ولد أعيش معه أجمل ذكريات الأمّ، عندما يبدأ يصحو في جسده كلّ شيء، وتستيقظ فيه المشاعر ثائرة، يناديني: «أسماء الرّب». فأنهره: قُل أمّي.

لكنّ الضّبابَ الذي أمام بصري ينجلي، وتتلبّس الحقيقةَ ملامحٌ عدائية، وأرتكن إلى جدارٍ باكية، أرتكن إلى جرحي وإثمي، وأتقمّص المفقودات كلّها من جديد، أتقمّص الذّكريات، وفي المدى طفلٌ سيتقمّص الحياةَ، شتات أجزائي يطوّف مع الأفق السّارح نحو العدم، لنْ أرثي حالي، الرّثاء هذه السّاعة مجرّد مجاز عاجز، كنتُ كعصفورٍ تهدّل غصنُه ويبس، ولم يعُد له مأوى.

ثمّة غربانٌ في السّماء تحلّق وتنعق، كأنّها توحي بُقرب النّهاية، أبحث عنْ الصّباح الذي كان منّي، قالت لي أمّي مِنْ قبْل إنّي خرجتُ مِنْ أول خيط للشّمس في الكون، لكن الظّلام يكتّف البصر.

سيكون اسم ولدي مِنْ نسيج المصير، ومِنْ بدن الحكاية.

سأتّخذ هذه الطّريق إلى الهُراء، وسيبقى ذنبي يدوّن المرثيّة، فحكايتي لم

تـرو مِـنْ قبل، بـل لعلّها لم تـرو بعْد.

مِـنْ قلـب الظّـلام، يبدو الجـرو قادمًا نحـو مصيره، اسـتدلّ عليّ بحاسّـة اسـتباق النّهاية، كان يدنو وسـاقاه لا تـكادان تحملانِه، واهنًـا جوعانًا كان، فانتظرتُـه، يسـير إليّ ولسـانُه متـدلٍّ يقطّـر اللّعـاب، والغربـان لم تـزل تحلّق فوقـي، خشـيتُ أنْ تشـاركني الغربـانُ مشـاهدَ الحُلـم، في الهـواء روائـحُ الصّبـح القـادم، وسـينتهي فيـما قليـل طقـسُ الجبّانـة، اقتربـتُ مِـنْ الجرو، وضعـتُ أناملي فـوق رأسـه فشـدّ أذنيـه فَرِحًـا، ضممتُـه تحـت إبطـي، ورحـتُ أمسّـده خشـية أنْ يقفـز خوفًـا منّـي، تعال لا بـأس، أنـتَ القطعة الأخـيرة في هـذه اللّعبة.

أغلقـتُ بـابَ البيت، وبحثت عـنْ مكانٍ ملائـم أُخفي فيه الجـرو لطلوع الشّـمس، كان المـكانُ الأمثـل هـو داخـل الفـرن الطّينيّـة التـي تقبـع آخـر الفنـاء، دسسـتُ الجـرو بداخلهـا وأوصـدت عليـه، لم أنـس أنْ أضـع لـه بعـضَ الطّعـام خشـية نباحـه وافتضـاح أمـري في الـدّرب، أو خشـية تمكّنه مِـنْ الفِـرار، عـلى كلّ حـال «دُرّ» يعـرف أنّ طقـس الإنجـاب سـيأتي عـبر جـرو مذبـوح، كنتُ أخبرتـه الجزء الأخـير مِـنْ كلام «العرّافـة»، ولم أخبره كيـف سـيأتي الولد، يعـرف أنّ بيننا لقاءً سـيحدث حـال عودته، هـو اللّقاء الذي سـيُثمر.

كعادتِـه طـرق «دُرّ» البـابَ، يعلـم أنّي في انتظـاره، طالمـا انتظرتُـه بعْد كلّ ليلـةِ طقـسٍ، فتحـتُ وارتميـتُ على صدرِه، بـدا مسـتغربًا، لكنّـي خفتُ أنْ يبـدو الإثـمُ عـلى ملامحـي، فدفنتُهـا في حضنِه.

كانتْ ملابسُه متربةً، ووجهُه مغبّرًا، ابتسم وهو يقول:

- انتظريني حالما أشطّف جسمي مِنْ ترابِ الجبّانة.

وبدا هو متعجّلًا، صبّ المياه على جسدِه بسرعة، هونًا يا «دُرّ»، لقد قضى الرّبُ الأمرَ، وإنّما أنت غافلٌ عمّا كان، وما سيكون.

كان ينشّف جسدَه العاري وهو مُقبلٌ عليّ، ازدردتُ حنجرتي وأنا موجوعة، دنا يُشعِل الموقدَ، مثْل عادتِه، لكنّي قلتُ:

- لا يا «دُرّ»، دعنا هذه اللّيلة نجرّب عتمةَ مشاعرِنا.

مصمصَ شفتيه مُندهشًا، في هذا الأمر لم أخالفه مِنْ قبْل، فبدا استشعرَ شيئًا، وراح يحدجني بنظرةٍ متحيّرةٍ، لا تنظر لي يا «دُرّ»؛ أنا بائسةٌ في نهاية الأمر، لن تجد لديّ سوى الصّمت الحسير، مصيرُنا على محكٍّ واحدٍ، لكن الضّرورات تلتهم في طريقها مصائرَ أخرى.

اقترب منّي وقال:

- غريبٌ أمرُك يا «أسماء الرّب»! أليس مِنْ الأوْلَى أنْ تفرحي بهذا اللّقاء؟!

- ومَنْ قال إنّي لستُ كذلك؟

- نبرتُك لا تُريحني.

- إنّها نبرةُ الشّوق الذي طال يا «دُرّ».

بلا تعليقٍ آخر، جثمَ عليّ، جرّدني مِنْ ملابسي بيديه، وعلى عجلٍ، وبدا مُرهقًا، وبدوتُ لا أطيقه، رفعتُ ساقيّ، فولج عنيفًا سريعًا، ضربني مرّتيْن، وفي الثّالثة أغرقَ جوفي، ثمّ ارتخَى، ولم أكُنْ معتادةً على

مثْل طريقتِه تلك، أدركتُ بتعاقب التّجربة في ليلةٍ واحدةٍ لماذا كان يتأسّى دومًا مِنْ مسألةِ الحجم!

لم أشعر بشيءٍ، شعرتُ فقطْ بمدى تعبِه، استلقى جواري وأسلمَ نفسَه لنومٍ بدا سيطول، أحسستُ تجاهه بالشّفقة، له أيّامٌ لم يذق نومًا مريحًا، ورحتُ أتأمّل ملامحَه فيغصّ قلبي، أيّ ذنبٍ سأحمله تجاهك يا رجل عمري؟ ستنام على غفلتِك، ولن أخلد للرّاحة ما حيْيت، قد يأتي ولدٌ يُشبهني يا «دُرّ»، لكنّه لن يُشبهك، أو قد يُشبِه عابرًا قذفَ أحمالَه ورحل.

وبدون أيّ استدعاءٍ، تومض المشاهدُ القديمةُ في خيالي كأنّها طازجة، تحاصر ذهني، أسمع «دُرّ» يطلبني للزّواج، أسمعُه كأنّه الذّكريات كلّها، الذّكريات ليس يُمكن أنْ تُستهَلك كأجسادِنا، قال لي «دُرّ» عنْد سقوط أوّل جنين إنّه يؤمن بالرّب إيمانًا لا يشوبه شكّ، أدركتُ بمرورِ الأعوام أنّ حبّه للرّبِ لم يكن حبًّا مُكتسَبًا، إنّه هذا الحبّ الفطري، الحبّ الخام، بالأخصّ الذي لا يخلّف لا جُرحًا ولا ألمًا، وإنّما يتركنا أبرياء تمامًا كلّما ازداد الحرمانُ، كالصّفحةِ البيضاءِ، كالتّحليقِ في عدمٍ، كسكونِ الأفلاك لحظة دوران الأرض، وبمضي الوقت، ظلّ «دُرّ» بريئًا في حبّه، خلاف مشاعري كلّها.

ستتداعى أمام بصري كلُّ الذّكريات القديمة، ذكريات قريتي التي تسكنني، ذكريات طفولتي، وذكريات الأحبّةِ جميعًا، سأقول لنفسي في ترضيةٍ وهمية: لا بأس، اقترف الإثمَ أبرياءٌ أيضًا.

أترك «دُرّ» نائمًا في عمْق، وأطلع إلى سطحِ البيت، خيوطٌ مِنْ نورِ الصّباح ترجف فوق أرضِ السّطح، تسبح خيوطُ النّور على الجدران،

فتسبح أيامٌ متداعيات في ذهني، تضوّي في رأسي إشارات، وتنطفئ أخرى، تختمر بداخلي نجواي للسّماء القصيّة، وهلْ أفدح مِنْ إثمٍ قد أقترفه في حقِّ نفسي؟ تتراخي جفوني، تصبح الصّورُ المنصرمةُ في عهدٍ قريبٍ مجرّد سُحُبٍ هشّة تتمايل أمام عينيّ، تحتويني البقعةُ المعتمةُ ما بيْن الذّكرى والخيال، تتعقّد حبالُ الضّوءِ فوق الجدار أكثر فأكثر وتتمازج، تدنو مِنّي، تبدو كأنّها تتحايل كي تلتفّ حول عنقي، أشعةُ الشّمسِ لم تظهر بكامل أناقتها بعْد، لها نفسُ الزّهو ونفسُ الدّفء ولو اختلفتْ الأماكنُ، لكنّها تحاول خنقي، تمامًا كما كانتْ تحاول أن تفعل في أزمنةٍ مضتْ .

أنظرُ مِنْ السّطح نحو الجبال البعيدة والأراضي الخلاء وقمّة المعبد الذي يسكنه الوهمُ، وأنا أزفر زفرةً باهتة، ثمّة ترسّبات في نفسي يشقّ كثيرًا الوقوفُ على ملابساتِها، أو حتّى تفسير ما قد تؤول إليه مِنْ نتائجَ يحتمل أنْ تصيبني بالحسرة حتّى إشعارِ أملٍ جديدٍ، أنظُر إلى الفناء وإلى أزهار أولادي الذين غيّبهم القدرُ، كانتْ أجنحةُ الفراشات الهائمة تشعّ ألوانًا متدرّجة ومتباينة مع سقوط أشعة الشّمس.

أتذكّر أوّلَ لقاءٍ مع «دُرّ» عقب زفافنا، كانتْ العطورُ تفوح مِنْ جسدِه، وعلى شفتيه ابتسامةٌ كأنّه لا يُصدّق، كأنّه يقول: ها أنتِ حقيقة متجسّدة الآن أمامي.

لكنّي كنتُ أعشق الخيالَ لا الحقيقة، فأفزعتني لمساتُه، آنئذٍ كان قوسا قزح يَثِبان مِنْ عينيه نحوي، بثباتٍ وهدوء تَنحنَح وقال وهو يمدّ يده لي بوردةٍ حمراء:

- استنشقي عطرَ هذه الوردة، لا مجالَ للعجلة، على مهلك.

وردة! وردة في ظلّ هذا التوتّر الذي يعصف بي!

أتلعثم، أشعرُ بالحرج وأنا أرمق الوردةَ بيْن يديه، بنظرةٍ غير ثابتة رُحت أفحص مفردات وجهه، كان بريئًا كبراءة صبحٍ وليد، شعره القصير بدا كعمامة مِنْ خيلاء تكلّل عرشَ رأسه، ابتسامتُه العفوية قطرات مِنْ رحيقٍ عذبٍ وددتُ حقًا لو ألعقه مِنْ فوق شفتيه، أحسَّ بهذا التشتّت، ابتسَم أكثر، كانتْ الوردةُ بين يديه لم تزل، وكان مادًّا لي أصابعَه بها.

- تحمّمي وسأنتظرُكِ بالفناء.

تركها فوق الفِراش وضحك، لا أدري كيف تجلّى اللّطفُ على ملامحه بهذا الشّكل؟ لكنّي استوقفته بيدي، وقطعتُ عليه طريقَ الخروج، وقلتُ بنبرةِ اعتذار:

- تعال حمّمني بيديك.

وقفنا متقابليْن، لحظة مِنْ سكوت مطلَق جابت ألسنتَنا، أثناء ذلك رحت أتأمّله بإحساسٍ حديث الولادة، وراح يتفقّد هيئتي مِنْ تحت لفوق بنظرةٍ حانية.

اشتهيتُه، هذا الاشتهاءَ المُفاجئ، الذي لا حيلةَ لي فيه ولا يمكنني الوقوفُ على أسبابه تحديدًا، لعلّي أرغب في خوض أوار التّجربة الآن، دون هوادةٍ، ولا انتظار.

رغم ذلك، كان ردّ فعلي معه قاسيًا محبطًا، دفعتُه فانزلق، ولم أدعه

يستكمل، إنّما نَظْرَتُه بعثتْ فيّ إحساسًا بالتوّحد، أَشعرَني بأنّه محرومٌ مثلي، لم يطرأ على بالي يومًا أنْ أجد هذا الحرمان في أحدٍ غيري، كما لم أفعلْ شيئًا كي أعبّر عن مدى اشتهائي الكامن له، كانتْ ثمّة مسافةٌ بيننا لم تُطَأ وكأنّها أرض غير مأهولة بالعمار، تدفعني للتروّي.

مضت أيّامٌ عديدة، كنتُ لم أزل شاعرةً بالاشتهاء ولو لم يمسّ جسدي، ولم أفعل شيئًا في الحقيقة سوى الجلوسِ ليلًا على السّطح وقضاءِ النّهار ما بيْن النّوم والتفكير، وكان هو حنونًا، فلم يضغط عليّ.

«دُرّ»، النّائم مُجهدًا، لا يعرف أنّي طعنته.

الفراشات لم تزل تحوّم حول أزهار الفناء، استدرتُ قليلًا، بأناملَ مترددةٍ سحبتُ ضلفة الدّولاب الذي أحتفظ فيه بالمُهمل من الأدوات المُستعملة، ارتعشتُ، لكن رويدًا كانتْ أناملي تستشعر أيّ موضعٍ بالضبط عليها أنْ تقلّب فيه، سحبتُ لفافةَ تبغ مخبّأة، مِنْ تِلك التي يُدخّنها «دُرّ»، لفافة مختلسة للحظةِ تجربة مارقة، كانتْ مبطّطةً، عبثتُ فيها كي تستردّ شكلَها الأوليّ، ثمّ توقّفتُ بعض الشيء قبالة شفتَيّ، كنتُ أقلّب اللّفافةَ المركونةَ بيْن إصبعَيّ ربّما لأستوعب مظهرَها في يدي، وتنهّدتُ، أسبلت جفنَيّ عن اندساسها الرّقيق في فمي، سحبتُ نَفَسًا بلا نار لأتذوّق تجربتَها المستحدثة لعلّها تكون غيرَ مستحبة، كنتُ أخشى ألّا أستسيغ إحساسَها في فمي، ولكن لا بأس بها، الهواءُ الفارغ يبدو في جوف فمي وكأنّ به برودةً عذبة، تجاسرتُ وأمسكت عودَ الثّقاب، أشعلتُه وقرّبتُه مِنْ اللّفافة، التحم اللّهبُ بمقدمتها فكمّم ثغرَها، ثمّ نَفَس عميق، فاستنشاق، بعدها سعالٌ بدا لن يهدأ، غير

أنّ أيّـة تجربـةٍ بدايتهـا رهبـة وعـدم توافق، وهـذه التّجربـة بدايتها السّـعال الحـارق، ثـمّ التعـوّد الانطباعـي، ثـمّ نشـوة ليسـت تضاهيها نشـوة.

الأطيـافُ المتراقصـةُ يـزداد عددُهـا بأطيـافِ الدّخـان الخـارج تَـوًا مِـنْ الأسر، والخطـوط التي تحـدّد هويةَ المعالم أمـام عينَيّ بـدتْ مزدوجةً، وكأنّي انشـطرتُ لنِصفـيْن، وبـات لي زوجان مِنْ الأعـيْن، ابتلعتُ ريقـي المخلوطَ بالدّخـان، نـزل إلى جـوفي كراحـةٍ ناعمـةٍ تهدِهـد أسـاريري، تركـتُ نفْسي للسّـكون وللانبسـاط المدغـدِغ، وكأنّ خلايـا مُخّـي قـد غفـتْ عقِـب أرقٍ طويل.

يـا لهـذا الدّخان! تعـال نحوَ أنفي، نحـوَ عقلي، ضبّـبْ قليلًا هـذه الصّورَ المتلاحقـة عـلى ذهنـي، ودَعِ الزّمـنَ يتوقّـف، إنّـما؛ ألا تتمهّـل هـذه اللّفافة الأليفـة قبْـلَ أنْ تحترق كُليًـا؟ انطفاؤها يعنـي انطفاءَ هذه اللّحظـةِ الحميمة.

تخـدرتُ، كانـتْ أطـرافي تهـرع نحـو سـباتٍ لذيـذ، بيْـدَ أنّ عقـلي بـاقٍ يتصفّـح الصّـورَ المعلّقة في الأفكار في خمولٍ وتكاسُـل، ثـم يتثاقل، يلتحفني دفءٌ كغطـاءٍ مِـنْ صـوف، لأجدني هنـاك، في المسـافةِ الفاصلةِ بـيْن أنصافِ كلِّ الأشـياء، بـيْن نصـفِ يقظة، ونصـفِ حُلم.

(ر)

راح الخبرُ ينتشر أكثر فأكثر، وخبيئةُ الدّم صارتْ معلومةً لرجال «القبضية».

كان اللّيلُ يوغر في السّواد، والقرية توغر في الهدوء، وأمطار خفيفة تهبط مِنْ بِطانةِ السّماء؛ تنتشر على أسقف البيوت والأرض الترابية، وتنقر أجراسَ الخطر، ذلك عندما هبطت «القبضية».

ربّما لم يكن أحدٌ مستيقظًا غيري، في اللّيل تتأجّج كلّ الضّغائن، اللّيل هو السّتار الذي قد يُخفي خيبات النّهار، لكنّ اللّيل لا يرحم مع ذلك، والبّطشُ سيدور الآن في ثناياه.

يصكّ أذنيّ دبيبُ أقدام، ومِنْ بيْن قامات الشّجر القريبة تخرج أشباح، ترتّب أنفسها لمداهمة فجائية ماكرة، تتسلّل في حذر نحو بيوت الدّرب،

وتطوّقها محاصرة إيّاها.

يصطفّون حول بيوتنا، يكنسون بالسّياط المُتدليّة مِنْ أجنابهم مواضع سيرِهم، لم أدرِ كيف أصابني الخَرس؟

النّيام الذين لم يشعروا ببداية المأساة شرعوا في الاستيقاظ المفزوع على أصوات الطّرقات الحاسمة المتوالية، وأنا مضيتُ أنتفض في قهر، باب بيتنا يكاد يهوي تحت أياديهم، كلُّ الأبواب تضجّ بصفعات الأيادي الحمقاء، ترجّ الأذهان، يهرع «دُرّ» يفتح الباب، يحاول «روح» الخروج مِن بعدِه، فأحجزه بقدميّ.

يخرج الرّجال بسراويل نومهم وسط صرخات النّساء، التي ما إنْ تدكّ رأسَ رجلٍ ضربةٌ، حتّى تنكتم صرخة، فأخرى، فيساق الرّجالُ خارج البيوت، «دُرّ» يستنجد السّماءَ بنظرات عبثية.

اللّحظةُ التي يهجمون فيها، لحظة أنْ يبدو كلّ شيء متآمرًا، هي اللّحظة التي تسابق كلّ اللّحظات الأخرى لتفاجئنا.

في الحياةِ التفافات قدَرية، تُدهشنا أحيانًا، غير أنّها في الغالب- وفي نهاية المطاف- تجبرنا على الرّكوع استجداءً للرحمة، تُرَى أين ستستقر بنا الحال يا «دُرّ»؟

كارثةٌ تجاور مطلعَ فَجرٍ ضرير، ومِنْ حقلٍ بعيد كان زمّارٌ يهدينا اللّحنَ الحزين سهوًا، يرتّق بلحنه جروحَ المدى القريب، والنخيلُ يصغي، والزّروع تهيم من فرط الاكتواء، والرّجال مصطّفون بسراويلِهم في عجزٍ وفي ضعةٍ.

وحيث لا تستريح نفوسُ الرّجال، حيث توجد سائرُ الأوجاع، حُرمات البيوتِ أُعلِنت على الملأ، فهذه اللّيلة، سوف يُصبح البؤسُ بَطلًا أوحد، ربّما كان بَطلًا عشوائيًا، ككلّ أبطال الحكايات المريرة، في النّهاية بات البؤس ذاته حارسًا مُختارًا لقريةٍ يعيش بيْن أطلالها المتحسّرون.

الزمّارُ تعلو نغمته، والنفوسُ يهبط استقرارها أكثرَ فأكثر، الحقلُ البعيد لم يساوره ترفُ حقولِنا التي واراها طين الخزي، وإذا بالزمّارِ يدرك اطمئنانَه عن طريق نفْخ غابِه، فإنّما نحن أدركنا لوعتَنا عن طريق نفخ كرامتنا.

مطرٌ خفيف يتأسّى على حالنا مِنْ السّماء، يطرق عتباتِ البيوت ويمنح الصباحَ الآتي مواساةً خرساء.

نظَّفَ المطرُ أحشاءَ القرية مِنْ أوساخ اللّيل، بدا كلّ شيء - تلك اللّيلة- مُفجِعًا، لا النّاس اعتادت المطرَ، ولا البيوت مهيّأة له، فبدت البيوتُ ذاتها منكوبة، ولم يعد يُسمَع صوت حشرات اللّيل التي تقطن حواشي القرية، وبدا المطر القديم قد أغفل - عفوًا - غسْلَ قلوبِ البشر آنذاك، هذا المطر الذي جاء منْذ زمنٍ بعنفوانه ودمّر بيوتًا، ودبّب طرقات القرية، التي لم تستعد عافيتَها بعْد.

الآنَ؛ هل يُمكن للمطرِ أنْ يغسل القلوب؟ لكنّ المطرَ -الذي تتفتّق عنه سماءٌ بعيدة- يشاركنا التحسّر، علينا أنْ ندع المطرَ يتسلّل إلى دواخلنا، عسى أنْ تثمر عن حيلةٍ لتقبّل العاصفة التي ستهبّ، الآن لا نملك غير الرّجاء.

نتفقّد وجوهَ الرّجال، وأحدُهم راح يعوي كجروٍ مريض، ويلعق التّراب، ويصرخ لرجال «القبضية»: لا أعرف شيئًا.. كنتُ على سفرٍ. كان يبكي مثل طفلٍ تائهٍ، أمّا بقيّتهم فرفعوا رؤوسَهم لأعلى، يخاطبون الرّب، في انتظار قدَرٍ معلوم، وقوة «القبضية» تحاوط بيوتنا أكثر فأكثر، يدبّون الأرضَ بخطواتهم المهدِّدة.

والزمّارُ يُرسل للأجواء ألحانَه..

اقتحموا البيوتَ، لم يبالوا بحُرمتنا، شكّلوا دوائرَ حول الرّجال، خشيةَ اعتراضٍ أحمق، لم يدركوا بعد أنّ ميزة الاعتراض نفسها لاذت بالفرار، ولم يبقَ سوى الخوف، الخوف الحقيقي، الخوف بكامل معناه، وبكامل عنفوانه.

يقتحمون البيوتَ، فتصرخ النّساء، يمشّطون الغُرَف، ويقلبون ولا يعدلون، يمزّقون الوسائدَ والألحفة والأسِرَّة، يهشّمون الأبوابَ ويتلفون محتويات البيوت، يتلفون أنفسَنا، التّالفة سلفًا، بل ويُضرِمون النّارَ في الأحواش، وتَخرج البهائم، تخرج متّقدة، مفزوعة، تضرب حولها على غير هدى، وتنفذ نحو التِّرع القريبة، لتنجو بما تبقّى مِنْ لحمٍ على أجسادها، يُضرِمون النّارَ في الأحواش، وفي البيوت، تتطاير التفٌ إلى أعلى، سوداءَ، سوداء، قاتمة، تتطاير معها أفئدتنا، نتفًا نتفًا، تتّجه نحو السّماء، محترقة، متآكلة، واهنة.

يتصيّد الزمّارُ البعيد أشلاءَ قلوبِنا ليصنع لحنًا أكثر إيلامًا..

ليس ثمّةَ رَجلٌ قادر على التفوّه، يا لتجربة المستحيل، إنّها تجربةٌ غير مسبوقة، لا في قسوتها، ولا في رعبها، بقدر ما كانت غيرَ مسبوقةٍ في واقعيتها المريرة.

لا بأسَ أنْ تصمِتَ الآن أيّها الزمّار..

لم يتركوا رَجلًا، كبّلوهم جميعًا، والزّمار البعيد يستعذب المأساة، ويطوّع اللّحنَ أكثر.

ساد الظّلامُ، ككلّ شرٍّ مستحكم يسود، ساد الظّلامُ، وبدأ الرّجالُ يكشفون عن الخوف، بدأ بعضُهم ينهْنِه.

رصّوا الرّجالَ خارج البيوت كما قوالب الطّوب، ووُضعوا في الأصفاد، انكفأت العيون أرضًا، والأسئلة ردّها الضرب، كانتْ عيون رجال «القبضية» تتجوّل بيننا، محصّنة بالسّخط، والإجابات واضحة لا تحتمل الاستفسارات الغبيّة، وهل بعد فعلتكم شرّ؟ هكذا نطقت عينا أحدهم وهو يدور بيْن الرّجال شابكًا يديه خلف ظهره، يحمحم ويحدّق في وجوههم واحدًا واحدًا، وبعضُهم يقيّدون ما تبقّى مِنْ الرّجال، وبأمر جازم مِنْ كبيرِهم، لا يُمكن التردّد أمامه، أغلقت النّسوةُ الأبوابَ، وظللن يتلصّصنَ في ذعرٍ مِنْ وراء ثقوب الأبواب وشروخ النّوافذ.

واجهنا عراء اللّيل وعراء الذّهن في عدم توقّع، مضى كبيرُهم يمشي في بطء بيْن الصّفوف المغلّلة والرّجال المنكفئين على رُكبِهم وهو يمحّص النّظر، وأخذ يهمهم بصوت مسموع كما لو يحدّث نفسه:

- تُرى كيف استهنتم بنا؟ كيف دفن كبيرُكم، وهو رجلُنا، الجريمةَ بيديه؟

أخذ يلفّ حولهم قليلًا ونحن مشرئبة أعناقُنا نحوه، لم يتفوّه واحدٌ مِنْ الرّجال، لأنّ الكشف عمّا جرى، بالفعل - ولو هو أكبر مِنْ

التصديـق- كان محـضَ صدفـةٍ بائسـةٍ، فـنّ الصّدفـة أعـرق الفنـون إيلامًا! الصّدفـة وحدهـا تصنـع أقـدار الأمكنة، لـو يعرفون فقـط أنّها مجـرّد خبيئة انكشـفت وسرعـان مـا دُفنـتْ ثانية!

- قوموا.

ارتجفـتْ قلوبُنـا، كان صوتُـه قاطـعَ الرّهبة، وبأقـدام هلعة مسلسَـلة راح الرّجـالُ ينهضـون واحـدًا تلـو الآخر، وكبـيرُ «القبضيـة» يحكّ ذقنـه قائلًا:

- كيف أعاقبكم؟ كيف يُمكن أنْ نستخرج الفاعلَ مِنْ بينكم؟

ارتعـدَ الرّجـالُ، وأمر الكبيرُ النّسـاءَ بالخروج، للفُرجة عـلى رجالهنّ، وفي غمـرة مـا يحدث، بـاءت الألسـنة بخرسٍ حتمـيٍّ، كانـتْ العيـونُ الجاحظةُ فقـط هي التي تسـتنْكر.

حفيـفُ أوراق الشّـجر يضغم سـكون اللّيلِ ويواريه، ورجـالُ «القبضية» يخرجـون مقصّـات الحمـير، لجـزّ شـوارب الرّجـال، النّسـاء تشـاهد، وثلّة مِـنْ الأوجـاع في الجـوار، النّسـاء تشـاهد، لا جـدوى مِـنْ المنازعـة، ولـو حتّـى كان الاستسـلام منطقًا منبـوذًا، لكنّه رغم كلّ شيء هـو المنطق المُتاح.

يكابـد الرّجـالُ ضعفَهـم، وتنتفـي عنهـم هيبتُهـم، يحلقـون لهـم لحاهـم وشـواربهم بمقصّـات حمـير، كان «دُرّ» ينظـر لي وكنـتُ قـد بـدأتُ في الاشـتحان بالبغـض المطلـق، ولـذتُ بالصّمْـت، مثـلي مثْـل الجميـع، إنّـما العجـز مأسـاة، العجـز ذاتـه بحقيقتـه الجاحـدة وبكامـل هيئتـه، العجـز الكسـيح المسـيطر عـلى كافـة الحـواس والانفعـالات، لا تنظـر لي هكـذا يا «دُرّ»، أيّ جـدوى مِـنْ المنازعـة! أيّ جدوى! المنازعة في واقـع الأمر معناها

حشّ الشفاه عوضًا عن الشّوارب، إنْ كانتْ الشّوارب ثمنًا، فلتكن، إنّما أخشى أنْ يكون الثمن الأكبر باهظًا، وقد يجشّمنا ما هو أفدح.

هكذا وقفنا مغرقين في الصّمت، تتطاير نتف الشّوارب مِنْ حولنا كهوام سوداء في عتمة المصير.

هكذا وقفنا عاجزين، وأنصال الشّوارب واللُّحى المجزوزة تحوّم قربًا مِنْ أعيننا، بل تجاهد اختراقها، وصنع حسرة مِنْ الدّموع، صنع غمامة مِنْ ضبابٍ آسنٍ أمام الأبصار.

لم أفكّر كيف سوف ننظر في أعين رجالنا بعدها بقدر ما أخذتُ أفكّر أنّ العمى نفسه قد يصير طرحًا معقولًا ومواتيًا.

عشرات الرّجال صُمّت حلوقهم، وبات وحشُ «القبضية» لا يرتوي مِنْ إراقة كرامتهم، يحشّ مع الشّوارب فخرهم، ولم يكتفِ كبيرُهم بهذا العقاب، بل دبّرت رأسُه فكرةً أخرى، كأنّها قدّت مِنْ صمت المشهد ذاته، تناول سوطًا وألهبهم واحدًا بعْد الآخر، وكلّما كاد يُحجم، أغاظه سكوتهم فيُمعن في إيلامهم أكثر، والدّمُ ينفجر مِنْ ظهورهم.

كانتْ العيونُ تصرخ ولو خرستْ الألسنة، لكنّها صرخات بائسة، لم يكن الوجع ماديًا الآن، كان اقتران الألم بفكرة الانكسار هو الأكثر وثوبًا مِنْ الأعين، السّياطُ تضرب، والفكرةُ الأكثر شرًّا وقبحًا تُولد، وحين بدا أنّ السّياط ارتوت، أرغمهم على الرّكوع ثانية، وصاح في واحدٍ مِنْ الرّجال:

- اختر لنفسِك اسمَ امرأة.

لا يـردّ عليـه، في عينيـه هلـع، وفي عيـون كلّ الرّجـال، لكنّ الكبـير ينزل عليـه بضربة حاسـمة مِـنْ سـوطه ويهتف مكـرّرًا:

- اختر.

ترتعـش شـفتا الرّجـل، ومِـنْ أعـين الرّجـال راحـت التسـاؤلات تنهمر علينـا، والطّيـورُ التـي تسـكن أعشاشـها مضـت تتذمّر وهـي تصأصيء في وهـن، بـدوا يتسـاءلون: لمـاذا كُتـب علينا الشّـقاء؟

كانـتْ نظرات النّسـاء تنصرف نحـوي، تتّهم ولدي فيما يحدث، سـمعتُ إحداهـنّ تتمتم في صـوتٍ كسّرته الدّموع:

- لولا الملعون ابنها ما انكشفتْ خبيئةُ الدّم.

كان يحـاول الخروج مِـنْ وراء الباب، تقهقرتُ للوراء خطوتيْن وسـحبتُ البـاب ناحيتـي، ثـمّ إذا مـا هممـتُ بالاسـتدارة، كان السّـوطُ يسـقط عـلى ظهـري، قذفنـي نحـو الجـدار، لم أعـرف هـلْ أبكـي أم أنهـض لأمسـك في رقبـة الرّجـل، لكنّي اضطـررتُ للصّمت، ورأيـتُ الدّموعَ في عينـي «دُرّ».

كانـتْ المـرّةُ الثّانيـةُ التـي يضربني أحدُهـم بالسّـوط، المرّة الوحيـدة التي ضُربـت فيهـا كانـتْ مِـنْ أبي، بسـبب لهـوي وعـدم اتّـزاني، كنـتُ أسـافر بخيـالي للعـوالم المُفتقدة مـع البنات صاحبـاتي، كان لم يزل فـؤادي بضًّا مليئًا بالحيـاة، وبداخـلي روح تنـزع على الـدّوام صـوب التّجارب الخلاّقـة، كنتُ ابنـة سـبع سـنوات عندما خرجـتُ في الصّبـح مع البنـات، تُغرينا التّسـلية، اختـلاس الأشـياء وإعادتهـا، مِنْ أجـل التّجربـة لا غير.

أذكـر ذلـك الصّبـاح الـذي خرجنـا فيـه لا نلـوي عـلى شيء، كانـت كلّ

مفـردة غافيـة، ميـاه التّرعة تسـير في خمـول، أغصـان الأشـجار تضجع على أعشـاش العصافـير، السّـماء أسـبلت جفونها وآوت لسُـباتٍ عميـق، لم يبق إلاّ بعـضٌ مِـنْ صريرِ حـشرات متفرّقـة، وكان جـرّارُ أحدهـم يلجأ لجانب أحـد الحقـول في اطمئنـان، ركبـتُ فوقـه ألهـو، ورحـت أهلّـل، فلحقـتْ بي البنـاتُ، لم يكـن ثمّـة وعـي نسـتشرف بـه مـآل الحماقـة، انكبّـت إحدانا تُجاهـد تشـغيل الجـرّار، بعزيمة طفلةٍ لا تُـدرك، وفجأة انطلـق، أخذ يصهل كفـرسٍ جريحـةٍ، وهـو يـدوس الـزّرع ويركض.

في مباغتـةِ الصّدفـة، تسـمّرنا جميعًا فوق سـطح الجـرّار، تركنـاه يمضي بنا في سرعـة جنونيـة، لسـنا نحتسـب أيّ خطـرٍ، والطّريـقُ تنحـدر، إلى سـفح التّرعـة وإلى المجهـول، تنحـدر، والجرّارُ يمضغ المسـافات في غـير روية ولا اتّـزان، كانـتْ الطّريـق تنـزل بنـا أكثـر فأكثـر، ولا شيء تلـك السّـاعة كان يمكنـه منـع القـدر، في سرعـة، وفي مجون، وثـب الجـرّارُ نحو متـن التّرعة، وبـدأ يغـوص ونغـوص معـه، راح يدنـو مِنْ الأعـماق ليس يكـترث، ومياه التّرعـة بـاردة، التّرعـة نفسـها غائـرة العمـق، ونحـن نعافـر ولكـن تلـك المعافـرة الواهنـة، التـي لـن تقيم قوانـا لأكثر مِـنْ مسـافة الهلع.

في غـير رفـق يكبّلنـا الجـرّارُ ويـودي بنـا نحـو الجـوف، ومِـنْ دون رفـق أيضًـا يضحّـي بواحـدة منّـا فـداء اللّهـو والتهـوّر واللّا احتسـاب.

ينـزل الرّجـلُ على رأسي بضربةٍ أخرى مِنْ سـوطِه، غاثـت الدّماءُ في محيطِ رأسي، وكفّـت التصـوّرات عـن المثـول، لم أكن أملـك أيّـة إرادة للمقاومة، بـات كلُّ شيءٍ أحمر، حتّـى الذّكريات.

لكـنْ «دُرّ» يسـتقيم، بـإرادةٍ مفاجِئـة، كانـتْ يـداه معصومتيْن مِـنْ الوراء

بأصفادٍ ثقيلة، وقدماه مكبّلتيْن في بأس، لكنّه مع ذلك وثبَ، انتزع الخوف مِنْ داخله واستعار بسالةً مؤقّتةً، وبفمه انقضّ على أذن الرّجل، فصرختُ مِنْ خوفي عليه، انقبض قلبي بينما كانتْ أسنانُه قد عزمت على أنْ تخرج بغنيمة مِنْ اللّحم الحيّ، وبدا لم يكن باقيًا على لحظةٍ في حياته، كأنّما وُصم بالخزي، وليس بعْد الخزي ذلٌّ، أطبق بأسنانه على أذن الرّجل، ونال منها جزءًا لا يصدّق، ثمّ مصمصَ شفتيه كأنّ مذاقَ الدمّ أشبه تلك السّاعة بمذاقِ الخلاص، مذاقُ الدّم كافٍ لردّ الأشياء إلى معانيها المسفوحة، كان «دُرّ» كأنّه البطل الذي لو ماتَ الآن، لماتَ في زهوة الفخْر.

استراحتْ أنفاسُه وهو يتلذّذ بمذاقِ الدمّ، ورجلُ «القبضية» سقطَ يتلوّى على الأرض، وسط دهشة بقيّة الرّجال، وقد تلجّم الجميعُ، في عينيّ بدتْ غبطةُ الدّنيا، وإنْ ظللتُ أصرخ، وكان الجنونُ قد بدأ ينطلق.

يسامرني بعينيه: صغيرتي، لم نزل على عهدِ المقاومة، سنموتُ في عزّ مقاومتنا، ألم تمسّدي رأسي وكان وجهي ملوّنًا بالخيبة؟ إنّنا خُلقنا كي نقاوم.

الرّجلُ يتلوّى على الأرض، وكبيرُ القرية يدخل المشهد مع رجالِه مرتاعًا، يصرخ في رجال «القبضية»:

- ماذا فعلتم؟ هل جُننتم؟ تستبيحون حرمَ قريتي؟!

كبيرُ «القبضية» يصيح فيه:

- وسيحدث معك هذا بالتمام.

- لعلّك جُننت بالفعْل!

لكنّهم يحاصرون كبيرَ القرْية، فتتلاقى الأياديَ الحانقة، والسّياطُ تضرب دون هدفٍ، والهلعُ يطيح، ويتعارك رجالُ «القبضية» مع رجالِ كبير القرية، كلُّ هذا والنّساءُ يولولنَ، إنْ كان رجالُ «القبضية» محميْين، فكبيرُ القرية يحميه رجالُه، وتحميه قريتُه، وتحميه سلطتُه ومكانتُه، حتّى ولو تنازعتْ السّلطات، ثمّ إنّ قوّات «القبضية» قليلة، سرعان ما سيفتك بها رجالُ كبير القرية، وها هو الهرجُ والمرجُ يرقصان بينهم، عاصفة مِنْ الغبارِ تحاوط مشهدَ المعركة، ويترامى رجالٌ هنا، ورجالٌ هناك، الدّماءُ تنفجر، وتحتدم المعركةُ شيئًا فشيئًا، وكبيرُ القريةِ يعاقر ركنًا قصيًّا، يتفرّج مِنْ بعيدٍ ولا كأنّها المعركة معركته، وبعْد أنْ يبدو على الرّجال تعبِ النّزاع، يستطيعون الوقوف على مسافةٍ آمنةٍ مِنْ هُدنة، يهدأ كلُّ شيء، ويضطرّ الكبيران إلى الجلوسِ للتّفاوض.

وبالطّبع، خشية أنْ تتشعّب المسألةُ وتستزيد «القبضية» بعددٍ أكبر مِنْ رجالها، كان الاتّفاقُ الذي أُبرِم أنْ تتمّ التضحية برجلٍ، مجرّد رجل كي يرسو كبيرُ القرية على برّ الأمان، مجرّد رجل وانتهى الأمرُ إلى هذا الحدّ.

بالطّبع، ولأنّه أبو الولد، وصاحبُ التمرّد، هذا الرّجلَ سيكون «دُرّ»، وستبدأ حكايةٌ أخرى بموتِه، كما انتهتْ كلُّ الحكايات البائدة.

لكن، تلك شريعةُ الحكايات، سرعان ما تسقط، مثْلما تسقط تواريخ البشر، وتحلّ الخرافةُ في كلّ موضعٍ.

(ت)

تقـوم قريتُنـا بـيْن ترعَتـيْنِ، عـلى جانـبِ سـهلٍ أخضر فيـه حقـولُ القمحِ ومـزارعُ البطاطـسِ، وبسـاتينُ الفواكه المختلفـة، ذي طبيعةٍ خلّابـة، تتدفّق مِـنْ مختلـفِ أجـزاء جوانب الجبـل الصّخريـة المُحيـط بِـه ينابيعُ ميـاهٍ عذبةٍ بـاردةٍ، وفي نهايتِـه؛ كان ثمّـة شـلالٌ يهـدر في رقّـة، يلفـت خريـرُ مياهـه الأنظـار، فيـكاد المرء يغوص فيـه بحثًا عن طـراوة في أوقات الحرّ الشّـديد.

عـلى حافّـةِ الشّـلال، كان «دُرّ» جالسًـا، لم يكـنْ قـد مـضى عـلى زواجِنـا أسـبوعٌ واحـدٌ، لكنّه أصرّ على القيـام بهذه الرّحلـة، كي تقـرّب الطّبيعةُ بيْن روحينـا - حسـب كلامـه - طالمـا خوفي منـه لم ينقـضِ بعْد.

هـزّ كتفيه وضحـك، أومأتُ برأسي وضحكـتُ مثْلَه، كان لسـاني مغلولًا حـدّ أنّي لم أسـتطع أنْ أبادلـه أيّ كلام، فقـطْ تفرّسـتُ في ملامحـه، بنصـفِ

عـين، أدهشـني هـذا التناسـق، كلّ تفاصيلِه شـبه مكتملـة، لا توجـد معالمٌ كبـيرة ولا صغـيرة، ولا يوجـد ملمحٌ مميـز، إنّـما بالمجمل كلّ ملامحه تسـبح في اتّسـاقٍ وطمأنينة.

لم أكُـن أخشـى القُـرب، كنـتُ متهيّبة لحظة لقاء جسـدينا ليـس أكثر، ظلّ يحـدّق فيّ مبتسـمًا، بمثْـل هـذه النّظـرة التـي لا تشـفّ إلّا عن حـبّ أصيل، قال:

- «أسـماء الرّب»، لا يُمكن تفسـير إحسـاسي بالتمام، أنتِ صغـيرة، وربّما أريـد فقـط أن أتقرّب إليـكِ، أريدُ أنْ أصبـح حبّك الأخير.

- لا يوجـد حـبٌّ أوّل وحـبٌّ أخير، الحبُّ إمّـا يحدث مرّة واحـدة، أو لا يحـدث أبدًا.

وزفـرتُ، كان الخجـلُ يعصـف بأعصـابي، فكنـتُ أرتعـش، إنْ كان ثمّـةَ صفـاءٌ في كلّ الوجـوه التـي مـرّت بي في حيـاتي، فهـو الصّفـاء ذاتـه خالصٌ لا تشـوبه شائبة.

ابتعَـدَ ببـصرِه عنّـي متحرّجًـا، بدا يهبنـي فرصةً أكـبرَ لتأمّلـه، أتطلّع دون اسـتحياء إلى نبـضٍ فـرّ مِـنْ جسـده نحـوي، نبـض يحمـل نجـوى ملهمـة، يسـبل جفنيـه قليـلًا ويركّـز في إشـعال لفافـة تبغ، يفشـل في عـدّة محاولات مـع أعـواد ثقـابٍ واهنـة، ثـم يرجع بظهـره للـوراء عندمـا تشـتعل اللّفافة وهـو يشـدّ النفَـس الأول مـوارَبَ العينـين مرتعـشَ الأهـداب، يعـود لي ببـصره في تأمّـلٍ مباغـت، يقتحـم خلايـا عينَـيّ فلا أشـبع.

الشـفاه منغمسـةٌ في إطبـاقٍ مـتردّد، غـيرَ أنّ عينيْنا يتخاطبـان بغير رقيب،

كان الزّمن يمرّ بي بسرعة ألف يوم، ولم يعُد الوقت ذا أهمية، لم أكن على درايةٍ بأنّ المساء قد غلّف السّماء، إلّا حين تسرّبت بعضُ الخيوط الواهية، والشّمسُ تترنّح مبتعدةً عن الأفق.

الآنَ، لم أعُد أذكر شيئًا، كان الماضي ومضاتٍ محيّرةً تنبض في ذهني، سرعان ما تفنى، حين أشعرُ بهذا الكمّ مِنْ الألم.

«دُرّ»، يكفي أنّنا عشنا معًا القليل مِنْ عمرينا، أليس كذلك؟ لا تنظر لي هكذا مودّعًا، كأنّك في حلمٍ بعيد، بل لعلّك كنتَ تستشرف مصيرنا.

كلّما حاولتُ رسمَ ملامحِه القديمة أخفقتُ، لم أعد بنفسِ المهارة في التذكّر ولا بنفس النَّهَم، عيناه فقط مِنْ بيْن آفاق الغيب كانتا تنظران لي، تحاولان استدعاءَ جميعِ الملامح الهاربة، تلك الملامح التي جاهدتُ في تشكيلها ثانية وبنفس براءتها- طيلة السّنوات الماضية وهو بعيد، وأفنيت مِنْ وقتي ومِنْ قدرتي على الاسترجاع الكثير، ربّما هذا الشّتات هو ما يناسب تمامًا حالتي الآن، تُرى أتختلط المصائرُ لهذه الدّرجة؟

أذكر أنّ كلّ الحبّ حدث بعْد المطر، حين كانتْ شوارعُ القرية في الأسفل هناك تجيش بأنهارٍ مِنْ الماء، كنّا ذات مساءٍ بارد، وكنتُ أنا مِنْ خلف زجاج الشّرفة أتأمّل المشهد شاردة، ودموعُ المطرِ تسيل منحدرةً فوق الزّجاج.

كلُّ الحبّ بدا فجأةً حدث، عندما استدار نحوي وقتَها، وأطلقَ نظراته الحانية إلى عينيّ.

خبّئ عينيك اللّتيْن تتوهّجان.

لوعتي يا حبيبي!

تتفرّع خيوطُ ضوءٍ مِنْ أمواج القمر، تنحدر نحوَنا، فأغزل بها ثوبًا رقراقًا له، نجدل أنفاسَنا معًا، تضطجع السّماءُ تحت وسادة القمر، وتستريح في فراشها الوثير، تترك لنا الدّنيا لنمارسها بكلّ حيّلِها ومباهجها، نتبادل الأحلامَ واحدًا بعْد الآخر، يقول:

- لو أنّ اللّحظات الحلوة تبقى!

أستنشقُ عبيرَ جسدِه الذي يَذرعُ روحي مِنْ أولها لآخرها، أطلع بعينيّ نحو البعيد، تحتويني انطلاقات كلّ العمر المأمولة، أرمقه وهو يداعب أنفي بإصبعه وبإصبعٍ آخر يحكّ جُرح ظهري، أقول وأنا أزفر زفرةً حارة:

- لا يوجد ما هو يقينيّ في الحياة، يُمكن أنْ نفلح في إبقاء اللّحظات الحلوة، ووارد، وارد أنْ...

ولم أُكمل؛ خشيتُ أنْ أجرح ملمسَ اللّحظة.

وفي كلّ مساءٍ كنتُ أجلس معه في الفناء، تتشبّع رئتانا برحيقِ الأزهار، يمهّد لنا القمرُ الذي في السّماءِ الانتقالَ ما بيْن عالميْن.

أفِر مِنْ ذكرى لأخرى، أوشِكُ أنْ أعدو وأنا أتنقّل كفراشةٍ حائرةٍ بين كلّ الأماكن التي جمعتني به، أبحثُ عن وجهه بين الوجوه، وجهه القديم الذي ألفتُه، أقف للحظات لاهثة وأنا أشمّ روائحَ الزّهور التي لا تتغير ولا يتبدّل الإحساس بها، تطفر مِنْ عينَيّ الدّموع، أراه طيفًا يحتويني تحت ظلال الشّجر.

تقـودني قدمـاي إلى كلّ الجلسـات التي جلسـناها معًـا داخل مُحيـط بيتنا، يخبـو بريـق كلّ التفاصيـل، تكتـسي السّـماءُ بلـونٍ أصفرَ شـاحبٍ، تتسـاقط أوراقُ الأشـجارِ فوقي أسَـفًا عليـه، كلّها مفردات تفتقده، أتمشّـى في ممرّات الذّاكـرة أكثـر، أشـعر وكأنّها تعـود بي إلى كلّ نقـاطِ بداياتنا.

أسمعه يقول:

- ألم نتعاهد على الخلود؟

أحـاول أنْ أهـربَ مِـنْ كلّ الذّكريـات عبثًـا، دائـماً تجرّني قدمـاي إلى كافّة المشـاهد واللّقاءات.

كيـف أهـرب؟ كيـف أصـارع كلّ تلك المشـاعر التـي تجثم عـلى فؤادي؟ كنتُ أسـأل نفسي في دهشـة:

- كيف سمحتُ لهم بأنْ يأخذوه مِنّي بهذه البساطة؟

كـم وددتُ لـو أُشـهِر السّـلاحَ مـرّةً ثانيـةً في وجـه هـذا العـالم المتآمر، كما كنـتُ دومًـا، متمـرّدةً عَصيّـةً، لـو أواجِـه سـائر التحديـات القائمـة ببـأسٍ وتحمّـل، أحـترق بنـارِ فقـدِه وأنـا أسـأل نفسي:

- لو أنّي فقطْ أعرف لي نهاية! لو يختفي عذابي إلى الأبد!

عندمـا قـرّروا الاتّفـاقَ بالتضحيـة، اقتـادوا «دُرّ» أمـام كلّ نـاسِ القرْية، بالطّبـع كان التـأسّي صامتًـا مدفونًا في النّفـوس، لأنّهم نجـوا، وكان الحُكم عليـه أنْ يُرجـم حتّـى المـوت، أولًا لاعتدائِـه على أحـد رجـال «القبضية»، ثـمّ كـي يُغلق موضـوع خبيئـة الـدّم للأبد.

بـدتْ نظـرات تواسـيني، وبـدتْ أخـرى تحمّلنـي الذّنب، خلـف رجال

«القبضية» خرجنا، حملتُ ولدي على ظهري ولم تكن قدماي سائرتيْن، كانتْ روحي تتقدّم «دُرّ»، وكان النّهارُ دميمًا، من حولي تنحني عليّ أفرعُ الشّجر، تلامس سطحَ رأسي ثمّ تعاود الانفراط، والمدى أشبَه بطوقٍ خانِق لا حِلّ له.

كانتْ جماعات مِنْ النّاس يسيرون خلف موكب الهلاك، لم يُجادل أحد، ولم تشفع لزوجي صحبةُ رجل، كلّهم تركوه لمشيئةٍ قهريّة، كلّهم ضحّوا به لأجل أنفسِهم، رُحنا نسير وبلغنا أطرافَ القرية.

سرتُ وراء «دُرّ» في دربٍ طويلٍ مُقبِض، وبدا يطمس معالمه ضبابٌ، ينتهي ببابٍ حديدي مُوصد، فتحوا الباب على عجلٍ، كأنّهم يريدون دفعه إلى الحتف على شوقٍ، ويستعجلون هلاكَه، ألهذه الدّرجة سترتاح قريتُكم أيّها البُغاة؟

كان كبيرُ القرْية يفرك لحيته المخضّلة بالبياض في شرود، ويرميني بنظرةٍ محيّرة، لا هي نظرة اعتذار، ولا هي نظرة رضا، ولا حتّى نظرة أسف.

صرّ البابُ وهو ينفتح في بطءٍ، فبدا أمامنا جميعًا فناء واسع مسوّر بأشجار الزّيتون، خفّ بصري نحو حفرةِ الرّجم، كانتْ حفرةً متطرّفةً على يسار الفناء.

بدوتُ كأنّي مستسلمةٌ لقدرٍ غريب، لم أكن خائفة، فانصرفتُ إلى ضحكٍ مشوب بالتوتّر، نظر لي بعضُهم في عجبٍ وبدوا أدركوا أنّ نوبة الهلع على زوجي تحوّلت إلى نوبة خرف، ونظر لي آخرون في غيظٍ، كأنّما وصلهم إحساسي باحتقارهم، أمّا كبيرُ القرية، فاستدار برأسِه عنّي مستخفًّا .

بعضُ رجال «القبضية» متحمّسون لاقتراف لذّةٍ جديدة، والبعضُ سيفعلها لأجل العادة الفريدة ليس أكثر، يمرّ «دُرّ» أمام أعينهم كفداءٍ مُجسّد يسير على قدمين.

حاول «روح» الذي يحبو جواري انتشال قدميه ويديه مِنْ لزوجة التراب، لكنّه لم يفلح، كان الأفقُ مترهّلاً كرجلٍ عجوزٍ يحتضر.

كثيرًا ما يُخطئ، وفِي اليوم الذي يفعل فيه «دُرّ» الصّوابَ، يرجمونه.

يجرجرونه إلى حفرةِ الرّجم، والذّكريات مِنْ خلفي تتابع وتنهمر، بكاؤك يا «رُوح» لم يعُد يفيد، ولا قهري، ولا رجائي، كيف لي أنْ أؤمن هذا الإيمان المُطلق بالرّب، اليوم، في هذه اللّحظة؟ كيف أرجوه أن يساندنا؟

كم أشعر أنّ الموت لحظة يُمكن أنْ تتمدّد لتصبح أسطورةً حيّةً قد يُنشأ لها حياة مِنْ جديد! قبْل ذلك رأيتُ الموتَ قادمًا مِنْ حشايا الغد، ولم أُفزع، كأنّي أنتظره، أتهيّأ له، بالأدق؛ سأستدعيه لن يدعوني، سأمنحه نفسي دون مساومة، لكنّ الموتَ الذي أصبو إليه لا يأتي غير مرّة في العُمر، موت دقيق، حافل بالمُنى، هذا الموت ليس يأتي متى أشاء، بل تخلقه الصّدفة، كانحراف في مجرى الزّمن، كتكوينٍ جديد، تمامًا كمعجزاتِ زمن اندثر، يأتي لمرّةٍ فريدة في تواريخ البشر.

لكن الموت جيء به إليك يا «دُرّ»رغمًا عنك.

يربطونه بالأصفاد الصّدئة مِنْ يدين وقدمين، سوف يحاصرونه وسوف تنزل أياديهم بالحجارة عليه الآن، لكنّي قد أتخيّل قبْل لحظة

رجمه أنّه فرّ مِنْ حصارِ الموت، سأتخيّل أنّه قد يعود ليُمارس كلّ يومٍ نفسَ الأفعال المحبّبة، الأفعال الطّائشة، الأفعال الرّزينة، سيُجابه الدّنيا والزّحام والضّجيج في عزّة، سيضربني ثمّ يلاطفني مسترضيًا، إنّما ليكن حرًّا ولو ليومٍ أخير، أراه فيه ثمّ لينقضِ كلّ شيء مِنْ بعْد، هلْ سأعود لأستيقظ كلّ صباحٍ على ذات الأصوات إيّاها، إلّا صوته؟ على نفس الدّبيب، على كثرة الجلبة في الشّوارع، على حياة البشر، وهو ميّت؟ سيسألني أحدُهم بعد سنوات: هلْ مِنْ جديدٍ؟ سأبتسم في غلٍّ وأقول: وهلْ ثمّة جديد في بلاد القهر والتغريب؟ لعلّي وحدي لستُ أعرف معنى الجديد، حتمًا ثمّة جديد تحت شمس هذه البلاد، حتمًا سيُولد يومًا بطل، أو مخلّص، سيُبعث نبيٌّ مِنْ روح «دُرّ» رغم الضلال، وقد تُولد نبيّة، وحتمًا ستثور الطّبيعة لتقوم قيامتنا. سيسألني أحدُهم: كيف ماتَ زوجُك؟ سأردّ: ماتَ وهو يكابد إنقاذَ ما تبقّى منْكم.

يهمس لي وهم يجرجرونه أمامي:

- ليس مِنْ ثمّة طارئ يدعوكِ للبكاء يا «أسماء الرّب»، أنا منصرفٌ فقط إلى عالمٍ آخر، لعلّه بديلٌ عن قبح هذا العالم، سنلتقي هناك، وفي العموم ليس مِنْ ثمّة طارئ يُمكنه أن يباغتنا، إنّه القدر ليس أكثر.

جرّوه كالبهيمة، ورحتُ أمسح الأرضَ بدموعي، ما الذي يُمكن أنْ تقدّمه لي يا رب في ظلّ كلّ تلك المسافات الهائلة التي تقف حائلًا بيننا؟

النّاسُ أشباحٌ، والتصّورات عن العالم قاسية، لا يُمكن أنْ يمنحنا العالمُ تصوّرًا مغايرًا، العالمُ هو العالم، فمنذ أرضٍ لا تشرب الدّم السّفاح، لأرضٍ أنجبت الخطيئة والضّلال، تفقد أرضُ الرّب معناها إنْ كان أول

السّلف قد أنجبَ إثمًا داميًا.

تتوقّف الصّورة، والحسرةُ تمتدّ كجُرحٍ نافذ، ينهمر الرّجاءُ مِنْ كلّ نقطةِ دمّ في جسدي، بلا إجابة، بلا إجابة، الصّمْتُ والقهْرُ رفيقان، والعالم الآخر عبث، الشّرير له حقّ على أرضِ الرّب، لم يخطئ الشّريرُ، نبيُّنا الأوّل ضلّ، وضلّ العالمُ مِنْ بعْدِه.

قبضَ «روح» على ساقِ أبيه بيديه، كلبشَ فيهما، حاول أنْ ينحني ليلتقطه، لكنّ الأصفادَ حالتْ بينهما، رفعتُه إليه، قبّله، وكان «روح» ينظر له معتذرًا، كأنّه وهو الطّفل الصّغير يعرف كونه أصلَ المأساة.

سقطت حجارتُهم فيما قليل على جسدِك يا «دُرّ»، بعْد أنْ أودعوك الحفرةَ اللئيمةَ، أبعدوك عنّي يا «دُرّ»، قتلوك، تجاسروا عليك، يرجمونك وهم أبناءُ الشّرورِ كلّها، يفتكون بطيبتك وصبرك وإخلاصك لي، لولا غضبك لأجلي ما كنتَ ضحيتهم، أنت الرّجل وليس بعدك رجل، إنّما لا تنظر لي هكذا، ليس بيدي غير الأسى والبكاء.

كانتْ دماؤه قد تناثرت حول حوافِّ الحُفرة، لم يتوقّفوا إلّا حين تهتّك جسدُه كلّه، وخارت ذراعاه تمامًا، للحدّ الذي بدا به كأنّه قطعةُ جِلد ليّنة، حاولتُ تلمّسَ معالم الأشياء بلا جدوى، اختنقتُ بالبكاء، انفضّوا مِنْ حوله بعدما مات، وتركوني أُصرِف لوعتي بأنْ اقترب مِنْ جثمانه، شعرتُ بالجوع والاشتهاء واللّهو، وددتُ لو أمسكتُه مِنْ يدِه وطرنا، سأشتاق إلى حكاياته وعِشقه وشغفِه وقسوتِه.

وبدا كلُّ شيء كأنّه مُغرِق في فجاجتِه، وظهر أمامي ملاكُ الموت يصفّق، يتقافز على طول المدى، كنتُ أراقبه مِنْ خلال منفذٍ في روحي،

إنّما لا أظنّ أنّ واحدًا رأى ملاكَ الموتِ مثلما رأيتُه، كان واقفًا فوق سنِّ الجبل في ذلك النّهار الغاضب، ككتلةٍ مِنْ دُخان، ورذاذُ ضحكاته يتناثر فوقي دَمًا.

التقطتُ حفنةً مِنْ تراب وغمستُ فيها جروحَ «دُرّ»، الذي همَد تمامًا، وكانتْ عيناه تنظران للأفقِ البعيدِ خابيتيْن، صرختُ، طاحَ برأسي الألمُ، هرولتُ أركض، بدوتُ متخبّطةً فاقدَةَ البّصر، وأنا أركضُ وأركض، وأنكبّ على وجهي ثمّ أستقيم معاودة الرّكض داخل تفرّعات الشّوارع، ثمّ والرّيحُ تأتي مِنْ وراء الجبل البعيد طائشةً رحتُ أصرخ: هل مات حقًّا؟ أين ذهب؟

لكنْ لم يعُد هناك «دُرّ».

أستصرخ الأملَ فيما أفنته الظّروفُ الغادرةُ، «دُرّ»، لا يسمعني «دُرّ»، أجتاز مسافاتٍ مِنْ ألمٍ ومِنْ سخونة، لا أدري إنْ كنتُ أفقتُ أم معلّقة لم أزل في سطوة المشهدِ البائس؟ و«دُرّ» ودّعني للأبد، كيف أستبقيك يا حزني الجريح؟ تاهت منّا الطّرق إذًا، أليس كذلك؟ مَنْ تآمرَ أولًا؟ الزّمن! القدَر! أم كلّ أوجاعنا!

لا أنا ولا أنت يا «دُرّ» كان يُمكننا أنْ نرجئ وقوعَ المأساة، ونفاذ القدر، كلّما تذكّرتُ رائحتَك أغمضتُ عينيّ أشمّم في عذابات الماضي.

كلعبةٍ عبثيةٍ، نُعيد ترتيب أرواحِنا المُبعْثَرة، لكن لا اللّعبة تريد أنْ تنتهي إلى شكلٍ، ولا القِطعَ ترتّبت.

لا بأس أنْ نبكي ماضينا، ولكن متى سيتوقّف البكاءُ يا «دُرّ»، يا أوجاعي الأبدية؟

أعـدو مثْل طلقـةٍ لا تعرف الهوادة، تنحـدر بي الطّريقُ إلى رملٍ، وشـواهدِ قبـور، وأشـجارٍ عجـوز، ويـأسٍ ليس بعْـده يأسٌ، وسـط صخـورٍ، ومياهٍ، وضبـابٍ، وأفـقٍ متضمّـخ بالـدّم، أَشـهقُ ولا أشـهق، أواصـلُ الجَـرْي، أواصـلُ الدّهشـة، أواصـلُ كـوني مُقبِلة عـلى حدّ المـوت، ولا يبـارحَ ذهني نظـرات عينيـه التـي لمعـتْ في قلـبِ النّهـار، ولا مغيـب الشّـمسِ في عـزّ الوَهْـج، ولا انكـماش الدّنيـا بـيْن تأوهـاتٍ لا طائـلَ منهـا، وصرخـات لا تشـفع، في هـذا المـكان بدا المـوتُ يرتع في جـذل، كيف انقطعتْ عنّي سـبُلُ الاسـتدراك عـلى غـير عادتي؟

عُـدت بعْـد نهـارٍ لا يُنسـى، سـيُدفن «دُرّ» ويفـرغ الرّجـالُ مِـنْ أمـرِه، وسـأبكيه في مواسـم البـكاء كـما تبكـي النّسـاءُ رجالهـنّ.

حاولـتُ أنْ أتشـطّف مِـنْ كلّ الأوجـاع، دون جـدوى، كانـتْ ملامـحُ «دُرّ» لم تـزل تترقـرق أمـام عينيّ، سـحّت الدّموعُ منّـي، تذكّرتُـه عندما كنّا نندمـج كلّ يـوم، نتكلّـم، يرفعنا الغـرامُ فنجلس على عرش في سـماء لا تُرى لبـشر، ورحـتُ أسـأل نفسي: لمـاذا تركتُـه للمـوتِ وحيـدًا؟ أمـا كان لي أنْ أرافقـه كـي يعـرف عن تمـام إخـلاصي له؟

«دُرّ»؛ لا بـأس، رغـم أنّ جُرحـي بـات غائـرًا كخنـدقٍ مشـقوقٍ في بطن الأرض، منْـذ رحلـتَ والضّبـابُ يسـكن عينـيّ، لم أعُـد أفهـم! عجيبة هي الأقـدار التـي تنزفنـا جُرحًـا بعْد جرح! كنّـا نرى الأقـدارَ معًا، اليوم أشـعرُ بالـلاشيء، كأنّي أزليـة عُـدت لبدايـة خلقـي، حـين لم يكن للإنسـانِ مأوى غـير إضافـة مجازيـة في خرافـة، أشـعرُ أنّي فقـدْتُ المـأوى، ومِـنْ هنـا بدأتْ رحلة الإنسـانيّة.

أسأل نفسي: ماذا لو حلّت السّعادةُ في حياتي بديلًا عنْ البؤس؟ تُرى يا «دُرّ» هلْ كان يُمكن للسّعادةِ أن تسكُن حياتي للأبد؟

ليتك استشرفتَ بؤسي فمنحتني حكمتك! أجلْ أنا بائسة، كنتَ ترى في عينيّ بؤسًا قادمًا، ولم تكنْ تدري، أليس كذلك؟ إنّما تلك مشيئةُ القدرِ، تلك كانتْ كلماتك لي، وكما أنّ لكلّ قدرٍ مشيئة، فلكلّ بؤس أسطورة.

سأظلّ بائسة يا «دُرّ»، الزّمنُ لا يعود للوراء فتتبدّل مشيئةُ القدرِ، بلْ يمضي للأمام، دومًا، ونمضي معه مجْبرين.

«دُرّ»، الآن أجلسُ على ضفّة التّرعة الكبيرة، أنا والموجُ خاملان، نستدفئ بحزنِ بعضنا الآخر، بلا ترتيب، بلا احتساب، لا أدري كيف يُمكن أنْ تصلك رسائلي وأنتَ على ضفّة أخرى مِنْ خيالي!

فمنْذ حلمٍ، حلمٍ واحد، رأيتُك فيما يرَى المحزونُ، كأنّك تصعد سلمًا ممتدًّا نحو السّماء، وتلوّح لي بيدٍ، وبالأخرى، تمسك نايًا، تعزف به مقطوعة نهايتي، فأيّ حزنٍ يا «دُرّ»! كان يُمكنني أنْ أتحوّل في لحظةٍ مبهرةٍ- طيرًا يحلّق في سربٍ مُهاجر حيث موطن الخلود، لكنّي في نفسِ اللّحظة- كنتُ أخاف أنْ تهاجر ذكرياتي لموطنٍ آخر، فلا أجدك، ظننتُ أنّ شراكة الأرواح أعمق يا «دُرّ»، شراكتها أبدية، وكم ظننتُ أنّنا انسلخنا مِنْ هذا العالم، وهمنا روحيْن أبديتيْن، كم كنتَ سندًا لي! لماذا رحلت؟ تُرى، إذا ما التقينا قدرًا، ثانيةً، ككلّ المصادفات التي يُمكن أنْ تخلقها الذّكريات، كيف ستكون ملامحُك؟ أنتَ على ضفّة غادرها الحُلم، وأنا على ضفّة تستهلكها اللّعنات، فكم بيننا؟!

مـا أشـبهك بالحُلم! لسـتُ قادرةً على جعـل الحلم حقيقـة، ولا قادرة على ألّا أسـتيقظ منـك، هـل كان يُمكـن أن أجعل الحلـم، والذّكـرى، والبراءة، تفاصيلَ تسـكنني، لا أسـكنُها فحسب!

عندمـا أنظـرُ في المـرآةِ أراك، لم أزلْ أفعَـل، ملامحـي تتحـوّل لتصبـح ملامحَـك، تخيّـل يـا «دُرّ»، كانـتْ روحانـا جاهزتـيْن لقدسـية الخلـود، فلـمّا اسـتعدّتُ رُوحـي، فارقتنـي.

حينـما غابـتْ تأمّلاتُـك، وانقطـعَ همسُـك لي، أصبـحَ الكـونُ مجـرّد خواءٍ تـامّ، ظللـتُ أهتف لـك: تعـال.. أفتقـدُك قـدرَ الأبد.

الأرضُ للبؤساء أمثالي، أمّا الكونُ كلّه فلكْ، لماذا رحلت؟

لمـاذا تركتنـي قُبيـل المغربيّـة؟ فهـا هنـا على ضفّـة التّرعـة تنزف الشّـمسُ ألوانَهـا فـوق قلبـي المتهرّئ، ويهـدأ المـوجُ الحزيـنُ إذ أداعبه بقدميّ، لسـتُ أحفـل باللّعنـات، ثمّـة نـورٌ يـا «دُرّ» اختُلـس منّـي ذات غـدرٍ، يـومَ كان الظّـلامُ، وثمّـة معنـى ليـس يُقـال إلّا لـك، أجـلْ يـا «دُرّ»، ليـت الأحـلام تُعـاش للثمالـة، أو ليـت نُدركهـا كي نسـتفيق.

لقد تركتني قُبيل مغربيّة لطّخَ فيها نزيفُ الشّمسِ إيماني.

رسـالتي أشـبه بفضّ الحكايـة، كان يُمكـن أنْ يتحوّل رثاءُ نفـسي إلى رثاءِ هـذا العـالم القبيـح بأكمله، لولا أنّي لسـتُ أملـك إلّا نفـسي، ولا أملك مِنْ العـالم شـيئًا غـير الألم، رغـم ذلك يـراني الآخـرون جالبـة اللّعنـة! لا لشيء سـوى أنّهـم يرونني بأعينهـم الخاوية مِـنْ ابتكار المشـاهد، التـي لا يُمكنها أن تسـتشرف مـدى الحـسرة التي نمـتْ في قلبي.

يـومَ غِبـت، كان الضّيـاعُ، كان اللّيـلُ، وكان الـبردُ، شـوّهتْ الحيـاةُ كلّ الـذي بإمكانِها تشـويهه مِنْ أحلامـي، لكنّي لا أزال في حاجـةٍ إليك، خاصة في هـذا المنعطـف، لـن يكـون متاحًـا أنْ أنقـل لحلمـي عـدوى القُبـح، على العكـس، لعـلّي سـأختلس شـيئًا مِـنْ جمـال رُوحـك في الحلـم، وإنْ بـدت أرواحُ العـالم أقبـح مِـنْ أنْ تُحْتمل.

يـا ربّ، في غيبِـك، كان لي حبيـبٌ، يجنح نحـو الرّيح مثْل يمامـةٍ، إنْ همسَ تـدور الأرضُ، وإنْ صمـتَ لا يكـفّ الغيـبُ عن الإلغاز، حبيـب مثْله مثْل الأيائـلِ في العذوبـة، وفي الهـوى مثْـل كـون سرمـدي، يـا ربّ كان لي -مِنْ ذي قبْـل- وعـدٌ بالخلـود، فلم تعُد الوعـود محتملـة، لم يعُد الفضـاءُ معتمرًا بالتسـاؤلات، كان يـا ربّي رجلٌ، ولي في الأمنيات أسـوةٌ، كان يـا ربّي رجلٌ، التقيتُـه ذات صدفـةٍ، ومنْـذ اليوم، سـوف أدور، أبحث كبائسـةٍ، عنْ صدفةٍ جديدة.

عُد يا «دُرّ»، والعنهم، مثْلما لعنوك.

كان ولدي ينمو مع الزّمن، وكان كلّما نما ردّدتُ على مسامعِه:

- ومهـما أخـبروك مِـنْ الحكايـات يـا ولـدي، فاعْرف دومًـا أنّ أبـاك هو بطـلُ حكايتِهم.

(هـ)

هـل يُمكـن أنْ نـرى الـرّبَ عبر ثقـب نافـذةٍ ضيّقـةٍ يحاصرهـا في الخارجِ العـواء والجنـون والرّيـح والهزائـم واللّعنات؟!

يطول الانتظارُ، بطولِ القهْر، يمتدّ إلى ما لا نهاية.

«دُرّ» نائـمٌ ولـن يوقظـه شيء، أسـتعين ببعـضِ الجّـارات ممّـن لهـنّ مكانة وصداقـة عنـدي، نجتمـع في الفنـاء، توقـد إحداهنّ النّـار، أسـحبُ الجروَ مِـنْ داخـلِ الفُـرن، أكتّفـه وأضـع ركبتي فوق رأسِـه، هـذا طقسٌ لابـدّ أنْ أبـاشره بيـديّ هاتيْن.

بسـكّينٍ مسـنونةٍ أسـقطُ عـلى رقبتِـه، ينفجر الـدّم، فتشـيح النّسـاءُ النّظر متقزّزات.

كـما أخبرتنـي «العرّافـةُ»، ينبغـي أنْ أطهو الجـروَ في دمِه، وأسـلخُه أولًا،

فسامحني أيّها الجرو الصّغير، استبحتُ روحَك كي تُولد لي روح.

عندما فقد الجرو أنفاسَه، نزعتُ جلدَه، كنتُ قد أفرغتُ دمّه في إناء، وبمجرّد أنْ سخن فوق النّار أغرقتُه فيه، وانتظرتُ إلى أنْ يستوي لحمُه.

لا يكاد الدّمُ يغْلي، بل كأنّه كلّما يغْلي تجلّطَ، ونفثَ فقاعات خاملة، والجرو يتقلّب في بطءٍ داخل الإناء.

أعلى البيتِ غيّةُ حمامٍ مترّبة، والشّمسُ تُطفئ لمعانَها في أعيْنِنا، الحمامُ بدا تنبّأ بالقادم، فرفرفَ حول الغيّةِ مفزوعًا، لم أكنْ أرنو إلى شيءٍ غير الخلاص مِنْ طموحي لإنجاب ولدٍ كامل، كان لابدّ مِنْ الخلاص، ليس مِنْ طريقٍ غيره، ولو عبر الإثم.

جلستْ النّسوةُ على الأرضِ، وظهورهنّ مسنودة على جدرانِ السّور، ريثْما ينضج لحمُ الجرو، أتأمّل وجوههنّ الجامدة، إحداهنّ قالتْ:

- أخشى عليكِ يا «أسماء الرّب» مِنْ الجنون.

فقلتُ في هدوء:

- أخشى على نفسي مِنْ التعقّل.

أخذتُ أُحدّق برجاءٍ في السّماء، شعرتُ بعطشٍ، وشعرتُ بجوعٍ، وسمعتُ صوت أمّي التي استطابتْ نعيمَ العالم الآخر، لكنّي شعرتُ أيضًا بمدى سخطِها عليّ، فعُدت ببصري عن السّماءِ نحو النّسوة الجالسات.

الرّائحةُ لا تُطاق، والدُّخان لونُه غامق، ابتعدتُ وركنتُ إلى جدارٍ بعيدٍ، يخفُت صوت غليانِ الدّم شيئًا فشيئًا، تُرى بأيّ شهيّة يُمكن أنْ

ألتهم جروًا؟ تخيّلتُ كلّ الوسائل، إلّا هذه.

أمدّد ساقيّ، لا أريدُ التفكيرَ في شيءٍ غير استكمالِ الطّقس، ثمّ سأنام بعدها، سأنام ولا يُشبعني زمنٌ، سأنام إلى نهايةِ المصير، يا ربّي كلّ هذا الصّخب سينتهي بعْد قليل، وستخرج مِنْ حصار القدر روح، سيولد لي في الغدِ حُلمٌ تُقتُ إليه.

كان النّهارُ قد بدأ ينتصف، والنّسوة الجالسات استغرقنَ في أحاديث جانبية خافتة، مِنْ فرط السّأم، والموقدُ المُشتعلُ كلّما بدأ يخبو أشعلتُ حطبَه، والدّمُ داخل الإناء يتجمّد مِنْ الفوران، والرّائحةُ تنتشر حتّى تكاد تصل إلى أطرافِ القرية.

مِنْ بطنِ السّماء، يتقافز أولادٌ، إنّهم أولادي الذين يعيشون في قلب هذا الفناء، يرفرفون في الأعلى، يمسكون في أياديهم المزاميرَ، ثمّ يدنو أحدُهم يحوّط جسمي، يرنّم، ويطوّف حولي، بدا يُبشّرني. وأوشك أنْ ألمح طيفًا صغيرًا يخرج مِنْ جوف الإناء، طيفًا نورانيًا، يلوّح لي، ثمّ بعْد لحظة، تهتف امرأة:

- «أسماء الرّب»، كاد يحترق الإناء!

أُطفئ الموقدَ، ثمّ أحملُ الإناءَ بخرقةٍ مبتلّة، أطلّ بداخلِه، تتقلّص ملامحي وأشيح بوجهي مَنْ ثُقلِ الرّائحة، أهمهم:

- هل نضج الجرو كفاية؟

تردّ واحدة:

- وشَبع نضجًا.

أضع الإناءَ أرضًا، في أحسنِ الأحوال ستصيبني الحُمّى ويصيبني الإسهالُ اليوم، لكنّي مُجبَرة.

أنتظرُ لفتورِ الدّم، ولا يكاد يهدأ فورانُه حتّى أصبّ منه القليل في كوبٍ، أحاول ارتشافَه، لكنّ شهيّتي تغيم، تربّت إحداهنّ على كتفي، لا أعرف هلْ تواسيني أم تتهكّم؟ لا بأس، سأفقد حواسي هذه اللّحظة، لقد كنتُ على استعدادٍ لفقد عمر كامل مِنْ أجل الولد، ألا يكفي أنّي فقدتُ شرفًا وبراءةً مِنْ أجل أن يأتي؟

في بطءٍ أرفع كوبَ الدّم إلى فمي، وبالكادِ أرتشفُ جرعةً، معدتي تتلبدّ مِنْ فورها، أرتشفُ جرعةً أخرى، فثالثة، ولا يوشك كوبُ الدّم أنْ يفرغ حتّى أصبّ واحدًا آخر، تتطلّع النّساءُ إلى بعضهنّ ثمّ إليّ في استنكارٍ، لكنّي جرعتُ الكوبَ الآخر دفعةً واحدةً، وقلتُ وأنا أمسح الدّم اللّزج الذي تكوّن حول شفتيّ:

- هذا كي يطمئن قلبي.

ساعدتني النّسوةُ على الجلوس أرضًا، تنهّدتُ في اشمئزازٍ وأنا مُقبِلة على الهمّ الأكبر، التهام لحم الجرو، كنتُ أحدّق إليه لا أصدّق نفسي، هل تبلغ بنا رغباتُنا هذا الحدّ مِنْ الانحراف؟

حين غادرتْ النّسوةُ، كانتْ الشّمسُ لم تزل متأبّطةً كتفِ السّماء، وكنتُ قد التهمتُ ما يُقارب نصفَ لحم الجرو، التهمتُه وكأنّي جوعانةٌ منْذ أمدٍ بعيد، لم يبدُ مذاقُه منفّرًا، على العكس، مذاقُه كمذاقِ جميع اللّحوم التي يُمكن أنْ يأكلها البشر، لا فرقَ بيْن لحم جرو ولحم ضأن، كان الغريبُ في الأمرِ أنّ النّسوة اللواتي استعنتُ بهنّ لم يقدّمنَ شيئًا ذا

جدوى، جلسنَ يتجاذبْنَ أطرافَ الحديث، وطِيح بمعظم أسرار البيوت في جلسةٍ قصيرة كهذه، أما كان لي أنْ أمارس شعائري وحدي؟ أعرف أنّ واحدةً فيهنّ على الأقلّ، ولو واحدة، سوف تفشي سرّ بطني، كنتُ على استعداد لتحمّل هذا، غير أنّي لم أكن على استعداد لأنْ أهتك نواميس الكون في سريّة، إنّها رهبةُ التّجربة، كان لابدّ أنْ تشاركني بعضُ النّسوة، بعضهنّ، البعضُ في قريتنا يشمل الكلّ، كانتْ الاستعانة ببعضهنّ أشبه بتوريطِ الجميع في أمري، هكذا كان يُمكن أنْ أُحجّم سيل انتقاداتهنّ وتعليقاتهنّ، بالأحرى شكوكهنّ، أُحجّمه ولو قليلًا.

وسرْعان ما دلفتُ إلى الغرفةِ، كان «دُرّ» نائمًا، بحذر تمدّدتُ جواره، لكنّه فتح عينيه وطالعني، لمسَ جبيني بأصابعِه، أمسكتُ يدَه وسحبتُها إليّ، ثمّ طوّقتُه، بدا أنّ بوحًا انحشرَ بداخلي، بُحّ صوتي، فضمّ رأسي على صدرِه وقبّلها، نعم يا «دُرّ»، اجتزتُ كلّ ما لا يُمكنك تخيّله مِنْ هزائمٍ لأجل هذا الولد.

كانتْ لم تزل تفوح منّي رائحةُ الطّعام المُستباح، ورائحةٌ أخرى أيضًا، رائحةُ الذّنب الذي لو شعر به «دُرّ» لخرّ على الأرض مغدورًا به، لكنّه لن يستطيع تحديد رائحة الذّنبِ ولا نوعه.

في ظُلمة الغرفة كان بداخلي ظلامٌ آخر تُسمع فيه دقّات قلبي المُضطربة، كان قلبي يدقّ بسرعة، ربّما أكبر بكثير مِنْ سرعة إنسانٍ يخلد لإنسانٍ آخر، مهما خلدتُ إليك يا «دُرّ» ستظلّ جوارحي موصومة.

عندما بدأ يستعيدَ وعيَه، كنتُ أرى امتدادَ التساؤل مِنْ عينيه، مثْل خطٍّ واهنٍ مِنْ ضوءٍ يبرق في عتمةِ الظّلام، كنتُ أرى تساؤلَه، وبدا

يشعر بالأحمال التي تجثم على أنفاسي، لفّ البطّانية على جسديْنا، فحضنتُه بقوّة، وكان جسدي يرتعش رغم الدّفء، إنّ البرودة لا تدخل إلى جسدي، بل تخرج منه، ومِنْ عينيّ كانتْ الدّموعُ قد بدأت في النزول، سرعان ما تحوّلت إلى نشيجٍ خافتٍ، ثمّ نهنهة، ورغم ذلك لم يجرؤ «دُرّ» على الكلام، بلْ كلّما كانتْ تتسارع حدّةُ بكائي، لمّني في حضنِه، كان يفوقني حنوًا، وبعد أنْ تحوّل بكائي إلى خوارٍ متقطّعٍ، قال:

- لا أعرف كيف يُمكن أنْ أطمئِنكِ، لعلّي لا يجب أنْ أعرف في الأساس، إنّ الطمأنينة لن تأتي إلّا مِنك، لكنّي أعدِك بشيءٍ واحد؛ مهما جرَى سأسامحك.

أحنيتُ رأسي عليه، وأجهشتُ بالبكاء أكثر، علام تسامحني؟ هلْ استشعرت خطيّتي؟ مدّ يدَه ولمسَ شعري، قال:

- ألن تتوقّفي عن البكاء؟

وضحكَ ضحكةً قصيرةً، أحاول أنْ أتوقّف عن البكاء، لأجلِك فقطْ، دون جدوى، إنّ البكاءَ في الأصل ليس لفقدي، البكاءُ لفقدِك لي، أنتَ فقدتني يا حبيبي عنْد عتبةِ الإثم، لم أستطعْ أنْ أخطو خطوةً للوراء، بلْ كلّما دنوتُ تورّطتُ، لكن للرّب قَدْرَيْن: قدر ما سيّر، وقدر ما خيّر.

أخذ يدي وضغط بها على قلبِه، قال بصوتٍ مخنوق:

- ما أبعد مواسم البكاء وها أنتِ تبكين على صدرِي! لا تبكي عليّ إلّا في الجنّانة يا «أسماء الرّب».

قلتُ:

- لا أبكي عليك يا «دُرّ»، إنّما أبكي عليّ.

- سينتهي كلّ هذا.

وأدرتُ له وجهي، أخذتُ يديه الاثنتيْن وأرحتُ رأسي عليهما، قال هذا بيقينٍ تام، طالما أكّد لي بيقينِه أنّ كلّ شيء سينتهي، كلّ ألم وكلّ حرمان.

بأناملي رحتُ أتحسّس وجهَه، أنا أحبّه، أحبّه لحدّ البكاء، تحسّستُ عينيه، فأنفه، فشفتيه، تركني أتحسّسُه وأسبلَ جفنيه، سقطتُ على فمِه بقبلةٍ، لكنّي لم أرتوِ، دُرتُ بلساني داخل فمِه، كان يشعر أنّ ما أفعله غريب عليّ، لكنّه في رضا منحني اللّحظة، كنتُ مُجهدَةً، بيد أنّ اشتهاءً دفعني للانقضاضِ عليه، لأوّل مرّة منْذ زواجنا أعتليه، ولأوّل مرّة أتأوّه هكذا، بداخلي شوقٌ مُباغت إليه لا يُمكن تفسيره، كان الضّوء المتسلّل مِنْ تحت الباب خافتًا، لا يكاد يضيء الغرفة، رغم هذا استوضحتُ ملامحَه المستكينة، كنتُ أميّز استعدادَه لشغفي الطّارئ، أرجعَ رأسَه إلى الوراءِ، وأفرطَ في إرضائي حدّ أنّه سلّمني نفسَه تمامًا، لا أعرف إلى متى ستظلّ وديعًا هكذا يا «دُرّ»؟

أحطتُه بذراعيّ كأنّه وديعةٌ أُمّنتُ عليها، وأرهفتُ السّمع إلى دقّات قلبِه، كنتُ جالسةً فوقه وكان ممدّدًا تحتي، سحبتُ جلبابَه وقبضتُ في شدّة على خبيئتِه المُشدودة مثْل رمحٍ ناشفٍ، كدتُ أغرس أظافري في العروقِ النّافرة، أهو اشتهاءُ الدّم؟ هلْ ستتبدّل شهيّتي؟ تحرّكتُ ببطءٍ في البداية، ثمّ قمتُ وجلستُ، وقمتُ وجلستُ، وارتدّتْ رأسي إلى الخلفِ لمّا اعتدتُ الوضْعَ، وانفتحَ فمي عن آخرِه، ولم أستطعْ كتمانَ

صراخي، وأنا أهبط بفمِي على شفتيه أعضّهما.

أمسكَ ذراعيّ وساعدني على الطّلوعِ والنّزولِ، واستمرّ يشدّ عليهما مِنْ نشوتِه، كان مستسلمًا للتّجربة التي لم نمارسها مِنْ قبْل، وكانتْ يداه قويتيْن منعتاني مِنْ السّقوط مِنْ فوقِه، إذ ترنّحتُ مِنْ سكرةِ الوضْعِ المقلوبِ، وكلّما كان يقتربَ مِنْ الإتيانِ تزداد ذراعاه اشتدادًا على ساعديّ، أحسستُ بصدرِه بعلو ويهبط، وأحسستُ بأنفاسِه تندفع في سرعةٍ، وأحسستُ به في لحظةٍ همد، فارتميتُ بدورِي هامدةً على صدرِه.

كان كلُّ شيء يوحي بأنّ الآثمةَ يُمكنها أنْ تزداد إثمًا، في لحظاتِ الاشتهاء.

(أ)

أيّامٌ قليلةٌ وسأحتفلُ بدخول ولدي عامه السّادس عشْر.

كثيرًا ما كان يقبع لا يبارحَ موضعَه جوار فُرن الخُبز، وكان لا يُبدي أيّ شعورٍ تجاه أيّة مسألةٍ، سواء كانتْ تستدعي الفرحةَ أو الحزنَ، يعني راح يضحك ملء فمه حين جرحتُ نفسي عرضًا بسكّينٍ حادّة وانفجرتْ منّي الدّماءُ، أغضبني، فزُمتُ في وجهِه، دنا منّي طوحني بساعدِه وهرول يقهقه.

غير أنّه كان، رغم شقاوتِه، وهو جالسٌ يتقاطر اللّعابُ مِنْ بيْن شفتيه، يجلسَ صامتًا، تحمل عيناه أسىً باطنًا، لا يُدرَك إلّا بالتّأمّل الفاحص، كأنّما ورّثتُه الأسى الذي حملتُه منْذ زمنٍ بعيدٍ، وغالبًا ما كان يعبثَ في حشايا الفُرن، على عادةٍ، ويستخرج مِنْ جوفها الرّمادَ النّاعم،

ليمسح به وجهه، ويتغبّر، ويهلّل كثيرًا وهو يدور بجسمِه أمام المرآةِ الممدودةِ بعرض جدار الغُرفةِ، ويجري على الشّجرةِ الكبيرةِ النّابتة في مُنتصف الفناء، يحضنها كأنّ بينهما عشقًا آسرًا.

عندما بدأ لسانُه ينفكّ، راحَ يقول أشياءً لم أكنْ أفهمُها، عنْ علاقتِه بأصدقاءٍ يزورونه، ويعلّمونه الكلام، بأطيافٍ تراوده ويسرحَ وراءها، عنْ أصواتٍ تهمس إليه مِنْ بعيدٍ، عنْ بنتٍ وقعَ في عشقِها.

تأتي النّساءُ يحكينَ لي إنّهنّ شاهدنه يجلسَ أمام التّرعةِ يناجي المياه، أو شاهدنَه نائمًا وسط غيطٍ مِنْ غيطان «البرسيم» بالسّاعات وفي عزّ صهدِ الشّمس، كنتُ بنفسي أراه متمدّدًا راشقًا عينيه في قلب عين الشّمسِ، كأنّه يستعذب حرارتَها، أو بينهما سرٌّ، ومِنْ حينٍ لآخر يمرّ على أشجارِ القريةِ، دون تعب، ويهذّب فروعَها، يقصّها ويصنعَ أشكالًا كانتْ تحيّر أهلَ القرية.

في يومٍ صنعَ مِنْ أفرع شجرةِ الفناء، كأنّما لم يرهقه متانةُ جذوعِها، وجهًا جامدَ الملامح، استدار لي وقال بألفاظٍ متعسّرة:

- هذا وجهُ الرّب كما رأيتُه.

بدا كمَنْ يرى العالم مِنْ نافذةٍ واسعةٍ، عكس ما نرى، قال لي -عندما كبر- إنّه حالما يُزهرَ الرّبيعُ، يشتدّ ولعُ بنات قريتِنا بالرّحيل، يصطففنَ عند بدايةِ الإشراق، جماعات، ويعيّنَّ فيما بينهنّ قائدةً، يسرنَ وراءها، ويذهبنَ بحثًا عن الأبِ الغائب، وفي كلِّ ربيعٍ، يجدنَه- هذا الأب - مقعيًا على كومةِ الحشائش التي تنْبت فوق ضفّةِ التّرعة، عاريًا، وفي كلِّ ربيعٍ يُفزع الأبُ مِنْ البنات، لا لشيء إلاّ أنّه، رغم تطاوله المشروع على

كلِّ إناثِ القرية، يُدركَ تمامًا، أنّ الذي يُنجب البنات بهذه الغزارة، هو ولعُهنّ بالرّحيلِ، منْذ البداية.

وكنتُ أضحك لحكاياتِه المُختلقة، وخياله الذي لا يحدّه واقع.

كم كنتُ أشعرُ أنّه يختزل في عينيه المليئتيْن أرقًا جموحَ الحياةِ، ويمضي، يمضي هائمًا يومًا لا يدري مستقرَه، وخائفًا حينًا مِنْ المصير، يجتاز عتبات التشظّي عتبةً تلو أخرى، كأنّه نشأ على الألم، ولا يأبَه - رغم أوجاعه- للمآل.

تمنحني عيناه الدّفءَ، ويفترش حكاياتي عن الماضي ممدّدًا جسمَه جواري، وبدتْ تلتقي طموحاته بعدمٍ مجازي، إنْ فتح عينيه إذا بالكلمات تتبعثر وتتمزّق على حوافِّ اللا تركيز، فإنْ أغلقهما، يبدو كأنّه استوت له الحياةُ وبدا كلُّ مستحيلٍ ممكنًا.

تعال على صدرِي واغف يا «روح»، لا تدع عبثَ القدر يؤلمك يا صغيري.

ربّما جملة عفوية قد تبيّن مفتاحَ لغزٍ ها هو يحوّم أمامنا في الأفق، وربّما كلمة واحدة تهب حياتنا استقرارَ الأبد يا «روح».

إنّما ما الذي قد يبدّد وحشةَ المخاطر؟ فمِنْ خطرٍ لخطر نمضي يا ولدي، كلّها احتمالات حياةٍ جزافية.

كلماته مقاطع متكسّرة، لكنّها حزينة، يتمطّى ويفرد جسمَه أكثر، لن تجد غيري صدراً حنونًا يا ولدي، يُفزعه أيّ صوتٍ نافق، فيعتدل، يتقوقع على ركبتيه، وجسمُه يبدأ في انتفاضةٍ لا إرادية، أضمّه لي، وأمام

خيالي تروح المشاهد وتجيء، تغيم الرّؤى وتضْمحل، يأتيني صوتُ أبيه «دُرّ» كأنّما يشمخ في الدّنيا ليناطحها، صوت حاد، كان ينادي علينا، ومع قشعريرة جسد «روح» أنطوي على حزني القديم أكثر فأكثر، كأنّي سأمحو ذاتي بذاتي، وإنْ كان ذهني يحضر ويغيب بدوامِ الانشطار.

يسامر عصفورةً جعلتْ تتلوّى راقصة مِنْ البرد على فرعٍ مِنْ شجرة الفناء، حطّتْ أمام عينينا مباشرة، كانتْ تبادله النظرَ، كأنّها تتغزّل فيه، فيتغزّل بدورِه فيها بابتسامةٍ مرتعشة.

ذات مساء، خرج مثْل عادتِه، ظلّ ليالِيَ سارحًا في الخارج هناك ولم أكن أعلم عنه شيئًا، طار فؤادي وراءه، خرجتُ أبحث عنه، لكنْ لم يرهبني غيابُه قدر أنّي اشتقتُه، فمثْله لا يُمكن تخيّله إلّا على أفضلِ نحوٍ، سرحتُ في الشّوارع أنادي، حتّى إنّي وصلتُ لحدود معبدِ الغرباء، ولم يكنْ هناك، وبدا عليّ أنّي بُعثتُ مِنْ بعْد رقادٍ طويل، لمّا هرعت إلى البابِ أفتحه، وطالعني بوجهٍ مشرق، وهتف في اضطراب:

- لقد نجوتُ.

- اجلس احكِ لي.

جلسَ أرضًا، ولعقَ شفتيه بلسانِه، وتمدّد على ساقي، وقال:

- لقد انزلقتُ في التّرعة.

- لكنّك عوّامٌ يا ولدي.

- يا «أسماء الرّب»، التّرعةُ لا أمانَ لها.

- ولكنّك شجاعٌ لا تخشى شيئًا.

- أخشى التّرعةَ يا «أسماء الرّب»، في النّهارِ يغفو الجنُّ في مياهِها، ويستيقظون في اللّيل، كنتُ أطارد ورلًا فرّ بيْن الحشائشِ، قرّرتُ أنْ أشدّه مِنْ ذيله وأحنّطه على باب البيت، أو أقدّمه لك كهديّة، لكنّ الملعون زاغَ منّي، ووجدتني منزلقًا في المياه، هذه ليست أوّل مرّة أقع في التّرعة، لكنّي رأيتُ المياهَ تفور، وخرجَ لي كائنٌ بجسمٍ مليانٍ بالرّيم، كانتْ عيناه حمراويْن يا «أسماء الرّب»، وأفزعَني، وداسَ بقبضتِه على رأسي، وكدتُ أفطس وقد شربتُ نصف ماء التّرعة، إنّما ولدُك ناصح.

- ماذا فعلت؟

- ضربتُه في بطنِه، وتركتُه يتلوّى، وسبحتُ خارجًا، وسمعتُه يصرخَ ويزوم.

نساءُ القرْية حين كنّ يرينَه يحبو على أربعٍ يُسرفِن في الضّحك، يُطلقن عليه همسهنّ وإيماءاتهنّ، ويتداعبنَ فيما بينهنّ يستدعينَ الحكايةَ الشّائعة التي جيء على أثرِها، غير أنّي كلّما كان يدنو منّي ويلعق ساقيّ بلسانِه أرتعش، ينقبض قلبي إشفاقًا عليه، تلك كانتْ طريقتُه في المداعبة، يغرف ترابَ الدّرب بيديه وقدميه، ويقترب منّي ممازحًا، ثمّ يبدأ في لحس ساقيّ، كان يقشعر بدنُي لمجرّد تخيّلي ما سيؤول إليه بعْد أعوام.

يعدو أمام البيتِ مندفعًا على ساقيه ويديه خلف الأولاد، فيكادُ قلبي يندفعَ وراءه، بدا اكتسبَ كلّ الصّفات التي خفتُ أنْ يكتسبها، وبدا مع الوقت يتحوّل للكائنِ الذي قالت «العرّافةُ» أنّه حتمًا سيكونه.

يحدّق فيّ بعينيْن متسائلتيْن، تلك العيْنان اللتان تبرقان في روحي، فتغتسل بنورِهما، وأكاد ألمحُ فيهما تساؤلي نفسه، وإنْ لم ينبُس به: تُرى،

في مثْل زمنِ التحوّلات الكُبرى هذا، هل يُمكن أنْ أصير إنسانًا مِنْ جديدٍ يا أمّي؟

أخاطبهُ وهو غافٍ أمامي في براءةٍ لم تكُن لبشر: «روح»؛ يستدلّ عليك فؤادي بمثل هذا الدفء يا صغيري، تلمّست سُبلي إليك كطفلةٍ تحبو نحو ربيع، كشجرةٍ تورق نحو سماء، أنتَ إعجازٌ يا كلّي ويا بعضي، لا تُشعرني بالفَقد بعدما حظيت بك، أنتَ المُنتظر مِنْ بعْد شوقٍ.

سأحتفل كلّ عامٍ بأنّي أنجبته مِنْ رحم التّيه والعصيان والإثم، وسأحتفل بأنّه استعادني مِنْ شكلي الأوليّ، «روح» لو تعلمون عظيم، فهو يسعى لأنْ يشبّك أطرافَ العالم بيْن أنامله، يسعى لأنْ يكتشفَ كوكبًا جديدًا في قلبي، بلْ وأنْ تتحوّل بنات القرية إلى قراطيس «قشدة»، كيما يستطيع أنْ يلعقهنّ بسهولة.

«روح» لا يعرف إلى اليوم أنّه وُلد مِنْ بطنِ امرأةٍ، إنّما يؤمن تمام الإيمان أنّي استوقدته ذات يوم مِنْ عين الشّمس، وفقأتها لأجلِه، لذا؛ كثيرًا ما كان يركض ويُخرج للشّمس لسانه يغيظها، وكثيرًا ما كان يحدّق في وجهي، ولسان حاله يقول: ماذا لو أنّ الرّبَ لعنك لفعلتكِ مع الشّمس ؟

عندما أتمّ شهرَه الخامس في بطني بدأتْ الهواجسُ تطنّ، كنتُ لا أقعد ولا أقوم ولا أرقد إلّا بحرصٍ شديدٍ، إنّها العطيّة التي لو أهدرتها ما استطعتُ تعويضَها، أمّا وقد غاصت قدماي في الوحل ولم أنظّفهما إلى اليوم، ولا تزال أوساخُ الوحلِ عالقةً بهما، إذ لعلّ الأوساخ عالقة بروحي، فعلى الولد أنْ ينمو لو أنّ الخلاص على يديه.

شهدتْ القرْيةُ يوم ولادتي كأنّها لم تكنْ تحتسب، كان يومًا حافلًا.

لو رأيت أباك يا «روح» يومَ وُلدت، جاء فرِحًا وحملك بيْن يديه، وطاف بك فضاءَ الحُجرات ليباركها.

يومذاك غمسَ في سرّتك عودًا مِنْ البخور، وكانتْ القابلةُ جالسةً فمنحها قفّةً مِنْ الخبزِ والكعكِ ودجاجتيْن، ومنحها ابتسامةً كبيرةً شكرًا، ودعاها أنْ تمضي لتتركه كي يستكمل فرحتَه بك، إذ أنّ البيت كان مزدحمًا، ولم يكن ليرحل المهنّئون إلاّ برحيلِ القابلة.

تعبّق جوّ بيتنا ببخورِ العود، وتلمّست عينا أبيك طريقًا نحو السّماء، فابتهل، وشكر الرّب، وظلّ يصيح: جاء إلى بيتِنا ولدٌ.. جاء ولدٌ.

يُمكن أنْ تتداخل الحكايات، بيْن قديمٍ وجديدٍ، غير أنّ الرّاوي يظلّ جانحًا في الأفق، لا يرسو يا ولدي.

أطول مِنْ عمرِ الإنسان سيرتُه، وأصعب مِنْ الشّعورِ بالفرحةِ بك الشّعورُ بالذّنب.

في البدءِ كانتْ الخطيئةُ أم كان الغفْرانُ؟ أسأل نفسي يا «روح».

في مثْل هذه اللّيالي الغائمة لا يكون القمرُ بازغًا يا ولدي، إنّما، ولسببٍ غير معلومٍ، كانتْ اللّيلةُ مضيئةً، ولعلّ الذّنوب القديمة التي اقترفتْها القريةُ في شأنِنا جعلتْ السّماءَ دومًا -ومنذ رجم أبيك- ملبّدةً بالغيم، يلوح فيها الغضبُ، ويبدو عليها سخطُ الجرائمِ التي ارتُكِبتْ ذات لا مبالاة، أجلْ، تورّطتْ القريةُ كلّها، برجالِها ونسائِها، بأطفالِها الذين يحْبُون، الذين سيكبرون وسيُخبرهم التّاريخُ، كلّ هؤلاء تورّطوا،

ولـو دون عَمـدٍ، في سِـفح دمـاء أبيك، أثنـاء هـذا النّهـارِ البعيد.

أبحـثُ بـيْن الأمكنـةِ عـنْ روائحِـه، أُغمِـض عينـيّ وفي رأسي ذكـرى قديمـة، بـتُّ لا أرتـوي مِـنْ الذّكريـات، لم أزل أذكـرُ ملامحَـه ولـو عـلى وهـنٍ، كأنّـه الأمـس، وظـلّ حلمـي بـه لا ينقطـع، نفـس الحلم يـا ولدي، وكأنّـما لم يغـادر، كان بهيًّـا كعهدي به، وكان مسـتورًا بجلبابٍ مِـنْ الصّوف الأبيـض، في الحلـم يقـول لي: ليس في الحيـاةِ حكمةٌ -إنْ رجّحنـا ذلك- كما في المـوت. ويقـول: حيثـما يكون موت، يحـلّ مـوتٌ مغاير. ويقـول: الموتُ جميـلٌ منتهـى الجمالِ، له أشـكالٌ، وله طلّـةٌ نورانيةٌ، الميّتُ قد يـرى كلّ شيء ممّـا لا ترونـه، بالمناسـبة؛ أمّـكِ تُبلغكِ السّـلامَ.

لعـلّي بعْـد السّـنوات بـتّ أصـدّق أنّ في المـوت نكهـةً ربّانيـةً؛ كـما قـال أبـوك، فاشـتهيتُه، فكنـتُ أناجيـه، أهمـسُ لـه: هـلاّ أقبلـت أيّهـا القريـب البعيـد وعرّفتنـي بـك! أنـا المأسـورة، أرغـب فيـك بشـدّة.. أرغـب أن نجلـس نحتـسي كوبـيْن مِـنْ الزّنجبيـل فإمّـا لم أرق لـك فتتركني مغـادرًا.. وإمّـا صاحبتُـك أبـدًا.. حاملـةً روعـة كلّ النهايـات.

آه يا ولدي، منْذ غادرنا أبوك، وأنا أفكّر في موتي!

أسأله في الحلم: تُرى أرأيتَ الموت حقًّا يا «دُرّ»؟ وعلى أيّة هيئة جاءك؟

في الحُلـم سـألتُه، وأجابنـي يا ولدي: لا ليـس مِنْ ألمٍ، لا أشـعر بشيءٍ غير حجـم الطّرفـة، في النّهايـة إنّ الألمَ هناك في حـدّ ذاته إذا ما تجسّـد فلنْ يعدو كونـه أكثر مِنْ نسـخة ممسـوخة مِـنْ ألم الدّنيا، فلـمَ الألم أو حتّـى التفكير في مدى وجـعِ الرّحيل!

الأعـوامُ تمـرّ، وأنـت تخطـو إلى عامِـك السّـادس عـشْر، لا تنفـكّ تذكُـرَ أبـاك، فننـصرفُ معًـا إلى بـكاءٍ حـارقٍ، كان قلبُك يشـبه قلبَ أبيـك، نفس الرّقـة، نفـس الـدّفء، نفـس الـبراءة، بملامحٍ شـاردة تسـألني:

- لو أنّ الرّبَ مات، فمَنْ سيرثه؟

- سـيرثه الأشرارُ يـا ولدي، سـيرثه أولئك الذيـن خرّبوا ودمّـروا وأفنوا حكمَته الأزليـة وبدّدوها.

- وهلْ الرّبُ يعرف؟

- يعـرف، ولا يفعـل شـيئًا، الـرّبُ ميّتٌ بالنّسـبة لي منْذ تـرك أباك يموت هـدرًا وجورًا.

ولـدي لم يعُـد يحبـو منْـذ سـنواتٍ، لكنّه يسـير وظهرُه منحـنٍ قليـلًا، يزمّ نطـاقَ جلبابِـه بحـزامٍ مِـنْ الجِلد، ثـمّ يجوب فضـاءَ القريـة بلا تعـبٍ، يبدو جسـدُه تحـت ضوء القمـر كأنّه مكـوّر، ولا يكاد يسـير خطوتـيْن إلّا وعرج عـلى سـاقٍ لا علّة فيهـا، وكلّما تحـدّثَ لهث، ومسـحَ ذقنَـه بلسـانِه الطّويل، وكلّـما غضِـبَ عوى، مِـنْ فـرط الانفعال، يسـكُن حواسَّـه اللّيـلُ، فيخرج سـائرًا في ظلمتـه، لا أعـرف عـمَّ ينقّـب، ولا لأيّ مـدى تجـرّه خيالاتُـه، لم يعُـد الأمـر يُثير مخـاوفي، إذ، مع ذلـك، انطلق لسـانُه كأنّه العـارف بمجاهلِ الأمـورِ، يحكـي ما لا يُحكـى مِنْ بـشرٍ، حكاياتُه لهـا العجب، غـير أنّ بعضَ صفـاتِ الجـرو المأكول لا تـزال تعترك بداخلِـه ولو غلبتْ صفات الإنسـانِ عليهـا، فهـو يتشـمّم بعْـد، وتتحـرّك أذنـاه تسـترق السّـمع، تتحـرّك يمينًا ويسـارًا، تُنصـتْ لأصـواتٍ لا يسـمعها غـيرُه، فيهـرول عـلى إثر سـماعِها، يراقـب فيـما خـارج البيـت، كثـيرًا مـا أدركتُـه وهو يضحـك مع أطيـافٍ لا

تُـرى إلّا عـبر عينيـه، وكثـيرًا مـا كان يُغـازِل السّـماء بعبـاراتٍ لا يُمكننـي استيعابُها، تتحقّـق نبوءةُ «العرّافـة» كلّما مـضى الزّمنُ، هو ولدٌ ليـس كمثْلِه ولد.

يقـول النّـاسُ عليـه في القرْيـةِ إنّـه مُختلـف، ممسـوس، يطـير بينهـم مثْـل الفَـرس، ويقـرأ لهـم خفاياهـم، يتوجّسـون مِنـه، لكنّه يسـتلذّ بتوجّسـهم، يشـعر أنّ في مخافتِـه بعـضَ الانتقام لأبيه، يسـترضونه إذا غَضِـب، يعتذرون مِنـه إذا أخطـأ أحدُهـم، يخشـونه، ورغـم ذلـك، لا تنقطـع سـيرتُه عـنْ ألسـنتِهم.

وفي جلسـاتِ الفضفضـة، يحكـي لي وقائـعَ يومِه، يحكي عـنْ بنت الجيران التـي استمالت قلبَـه، وعـن أولادٍ يشـاغبونه ويتعاركـون معـه، عـنْ نسـاءٍ يفضـيْنَ معـه أسرارَ الزّمن القديـم، يحكي كلّ شيء، وكلّما حاولتُ أسـتفسر مِنـه عـنْ الأصوات التـي يتبعهـا، عـنْ الأرواح التي يراهـا، يقول لي:

- تتصاعـد الأصوات مِـنْ بطنِ الأرضِ يا «أسـماء الـرّب»، أو مِنْ حدودِ المُحيـط، أرى نفـسي سـارحًا أحوّم حول نقطـةٍ في مركز الخـلاء، لا أعرف، الفضـاءُ شاسـعٌ والـرّبُ بعيـدٌ عنّـا، وقـد تنبعث الأصـوات مِـنْ كلّ شيء، مِـنْ أيّ شيء، تنبعـث مِـنْ قلـب الـسّر البعيـد، تمنحنـي نفسَـها، أو بالأدقّ تمنحنـي سُـلطتَها، تمتزج بداخـلي امتزاجًا مشـوّهًا، يتّضح بعضُهـا، ويلتبس عـليّ بعضُهـا، أرى كائنـات بأجنحةٍ يا «أسـماء الـرّب»، بأجنحة.

أراه يرقـد عـلى الكنبـةِ عاريًـا، عينـاه شـاردتان، لا يشـعر بالـبرد الـذي يدلـف مِـنْ البـاب المفتـوح عـلى مصراعيـه، كأنّ مسـألةً تختلـج في رأسِـه، ككلّ المسـائل التـي لا يُمكننـي الإلمـام بهـا، وأجهَـدني التفكـير فيهـا.

لا يُضيء البيتَ غيرُ ضوءِ الغسق، وضوءُ مصباحِ الدّربِ الهزيل، تلفحه الشّمسُ في وجهِه وصدرِه وساقيه طيلة النّهار، رغم ذلك، يزداد لونُه بياضًا على بياضٍ، وتوهّجًا على توهّج.

عندما يميل الجو إلى البرودةِ أكثر، يتناهى إلى سمعي صوت شخيره، فكما جرت عادتُه دومًا، كلّما يشتدّ عليه البردُ، ينام، وأثناء نومِه ينتفض، كأنّ كابوسًا جثمَ عليه، أقترب منه أغطّيه، لكنّي أوّل ما ألمسه يهبّ فزعًا، وبدلًا مِنْ الانصراف لمزيدٍ من النّوم، يهتف وهو يقوم منتصبًا:

- هل تسمعين هذا الصّوت؟

لا أسمع شيئًا، يرمي جلبابَه عليه، ويهرعَ إلى الخارج، ثمّ يختفي قليلًا.

في هذه اللّيلةِ المُضيئةِ بلا قمرٍ، عاد إليّ، كانتْ ابتسامةٌ تفترش ملامحَه كلّها، سدّ فتحةَ البابِ المواربِ بجسمِه، وما إنْ بدأ يدنو منّي قليلًا، برز مِنْ ورائِه جسمٌ آخر، سدّ بدورِه الباب فلم أستوضح مِنْ معالِمِه ملمحًا، لكنْ فيما قليل، ألمح نفسَ الابتسامةِ القديمة، وينفرج فمُه عنْ نفسِ الصّوت الذي كدتُ أنسى نبرته:

- كيف حالُك يا أمّ الولد؟

كان «غبري» واقفًا هناك، بعْد السّنوات الطّويلة، بعْد الغيْبةِ الممتدّة، كان واقفًا ومِنْ قلب صندوقِه يسحب عروسًا، يمنحها لي، فيتحجّر جسدي، يمنحها لي فتتواتر الذّكريات، يمدّ بها يدَه، و «روح» يهتف:

- الصّوتُ، ألم أخبركِ؟ الصّوتُ الذي يغنّي وأسمعه، الصّوتُ الذي يطلع مِنْ بطنِ الأرض، الذي يجيء مِنْ الفضاء، الصّوتُ يا «أسماء

الـرّب»، أخبرتُـك كثـيرًا، لكنّكِ..

ثمّ يستردّ أنفاسَه ويزوم:

- لكنّكِ لا تسمعين شيئًا!

«أسْطورةُ رُوح»

أمّـي لا تفْهمنـي، إنّهـا لا تشـعر بقلّـةِ حيلتـي في لسـاني الـذي لم ينضُـج، تحـاول جاهـدةً العثورَ عـلى أيِّ خيطٍ يُمكّنهـا مِنْ تتبّع حديثـي، بلا جدوى، أسـتخدمُ معهـا الإيـماءات والإشـارات، أجرّهـا مِـنْ ذيـل عباءتِهـا، أكادُ أصرخُ لتسـتجيب، لولا أنّ لسـاني مربوطٌ بعْـد، وكثيرًا ما حاولـتُ أن أدلّها عـلى الأماكـن التي يقبـع فيهـا أصدقائي؛ هـؤلاء الذين جـاؤوا مِنْ السّـماء واسـتقرّوا في بيتِنـا، كان هـذا في زمنِ الغفْلـةِ، حين اسـتباحتْ القريةُ قوانينَ السّـماء، بـلْ وأسرف أهلُهـا في تحريـفِ القوانـين وفـق هواهـم، وتطويـع الأقـدار لتجـري كيفـما أرادوا، ألـوّحُ إلى أصدقائـي وهم يتقافـزون حولنا، يصنعـون بهجتـي، إنّـما أمّـي بـدتْ لا تكـترث، إنّهـا لا تراهـم، فهـذه ميزةٌ مُنحـت لي دونهـا، ولعـلّ هـذا معضلـة لم يعُـد لهـا حـلّ، بـلْ إنّ أمّـي تنظُـر لي بـلا مبـالاة مسـتخفّةً بعقـلي، وتربّت عـلى كتفـي تصْرفني، أزوم، تبتسـم بإشـفاقٍ، تدعـوني للمـضي بعيـدًا عنهـا كي لا أشـغلها عَـنْ أعـمالِ البيتِ، التـي لا تفـرغ منْهـا مهـما انقطعت حاجتُنـا إليهـا، أرمقُهـا بنظرةٍ حانقـةٍ ثمّ أطأطـئ رأسي وأحبـو بعيدًا.

أسـتخرجُ كلَّ العرائـسِ الطّينيّـة التـي تحتفـظ بها أمّـي، ونتشـارك اللّعبَ معًـا أنـا وأصدقائـي، قـد تباغتنـي أمّي، فأسـتدير عنهـا، غـير أنّ أصدقائي يحلـو لهـم كثـيرًا العبـثُ بحاجياتهـا، يبعثـرون محتويـات الأدراج، يُهيلـون الأتربـةَ فـوق الفُرن، يقصّفـون أفـرعَ الشّـجرةِ، فأغضبُ منهم، سـتتّهمني أمّـي باقـتراف كلّ هـذا العبث ولـو كنـتُ بريئًا.

لسـاني حديـثُ العهْـدِ بالنّطـق، أجلْ، لكـنّ أصدقائـي بـدؤوا يعلّمونني النّطـقَ السّـليم ويجلسـون معي بالسّـاعات جلسـات تدريبٍ شـاقّة، تعتقد

أمّي أنّ لسان «الجَدي» هو الذي ساعدني، لا تعرف أنّي التهمتُ اللّسانَ لأنّ جارتَنا طبّاخةٌ ماهرةٌ.

رغم هذا، كنتُ وحيدًا، لأشدّ ما تكون الوحدةُ، والأدهى أنّ أمّي استعانت بحدّادٍ ليصنْع قضبانًا مِنْ الحديدِ يحوّز بها بابَ البيتِ، إيعازًا مِنْ بعضِ الجارات، تخشى عليّ مِنْ الانفلاتِ والخروجِ في خطر الشّوارع هناك بعْد اكتشافي خبيئة دمّ مجهولة، لعلّها لا تعرف أنّي لا أجازفُ أبدًا، أبتعد عن موضعِ الخطر حذِرًا، ولكنْ لي رغبةٌ في اللّعب مع الأولاد في الدّرب، رغبة ملحّة، أحبّ ألعابَهم، وإنْ لم يحبّ بعضُهم مشاركتي لهم، مع ذلك، كنتُ أقف وراء القضبان أراقب الأولادَ وهم يلعبون، وفي عينيّ إحساسُ الخيبةِ وانعدامِ التصرّف، مُفتَقِدًا - على غير عادةِ الأولاد - استثمار فرحة هذه السّن، يتواثبون ويلهون، وأنا واقفٌ بمثل هذا العجز، نعم يأتي أحدُهم ويمنحني كيسَ حلوى، أو يدردش معي، إنّما أنا محبوسٌ خلف هذا السّياج.

إحداهنّ أيضًا جاءتْ ومرّرتْ أناملَها فتشابكت أصابعُنا، بدتْ تُشفق عليّ مِنْ احتجازي وراء القضبان، كنتُ صغيرًا، لكن إحساسًا نحو هذه البنت دبّ في قلبي منذاك، ولم يفارقني، بل ظلّ ينمو كلّما نَمَوتُ.

كنتُ مغتاظًا من أمّي، فشكوتُ لأصدقائي، قرّروا القَصاصَ نيابةً عنّي، وكانتْ نائمةً عندما صفعَها أحدُ أصدقائي بجناحِه، قامتْ مذعورةً، لكنّي التحفتُ صدرَها معتذرًا، ورميتُ صديقي بنظرةٍ مُعاتبة.

بعْد وقتٍ، انفكّ الحصارُ، استطعْتُ أنْ أخرج إلى فضاءِ الدّربِ

أمـارسُ ما يمارسـه الأولادُ مِـنْ لهوٍ، وأحـاول التحايلَ لرؤيـةِ البنت جارتنا التـي دبّ مبكّـرًا الإحسـاسُ بهـا في قلبـي.

أبعـدني الأولادُ عـنْ ألعابِهـم مـرّات ومـرّات، لكـنْ كان أصدقائـي السّـماويون يحلّقـون حولي، أجنحتُهم تـضرب في الأفق، فشـعرتُ بتعويضٍ عادلٍ.

أذكـر أنّ واحـدًا منهـم رفـرفَ يومًـا إلى قلبِ السّـماء، وغطّي وجـهَ القمرِ بظلّـه، رحـتُ أقتفـي الظّلَّ، كنـتُ سـعيدًا مُبتهَجًـا، وأنـا أحبو مِـنْ خلفِه، يداعبنـي مِـنْ الأعـلى، وأداعبُه، في هـذه اللّيلـة قالـوا، كلُّ أهلِ القرْيـةِ، إنّي كشـفتُ عـنْ خبيئـةِ دمّ مدفونة في بيـتٍ مهجورٍ.

لكنْ، كأنّما وُلدت مِنْ عدمٍ؛ وُلدت تُحيط بي الأسرارُ.

لعلّنـا نُولـد مِـنْ عـدم، إنّما نفنَـى، نرحـلُ في نهايةِ المطـافِ إلى عـدمٍ، تلك نهايتـي التـي أؤمن بهـا، ومصيري.

بـذرني أبي نطفـةً حائـرةً تسـبح عـنْ غـير هـدى في رحـم أمّـي، إلى غـير مسـتقرٍّ، وانتظـرا أنْ تتشـكّل هـذه النّطفـة ولـدًا كامـلًا، انتظرا على شـوقٍ، مخَافـة أنْ تُهـدَر نطفتي كسـابقاتِها، قالوا إنّ أبي لم تسـعه الدُنيـا وهو يزفّ إلى النّـاسِ في قريتنـا خـبرَ حمـلِ أمّـي بي وصـولًا للشّـهر السّـادس، وهو شـهرُ الأمـانِ، خرج مِـنْ البيت وكانـتْ مغربيّـة، كان وجهُه مضيئًـا إضاءة فرحة طالـتْ، انتظرهـا عشر سـنوات مدّة زواجـه بأمّي، ولم يحالفه حـظٌّ أنْ تحمل في أحشـائها جنينًـا مُكتمـلًا، ولكـنّ القدرَ يتحايـل على الأحداثِ بوسـائلٍ عبثيـةٍ، قـد نكـون في نهايـةِ الأمرِ مجـرّد مصادفـات جُزافية.

قالتْ لي أمّي:

- مهما أخبروك مِنْ حكاياتِهم، فاعرف أنّ أباك هو بطلُ حكايتِهم الوحيد.

شهدتُ موتَ أبي، كنتُ لم أزل صغيرًا، لم يترفّق أحدُهم بعجزِ طفلٍ مثلي، لا يستطيع أنْ يزود عنْ أبيه، ولا يستطيع أنْ يواسيه حتّى، جرجروه أمام عينيّ، سلسلوه، وفي حفرةٍ غائرةٍ بطرفِ القرْية ألقوه، نزلتْ عليه حجارتُهم العمياء، سفحوا دماءه وهو البريء، حاولتُ التشبّثَ به دون جدوى، قبّلتُه في جبينه، وفي عينيه اللّتين أُغلقتا للأبد، فيما بعْد حاولت -ما أمكنني- الاحتفاظ بملامحِه، ذاكرتي رغم هذا كانتْ مشوّشةً، فمهما خامرتني ملامحُ أبي بعْد السّنوات، لم أكنْ لأحدّد صورةً واضحةً لوجهه، الملامحُ مضبّبة، والذّكريات لعنةُ المُتذكّر، لكنّ صوتَه يأتيني مِنْ بيْن خلايا الشّجرة التي في قلبِ الفناء، يهمس لي:

- ولدي، سآتي إليك على هيئةٍ أخرى، انتظرْني.

في فناءِ بيتِنا روحٌ قديمة قُدّت لتبقى أثرًا مِنْ زمنٍ غابر، في فناءِ بيتنا شجرةٌ، تُشبه في وقفتِها كفَّ يدٍ مضمومة تدكّ الأرضِ في عزمٍ، لها أكثرُ مِنْ جذعٍ، وأكثرُ مِنْ إطلالةٍ على مشارفِ كلِّ يومٍ جديد، خُلقت هنا في قلب البيت لتستقيم مع استقامة جذوعِها المتفسّخة كلُّ مسارب الحياة، كم شعرتُ أنّها محرابٌ يطوّف الكونُ في أرجائِه متعبّدًا، يتسلّل بعْد ظهيرة كلّ يوم، في غفوة النّاسِ عند القيلولة، يتمسّح في جذوعها المتينة التي تتداخل في بعضها البعض مؤازرةً، وكنتُ أطلّ مِنْ سور السّقيفة

المفتوح على الفناء فتسترخي عيناي في انبعاجات الجذوع وتشابك الأفرع، يلفح جنبَ وجهي الهواءُ المحمّلُ بتنهيدةِ شمسِ الظّهيرة، فأجدني كمَنْ يدخل في غيبوبةٍ بكلِّ بطءٍ وراحة، واستلقي على ظهري فوق السّطح كموجةٍ ساكنةٍ مِنْ ريحٍ خاملة، أستمعُ إلى همسات أبي التي تنبعث مِنْ داخل كيان الشّجرة.

في هذا الصّباح بُحت لرُوحِ الشّجرة عنْ حلمٍ راودني البارحة.

رأيتُ، فيما يرى المكشوفُ له، ذئبًا، يتحوّطني بعينيه، ثمّ يتصاعد على جسدي، ببطءٍ، في هذا الحلم كان جسدُه- الذّئب- أملس كملمسِ الأفاعي، وبدأ يلعق وجهي بشكلٍ لم أفهم كنهَه ولا طبيعته، ثمّ راح يمزّق جِلد وجهي في بطءٍ، وقبل أنْ ينتهي الذّئبُ، استيقظتُ.

قالت أمّي عندما قصصْتُ عليها:

- الذّئبُ أبو الشّرور كلّها.

قلتُ:

- لكن لماذا يريد الشّرُ أنْ يمزّقني ويشوّه ملامحي؟

تنهّدتْ وقالت:

- إنّما نعيش في قرْية الشّر يا ولدي.

قريتُنا؛ قريةُ الشّرِ، تقوم بيْن ترعتيْن يسافر ماؤهما إلى الغيبِ ولا يعود، وبيوتُنا بينهما، قيل إنّ الخيرَ كان يسكنها لوقتٍ قريب، وإنّها كانتْ نعيمًا، وها هنا كلّ صباحٍ تعوّدت أنْ ألتقي بالأحلام المطلّة مِنْ بعيد، كنتُ

طفلًا يأمل ركوب صهوة الموج وينطلق إلى عنان الغَد، لا يعرف عنْ الأسْرارِ شيئًا.

يُحتمل أنّ الأحلامَ العظيمةَ تُنكّسها الأحداثُ التّافهة، تمامًا كالأماكنِ العظيمة التي يسكنها التّافهون، لم يعُد شيءٌ يُحتمل على هذه الأرضِ الخرِبة، لا البشر ولا الذّكريات ولا حتّى التّفاصيل الصّغيرة التي تصلح وقودًا للأسْرار.

كعادتي، أجلسُ فوق سطحِ بيتنا، أتوسّد حصيرًا وأجوّل بعينيّ في فضاء يبدو لا آخرَ له، وأتذكّر المفارقات التي جاءت بي إلى هذه الحياة في نهاية الأمرِ، أشعر أنّي لم أُخلق لهذا العالم، لعلّ رُوحي تصبو إلى عالمٍ آخر، بعيد، فهنا تترقرق الحياةُ، ولا تتّسع إلاّ للألم.

كثيرًا ما تجلس معي أمّي فوق سطحِ البيت، تخلو لي والقمرُ مدوّر نافذ كأيقونة مِنْ عبّ السّماء، تحوّط رقبتي بيدِها، فننفلتُ في الغناء الهامس، أو ننفلتُ في البكاء، تتخلّل شعري بأناملها، وتتنهّد قائلةً وهي تتذكّر أبي:

- ليت اللّحظات القديمة طالتْ قليلًا يا ولدي! كيف أدركنا الحرمانُ والفَقد سريعًا هكذا؟

فأقول لها:

- كلّ الذّكريات، كلّها يا «أسماء الرّب»، قد تصبح مثْلنا تمامًا، شيئًا عارضًا في هذه الحياة البائسة.

أضِيقُ مِنْ التذكّرِ، أنفلتُ مِنْ حضن أمّي وأنطلق إلى الخارج، أطوّف في شوارع القرْية، تجري بي الأعوامُ كأنّها ذنبٌ ثقيلٌ يجري إلى عاقبةٍ حتميّة، أتشمّم أسرارَ البيوت، في نزقٍ غامضٍ، أتصيّد الأنباءَ النّافقة، أستشعر الأماكنَ التي تُولد بداخلها الخطايا، لا بأس مِنْ الشّطط، ألتصق بالجدران، تتحرّك أذناي تُنصتان، أسمع التأوّهات والدّعوات والمشاحنات التّافهة، أعرفُ الرّجال الذين يهبطون على نساء رجالٍ آخرين، أعرفُ النّساء اللواتي يركبن فوق رجالهنّ ويُخضعوهم بالجسد، أعرف كلّ أخٍ قفز فوق أختِه ونام معها، أعرف كلّ رجلٍ عجز منْذ سنوات عنْ إخمادِ الرّغبات المُشتعلة، كلّ ضلال، كلّ اشتهاءٍ، كلّ آثامِ البيوت، أدركتُها، إنْ كان الرّبُ يريد لي اللّعنةَ فلتكنْ، لا لعنةَ أقوى تأثيرًا مِنْ لعنةِ الجورِ والظّلم، أنا اليقِظُ وكلّهم غافون، أنا المُراقب بمظهرِ اللّهو، أنا «روح» بن «أسماء الرّب» التي بَغوا عليها، أنا الذي عاصرَ ما لم يعاصره الأنبياءُ القُدامى.

أخطو بخطواتٍ غير منضبطة وأخرج حيث ينفتح الدّربُ على الشّارع الكبير، وعلى ضفّةِ التّرعة الكبيرة يجتمع الرّجالُ، كلّ ليلة، يتركون المَراقدَ للحرمان، والنّساءَ للشّكوى، يُزيحون عنْ كواهِلهم أثقالَ البيوتِ، منهم مَنْ يأتنس بشربِ النّرجيلة النّحاس، ومنهم مَنْ لا يجد سبيلًا للتمزّج إلّا في لفائف التبغ أو زجاجات الخمر الرّديء، ومنهم مَنْ يلوك أسرارَ الغرف المُغلقة، حتّى ولو كانتْ غرفتُه نفسها مُنتهَكة، غواية المُجاهَرة أقوى مِنْ فضيلةِ الكتمان.

هكذا هم رجالُ القرْيةِ، إذا أرخى اللّيلُ ستائرَه، اجتمعوا في عادةٍ

لها عشرات السّنوات، منْذ الجدود ربّما، ليفضّوا النّهارَ مِنْ ملابساته، ويفنّدوا أحداثَه واحدًا بعْد الآخر، وكلُّ رجلٍ له رأيٌّ، وكلُّ رجلٍ له حكمةٌ، وفلسفةٌ خاصّةٌ، وواقعةٌ بعينها، حتّى تكاد الواقعةُ تُسرد مِنْ أكثر مِنْ زاوية، فيتعسّر معرفةُ أصلِها وفصلِها، ويشقّ الوقوفُ على الحقيقة كما جرتْ بالتّمام.

كلّما أخالطهم، يرهبونني، ينادونني: ابن «أسماء الرّب». فأصيح بهم: أنا بن «دُرّ». فيتلمّزون ويتغامزون، ينظرون لبعضِهم البعض كأنّ بهم يرفضون مخالطتي لهم. يقول بعضُهم: ما أقبح ملامحك! حاول أن تبتسم يا بن «أسماء الرّب». فأقول: الرّب أجمل.

في هذه القرْيةِ، لا يُمكن التحدّث عنْ الجمال، فالجمالُ مرئيٌّ بالضّرورةِ، الجمالُ لا يُمكن إخفاؤه لا بالتّراب ولا الأقاويل ولا التّشويه المُغرِض، بلْ يجوز تمامًا التحدّث عن القُبحِ، هذا الذي يتّخذ مِنْ مُفردات الجمالِ ستارًا، لكنْ سُرعان ما يعرّيه الزّمنُ، جوهرُ القبحِ لا يختبئ كثيرًا، في هذه القرْية المحبّةُ ظاهرُ البغضِ البّاطنِ، الأحضانُ زائفةٌ والكلمات رنّانةٌ، غير أنّ العيونَ كاشفةٌ، إنّها نافذةُ الرّبِ لخفايا البشرِ، تنبّئ عنْ باطنِ الرّوحِ، مهما كانتْ الألفاظُ المُخاتِلة، الثّناءُ المبالغ، المديحُ المُلفّق، لكنّي صرتُ أُدرك كلّ هذا، أقرأ العيونَ بما يقيني شرورَهم.

تقول النّساءُ إنّي أحمل الأسْرارَ، ويقول الرّجالُ إنّي ملعونٌ، غير أنّ أمّي تقول: أنتَ فريدٌ في صِفاتِك. أمّا الأولادُ، فصاحبني بعضُهم، ونبذني كثيرون، وكان بداخلي سخطٌ تجاه جميع أهل هذه القرْية، لم أزل أذكر

أبي وهم يلقونه بحجارتِهم فيتلوّى مِنْ الألم، لم يستمعوا لتوسّل أمّي، ولم تقشعر أبدانُهم وهم يرون أبي عيانًا ينزف روحَه نقطة نقطة، ولم أكن أعرف وسيلةً للقصاص، إذ مهما شكوتُ لأصدقائي السّماويين، قالوا: صبرًا. لا أعرف ما هو الصّبر؟ ولماذا عليّ أنْ أصبر؟ أمّي تقول لي اصبر، أبي يأتيني صوتُه مِنْ الغيبِ يدعوني للصّبر! ما الذي قد يحدُث إنْ صبرت؟ مَنْ سيعوّضني عن فقد كلّ تلك اللّحظات المُهدرة؟ لا أحد، لا أصدقائي ولا أمّي ولا أبي الذي لا أدري على أيّة هيئةٍ سيأتيني؟!

كانتْ بعضُ النّساء في القرْية، مِنْ اللواتي يحتفظن بعلاقةٍ حميمةٍ مع أمّي، أو اللواتي حيرهنّ أمرٌ ما، أو اللواتي سئِمن مِنْ الوحدة، يدعونني للجلوسِ معهنّ أمام بيوتهنّ، يمصمصنَ شفاههنّ، يتذكّرنَ، يسردنَ أحداثًا عن ماضٍ قديم، معظم هذه الأحداث لا أستوعبه بالتّمام، فما جرى في زمنٍ فات، لا يُمكن أنْ يلمّ به عقلي الذي لم تعتركه الحياةُ بعْد، ولم يختزن تجاربه الخاصّة، ولم يعرف إلّا معانيَ الألم، كان لأمّي دورٌ كبيرٌ في بثّ روح الألم بداخلي، لم أرها إلّا على صورةٍ شبحية، صورة متهالكة، كأنّها مِنْ بعْد فقدان أبي ماتتْ روحُها، وكثيرًا ما تُشبعني بمثل هذه الرّغبة الحقيقية في الثأر، كثيرًا ما تقول إنّ لنا ثأرًا عند هؤلاء؛ أهل القرْية، ولابدّ أنْ نأخذه، ولو بعْد حين.

على بطونِ النّساء أضعُ يدي، كان يُمكنني، في مثْل السّن هذه، أنْ أفطِن إنْ كانتْ المرأةُ حُبلى، في ذكرٍ أو أنثى، في شهرٍ أو شهريْن، لا يعرفنَ أنّ هذه عطايا الأصدقاء ذوي الأجنحة، يخبرونني بأسْرارِ البطونِ، يكشفون لي أسرارًا أخرى، إنْ بُحت بها يُمكن أنْ تقوم قيامة القرية، أسرار النّساء

اللـواتي يذهبْنَ خلسـةً إلى معبـد الغربـاء، يضاجعنَ حجرًا، ويهبن أنفسـهنّ للخطيئـةِ، يكشـفون لي أسرارَ الغُـرفِ المُغلقـةِ عـلى آثـام العـالم، يكشـفون لي ذنـوبَ الرّجـال، وأمـراضَ أجسـامهم، وكنـتُ إذا رجّحـتُ مرضًـا، تمّ الشّـفاءُ، وإذا وضعـتُ كفّـي عـلى رأسٍ تطيـب، رغـم ذلـك، ظـلّ الرّجالُ ينعتونني بالملعـون، وظـلّ كثـيرٌ مِـنْ الأولاد يتحاشـونني، ببعـضِ الرّهبـة وبعـضِ التأفّـف، حتّـى إنّ بعضَهم، تحرّشـوا بي.

الـدّربُ مظلـمٌ، إلاّ مِـنْ إنارةٍ خافتـةٍ قادمةٍ مِنْ ضـوءِ القمر، كان المشـهدُ ليلـة ذاك كأنّـه لوحـةٌ باهتـةٌ لقريـةٍ هالكـةٍ، ومِنْ على حـوافِّ القمـر البعيد تبـدو دمـاءٌ تتقاطـر، وعـلى زوايا الـدّربِ، تتشـابك الشّـجيرات القصيرة.

في بدايـةِ هـذه اللّيلـة، تحسّسـتُ طريقـي إليهـا؛ «ظبيّـة»، إنّهـا لامسـتني بأصابعِهـا واشـتبكنا في مناجـاةٍ طويلة حين كنتُ محبوسًـا خلـف القضبان، كانـتْ الوحيـدة التـي يُمكـن أن تنجـرف عاطفتـي نحوهـا، تتـوه منّـي ملامحُهـا أحيانًـا، أتلصّـص في أعماق اللّيل عـلى بيتِها، كان صوتُهـا يحرّك كلّ ملامحهـا بداخلي، ليـس بالإمـكان أنْ أبدأ لحظتـي معها، اللّحظـات الأزلية هـذه نُخلـق لهـا، وتُخلق معنـا، كنـتُ أحكي لأمّـي عنهـا، لأصدقائـي، إذا صادفـتُ مرورَهـا أمامي أسـكنُ كتمثـالٍ جامـدٍ، إنّهـا البنتُ التي لا تُشـبه البنـات، وقالـت لي منـذ قبـل في حديـثٍ خاطـفٍ إنّي لا أُشـبِه الأولاد، إنّه القـدر إذًا، أنْ يخلـق الـرّب بيتينـا مقابلـين لبعضهـما في دربٍ ضيّقٍ.

يـا رب، أنـا بأقبـح الصّفـاتِ وهـي بأجمَلِهـا، أنا في آخـرِ العِشـق وهي في أوّلـه، أنـا بمنتصـفِ المسـافات الهالِكـة، وهي عـلى أطـرافِ البدايـات، أنا ممنـوحٌ وهـي مانحـة، أنـا معتـوقٌ وهـي عاتِقـة، أنـا كالأزلِ، كالصّمْـتِ،

كالخوفِ، وهي كالنّور، كالأبد، كالصّخب، فهبني لقاءً، يجعلنا نختصر كلّ المسافات ونلتقي سويًا على مسافةٍ بيضاء، نختصم القَدرَ فأعيش، لمرّةٍ أولَى، حياةً حقيقيّة.

خرج وجهُها فأجفلتُ، بدت شعرتْ بتلصّصي، فعقدتْ حاجبيها، رغم ذلك، التقطتُ إشارةً من عينيها ببدء الحوار الخاطف الذي اعتدتُه، كيف حالكِ؟ تردّ بابتسامةٍ، وخصلةٌ من شعرها تتمرّد فتنفلتْ، تسطع كأنّها بريقُ الأمل، أحدّق في وجهِها ولا أكتفي، تشعر بي، إنّها تشعر بي، ليس يفعل أحدٌ سواها، هل يُمكنها تصوّر العبث الذي يسكنني؟ إنّ مُجملَ العبث في كوني واقفًا مثْل حطبةٍ أحجز الطّريق بين عينيها والقمر، لكنّ القمرَ مُظلمٌ، وهي متلألئةٌ، أودّ أنْ أقول لها إنّ الحكايات كلّها جزافيةٌ، كيف يُمكن للواحدِ أنْ يصنع تاريخًا لولا عشوائية الحكايات؟ تُرى مَنْ يصنع الحكايات واقع الأمرِ يا «ظبيّة»؟ أنحنُ حقًّا مَنْ يصنعها؟ أللعبث دورٌ أصيلٌ في تحديد مسار الحكايةِ؟

أريدُ أنْ تكون هي أحد أدوات حكايتي التي لم تكتمل بعْد، كلّا، إنّها الحكايةُ كلّها، إنّها اللّذةُ التي لم يذقُها بشرٌ.

اللذّةُ لذّة روحي، وأنا أفحص كلّ ملامحها كأنّي سأستدعيها في زمنٍ قادم، تمامُ اللذّةِ يجيء بالتّجانس بيْن روحٍ وأخرى، ولكنّي لم أزل معلّقًا في الطّريق إليها.

- وقفتُك لا معنى لها!

انتبهتُ، وهي تبدأ حوارًا محكومًا عليه بالاقتضاب، لكنّي لم أتحرّك.

- «روح»، أريد أنْ أسقي هذه الشّجيرات!

وأشارتْ بيدِها نحو الشّجيرات النّابتة أسفَل النّافذة، تزحزحتُ قليلًا، أمكنها أنْ ترشّ الشّجيرات بالماء، وأمكنني أنْ أتطلّع في جانب وجهِها أكثر، وهي تستدير تمصمص شفتيها في دلال، ثمّ تستكمل عملها مع الشّجيرات، كانتْ ملامحُها دقيقة، بها توهّج غامضٌ، وإنْ بدا أنّها لم تنم منْذ ليالٍ، قلتُ:

- أستطيع أنْ أصنع وجوهًا مِنْ هذه الشّجيرات!

- تستطيع فعل كلّ ما يُدهشني.

ارتبكتُ، نشأة الطّفولة معها تختلف كثيرًا عنْ لوعةِ الصّبا في عشقِها، ارتبكتُ وحدّقت فيها أكثر، ضحكتْ قائلة:

- ليس في البيوت غير الحكايات عنك يا «روح».

- حكايات!

- نعم، حكايات الأسرارِ التي تكشفها للنّساء، وحكايات الشّفاء الذي يجيء على يديك.

ماذا أقول لها؟ لن تصدّقني إنْ أخبرتها عن أصدقائي.

ثمّ مدّت لي يدَها التي يتقاطر منها الماءُ، وقالتْ:

- هل يُمكن أنْ تكشف لي سرًّا مِنْ أسراري؟

نفسُ الأصابعِ تتلامس، نفسُ الدّفء، الإحساس القديم، الهوى الكامن في روحي، نفسُ الرّوائح المُشتهاة، نفسُ الظبيّة، ظبيّة قلبي.

أغمـضُ عينـيّ وألمس أناملَها على اسـتحياءٍ، تتسـلّل بأناملِهـا داخل كفّي أكثـر، اسـتطعتُ أنْ أحـوز بعضًا مِـنْ روحها في هـذه اللّمسـة الفجائية، لا يخـدش الصّمـتَ غـيرُ وجيب قلبي، وبـدا القمـرُ يدنو، وفيما قليـل، راحت أجنحـة أصدقائـي ترفـرف خافقـةً، وبـدا غريبًـا أنّي لا أسـتطيع قـراءة سرٍّ واحـدٍ، بـلْ إنّ أصدقائـي لاذوا بالصّمت إثر جـلال اللّحظـة، كأنّ روحَها بيضـاء طاهـرة، كأنّ الإثـم كلّـه في مجـرّد التفكـير كونهـا تحمـل أسرارًا مِـنْ الأساس.

كانـتْ أطـرافُ أصابعِهـا تتحـرّك في بطـنِ يدي، وثمّـة زمنٌ دافئ يسـلبنا مِـنْ زمـنِ التوحّـش الـذي نعيشـه، ويدفعنـا للسّـير في مجـراه، سـأبوح لهـا بعشـقي، لا شيءَ آخـرَ أهـمّ، في هـذه اللّحظـة.

وفجـأة يتقلقـل ميـزانُ الصّمـتِ، حيـث يتناهـى صيـاحٌ إلى مسـامعي، فأسـتردّ خيـالي مِـنْ زمنِ الـدّفء إلى زمنِ التوحّـش، أبوابٌ تنفتح، وألسـنةٌ تتخاطـب، وأولادٌ يهرولـون نحـوي، و«ظبيّـة» سرعـان ما تسـحب يدَها، وتوصـدْ النّافـذة أمام بـصري، فأتظاهرُ بالشّـجاعةِ، وأنا أسـتديرُ مسـتقبلًا الأولاد القادمـين نحـوي، وفي أعينهـم نـارٌ وسـخطٌ، كأنّ بهـم يتهيئـون للـشّر، التفّـوا حـولي، وهتـف أحدُهم:

- أليسَ الوقتُ متأخّرًا على تسكّعك؟

وهتف آخر:

- كنتَ ممسكًا بيدها! هلْ تريد أنْ تدنّس هذا البيت كما دنّست بيتكم؟

وآخر:

- أنتَ ملعون.

ورابع:

- لن تمارس هذه الحِيل علينا يا بن «أسماء الرّب».

أستطيع أنْ أتشمّم كلّ هذا الحقد الذي يسكنهم نحوي، هم ممتلئون بالشّر، وأنا فقدتُ زمنًا أبيض كدتُ أتيه فيه، لم يُرعبني تحفّزهم، بلْ أرعبني تخيّل ردّ فعل أصدقائي.

راحوا في لحظة يشدّون أغصانَ الشّجيراتِ الجافّة وينزلون بها على جسمي، يصيحون، لكنّي في غمرة المفاجأة لا أستوضح بمَ يصيحون، هبطت فوقي ضرباتُهم، ثمّ حاصروني، ومضوا ينتزعون جلبابي، قاومتهم، غير أنّ أحدَهم وضع قدمه مِنْ خلفي ودفعني، فانزلقتُ للوراء، وسقطتُ على ظهري، فتكالبوا عليّ، لكماتُهم لم توجعني، عدم تمكّني مِنْ المقاومة أوجعني أكثر، شعرتُ أنّ «ظبيّة» تُباشر النّظر مِنْ خلف حشاشِ النّافذة، هنا سيُفتَضح أمرُ عالمِ الأسرارِ أمامها، دفعتُ بيديّ، وبساقيّ، لكنّ عدَدهم كان أكثر، غير أنّهم جميعًا، وفي نفسِ التوقيت، نهضوا مذعورين مِنْ فوقي.

كان التّرابُ يدور مِنْ حولنا في المدى، أصدقائي بدؤوا يخفقون فوق الأرضِ بأجنحتهم، فيصعد التّرابُ إلى فوق البيوتِ، يغبّر السّماءَ، ويهوّم في حلقاتٍ، وأصدقائي يضربون أجسامَ الأولاد، ويطوّحونها هنا وهناك، تيقّن النّاسُ مِنْ قدرتي العجائبية، حيث لم ينكشف أصدقائي عليهم، نهضتُ بعزيمةِ الغضب، وقد راح أهلُ الدّرب يخرجون،

وانفتحتْ النّافذة، وطلّ وجهُ «ظبيّة»، فاستحثّتني على الاستغراق في غضبي أكثر، وأخذت أدورُ بيْن الأولاد بركلاتي، والشّجيرات القزمة تتعملق، وتحاوط الأولادَ، وتنتزعهم مِنْ فوق الأرض، وترميهم نحو جدران البيوت الخارجية، فيرتطمون ويعلو صراخُهم، وأهل الدّرب مفزوعون، لم ير أحدهم أصدقائي، لكنّهم رأوا العجبَ الذي يحدث على يديّ، واستمسك بهم أكثر فأكثر الإحساسُ بأنّي إمّا ملعون حقًّا أحمل الأسرارَ، أو ممسوس.

وقفتُ شبه عارٍ في منتصف الدّرب، كان شعري هائشًا، والتّرابُ يغطّي جسدي، و«ظبيّة» فاغرة فاها مِنْ حيّز النّافذة، والغبارُ لم يسكن بعْد، والشّجيرات العملاقة راحتْ في بطءٍ تعود سيرتَها الأولى، وكان الأولاد قد بدؤوا ينهضون وينظرون لي في فزعٍ، فصحتُ:

- أنا ابن «درّ» الذي قتلتموه.. ابن «أسماء الرّب» التي أورثتموها الجنون..

شهقات النّساءِ كانتْ مكتومةً، وذعرُ الرّجالِ كان ينفجر مِنْ أحداقِهم، بدوا أدركوا أنّهم يتعاملون مع مسألة سماوية أبعد ما تكون عنْ مجرّد قراءة الأسرار، إنّه أنا، «روح» بن «دُرّ» و«أسماء الرّب»، بكلّ المخاوف التي يُمكن أنْ تجتاحهم تجاهي.

سرتُ بينهم بقدميْن متعافيتيْن، وكلّما دنوت مِنْ أحدهم، تقهقر للوراء متحاشيًا، سارت بي قدماي إلى كلّ الشّوارع التي لم أمرّ بها، استمدّا طاقة غريبة مفاجئة، رحتُ أسيرُ كمَنْ لا يعرف لطريقِه نهايةً، أسيرُ كأنّي

لـن أتوقّـف، كأنّ الأرضَ ستنبسـطُ تحـت قدمـيّ وتحملنـي معهـا إلى غايـةٍ غامضـةٍ، دُرت في أطـراف القرية، وأطـراف القُرى المجـاورة، ثمّ عادت بي قدمـاي إلى ضفّـةِ التّرعـة الكبيرة، كان اللّيـلُ قد جثم منذ سـاعات ولم يكن في الجـوارِ نفرٌ.

الأصـواتُ متداخلـة، أسـمعها، ولا أميّـز أكثرَهـا، تنتشر حـولي، أتلفّتُ، ثمّـة همسٌ ونـواحٌ ورجاءٌ وسـخطٌ، ثمّة تشـابكات محيّرة، أذنـاي لم تصلا بعْـد لكيفية ضبـط هـذه الأصوات.

ومِـنْ بـيْن التفافات الحشـائشِ التي تطوّق حيّز الضّفة، أسـمع خروشـةً، أتتبعهـا، يظهـر «ورل» ثـمّ يتحجّـر محدّقًـا فيّ، أدنـو منـه، «أسـماء الـرّب» بحاجـةٍ إلى حِنطـة أعوّذهـا بهـا مِـنْ آلام المـاضي، سـأحنّط هذا الـورل على بـابِ البيت، سـأصطادُه مِـنْ أجل «أسـماء الرّب»، ومِـنْ أجل رتابـةِ الزّمن الـذي يعبـث باتّزاني.

هبطـتُ خلفَـه في رويـة، أزحـتُ الحشـائشَ بأصابعـي في رفـق، وأخذتُ أهبـط وأهبـط وكان الـورل لم يـزلْ يحـدّق، ثـمّ انغرسـتْ قدمـي في موضعٍ لـيّن، فانفلـتَ الـورل يجـري نحـو المـاء، انتشـلتُ قدمـي ونزلـتُ وراءه، وسرعـان مـا أدركـتُ أنّي منزلـقٌ إلى المـاء، لم أسـتطِع التحكّـم في انزلاقـي، ليكـنْ، سأسـبح خلـف الـورل، إنّـه لعبتـي لهـذه اللّيلة.

وبينـما أسـبح في عبـابِ الماء، إذا بالماء يفـور، وإذا بي أطفـو إلى أعلى، وعلى الجهـةِ الأخـرى مِـنْ الضفّـة يـبرز مـاردٌ مغطّـى بحراشـيفٍ يندلق مِـنْ بيْن ثنياتِهـا المـاءُ، تسـمّرت مـكاني، وراح المـاردُ يقـترب، ضغطَ عـلى رأسي بعْد

أنْ مـدّ نحـوي يدًا متطاولـة، فشربتُ الماء الآسـن، وكدتُ أغـرق، لولا أنّي استجبتُ لغريـزةِ النّجـاة، ضاربًـا المـارد في بطنِـه، مبعـدًا إيّـاه عنّـي، ومِنْ فـوري، هرولـتُ -كأنّي أطير- نحـو الضفّة، وعـدوتُ قاطعًا الشّـوارع إلى بيتي .

التحفتنـي أمّـي عـلى صدرِها، كنـتُ لم أزلْ ألهج لسـتُ أسـتدرك أنفاسي، قصصـتُ عليهـا مـا جـرى لاهثًـا، أشـعلتْ بخـورًا وأطلقتـه في البيـتِ، وجـاءت لي بقـدرٍ من المـاء، وجهّزتْ طعامًا عـلى عجالةٍ، ولم أزلْ أسـترجع مـا حـدث في التّرعة منْـذ قليل.

عاقـرتُ البيـتَ أيّامًـا، أفكّـر في «ظبيّـة»، أفكّـر في الأولاد الذيـن تكالبوا عـليّ، أدركـتُ أنّ حظّـي قليـل، تمامًـا كحـظّ أمّـي بينهـم، كحـظّ أبي، لعلّنا أسرة تنحـدر مِـنْ سـلفٍ كُتـب عليـه الشّـقاء، الأفـكارُ تختلـج في رأسي، والأصـواتُ تنبعـث مِـنْ لا مـكان، كأنّهـا تنبعـث مِـنْ أثـير الهـواء نفسـه، تـراودني، وأحـاول تفسـيرَها.

لم يغـبْ أصدقائـي، لكنّـي كنتُ مأخـوذًا في سريان الأصـوات مِنْ حولي، فأهملـتُ صحبتهم لبعـضِ الوقت.

في صبـاحٍ، كانـتْ يـدٌ ناعمـةٌ تطـرق البـاب، صحـتُ أنـادي عـلى أمّـي، وبـدت منشـغلةً في أمـرٍ مـا، قمتُ أسـتجيب للطّرقـات، ولمّا انفتـح البابُ، غمـرني النّـور، كانـتْ «ظبيّـة» واقفـةً هناك.

لم أعـرف كيـف أسـتقبلها؟! كيـف أرحّـب بهـا؟! لهفتـي لهـذا اللّقـاء يـا «ظبيّـة»! دعـي لهفتـي تُدخلِك تسـتضيفك، دعينـي أمـرّر كلّ أوجاعي مِنْ

خـلال هـذا البـاب فتخـرج، كـي تدخـلي مطمئنةً.

الملامـحُ الرّقيقـةُ، الابتسـامةُ الخجـول، الأصابـعُ الممـدودة تصافحنـي، أخشـى مِـنْ لمسـة أناملـك يـا «ظبيّـة»، أخشـى أنْ ينفجـر كـونٌ في الأعـلى فتتسـاقط شـظاياه علينـا.

همستْ:

- أشعرُ بالذّنب.. لولاي ما...

أسـكتُّها وأنـا أضـع يدي عـلى فمِهـا، لا أريدُهـا أنْ تتكلّم، أريـدُ فقط أنْ أتأمّلها، وكانتْ تسـلّط عـليّ عينيها كأنّها تتفقّد أسراري، خشـيتُ أنْ أهذي في حـضرةِ هذا العِشـق، وقـد رأيتُها هالةً مِـنْ اطمئنان أتـت لتحتويني.

تقدّمـتْ خطوة، فأفسـحتُ لهـا، دخلـتْ، فأغلقتُ مِـنْ خلفِهـا البابَ، لم أعـدْ أخشـى أحدًا، إنّهم يخشـونني اليـوم، ومهما جـرى لن تتفوّه ألسـنتُهم، سـيُجبرون عـلى الصّمـت في كلّ مـا يخصّنـي، عـدا - بالطّبـع - همسـاتُهم عنّـي، والتي سـتطويها حتمًا جـدرانُ البيوتِ.

تمنّيـتُ ألّا تـأتي اللّحظـةُ القادمـة، أنْ تحبسـنا هـذه اللّحظـة فحسـب، لحظـة التأمّـل، كـدتُ أصرخ: أيـن كنْـتِ؟ لكنّي سرعـان ما أكملـتُ تأمّلي الصّامـت، وهـي لم تنبُـس.

أنـا مُجهَـدٌ، اغسـلي أوجاعي يا «ظبيّـة»، امسـحي بأناملِك عـلى رأسي كيما أسـتعيد الطّفـلَ القديمَ الـذي يحبو.

جلسـنا مسـتغرقيْن في تأمّـلٍ عذب، ابتسـامتُها كأنّهـا النّعيـم، أدركتْ أنّها

لـو تحدّثـتْ لخدشـت ملمـسَ اللّحظـة، فـآوتْ مثـلي إلى الصّمـت، نظراتُها أخبرتنـي كلّ شيء، أيّ ذنـبٍ تشـعرين بـه تجاهـي؟ إنّ الذّنـوب تتبدّل على يديـك إلى فضائـل يُمكـن أن تُبـارِك الأرض ومـا عليها.

في هـذه اللّيلـة، تمـدّدتُ عـلى الفِـراش عاريًـا، لم أشـعر بأمّـي، شـعرتُ بتحرّكاتِهـا مِـنْ حولي، ثمّ سرعـان ما خلـدتُ إلى النّومِ، وكانـتْ الأصوات قـد بـدأتْ تتضّـح أكثـر فأكثر.

وثبـتُ مسـتيقظًا، الصّـوتُ البعيـدُ يقـترب، خرجـتُ وفي أذنيّ يـتردّد الصّـوتُ، الهـواءُ بـاردٌ في الخـارج، والأشـجارُ تتمايـل في تناغم، ومِـنْ آخر الطّريـق، كان يدنـو منّـي، يتدلّى صنـدوقٌ مِنْ عـلى كتفِه، وقفتُ مشـدوهًا، هتفتُ :

- أنتَ...

صاح بصوتٍ مجلجل:

- أنـا جـدُّك «غـبري»، أبـوك، كيفما يكـون وصفـي وكيفما تشـاء، وأنتَ «روح» بـن «أسـماء الرّب».

قلتُ:

- ابن «دُرّ».

- ابن الأزمنةِ المُهدَرة.

وحـطّ يـدَه عـلى كتفي، ثـمّ نظـر في عينيّ نظـرةً طالتْ، بـدا كأنّـه ابتلعني وبعثنـي مِـنْ جديـد، أقامنـي عـلى هيئـةٍ نورانيـةٍ، شـعرتُ أنّي كنـتُ أنتظره

منْـذ الأزل، الصّـوتُ تجسّـد، والمـؤرّقُ اسـتراح، والـسّرُ يتهيّـأ، وفي جمـودِ اللّحظـة المهيبـة، تزيّنت الأشـجارُ مِنْ حـولي بالضّـوء، اللّيلُ لم يعُـد مُظلمًا، العصافـيرُ تصنـع دوائـرَ مغـرّدةً، الصّـوتُ تجسّـد، تمثّـل لي، فارتميـتُ عليه مشـتاقًا، همـس في أذني:

- لقد بُعثتُ بعْد أنْ استدعيتني.

- كنتُ أعرف أنّك قادمٌ.

- هذا وعدٌ قديم.

- لقد انتظرتُ هذا الوعد.

- أثمـنُ الوعـودِ وأصدقُهـا، تلـك التـي تصمـد مهـما طـال الزّمـنُ، أو تقطّعـتْ السّـبلُ، مهـما اسـتحالت الظّـروف، أو خلـت الأماكـنُ، أثمـنُ الوعـود تلـك التـي لا يكـون اللّقـاءُ شرطًـا لهـا.

جلسـنا عـلى حافّـةِ الزّمـن، عنْـد أطـرافِ القريـة، سرد لي وقائـعَ صحبته لأبي، وحدّثنـي عـنْ العرائـس التـي تحتفـظ بهـا أمّـي، أخبرتُه عـنْ حيرتي، عـنْ أصدقائـي وأسراري، قـال:

- معظمُ الأسرارِ لم تُعلن بعْد.

- أسراري..!

- بلْ أسرارُ هذه القرية، أنتَ لا تعرف ما يربض داخل هذه البيوت.

أشار بيدِه نحو عمق القرية، وأكمل:

- سأعلّمك الأسرار.

- لقد استهلكتْ رغباتي كلّ الأسرارِ يا جدّ.

- أيُّ أسرارٍ يُمكن أنْ تُستهلَك؟ الرّغبات ابنةُ الأسرار يا «روح».

- إذًا لماذا أشعر أنّ الآخرين يستهلكون رغباتهم مِنْ خلالي؟

- إنّهم يمرّرون رغباتهم مِنْ خلالك لأنّك شفّاف، مجرّد رُوح طليقة، لكن يُمكنها يومًا أنْ تعصف بالدُّنيا وما فيها، وتُنهي كلّ الذي بدأته شرورُهم.

ثمّ توكّأ على كتفي ينهض، وقال:

- مِنْ قبْل، لم تكن النّهايات تعنيني كثيرًا، في الغالب لم يكن يعنيني سوى بدايتي، ربّما باتت كلّ النّهايات أمرًا نسبيًا مجرّد التّفكير فيه عبثٌ.

عندما شاهدته أمّي، بدا انكتم صوتُها، صحتُ فيها، فلم تسمعني، جهّزتْ الزنجبيل، واندهشتُ أنّ شرابه القديم لم يزل متاحًا في بيتِنا، صاح في لطفٍ:

- لي أمانةٌ مستردّةٌ يا «أسماء الرّب».

حين سألتُها فيما بعد عنْ هذه الأمانة، قالتْ:

- إنّ الجَدّ «غبري» يهذي يا «روح»، يختلط في حديثه الجدُّ والهزارُ.

ثمّ أردفتْ وهي تحدّق فيّ بعينيْن ناصحتيْن:

- والحذرُ يا ولدي ممّن إذا أراد أنْ يصل، رافقك ليصل، ثمّ إذا وصل انفصل.

- أيُّ وصولٍ يبغيه الجَد مِنْ مرافقتي؟

- إنّه بئرٌ لا يُمكن بلوغَ عمقِها يا «روح».

أقامَ في البيتِ المهجورِ الذي استخرجتُ مِنه خبيئة الدّم، استطاعَ أنْ يقوم بتجهيزه للسّكنى في ليلةٍ واحدةٍ، ولم يكنْ أحدٌ في القرية يخاطبه، كأنّه غير موجود، أو كأنّهم يخافونه، كنتُ أنا فقط مَنْ يقوم على صحبتِه وخدمتِه، رغم تحذيرات أمّي، كانتْ تقول إنّ الجدّ «غبري» مسكونٌ بالأسرار، وقد تفتك بي أسرارُه ولو بعْد حين.

تمرّ الأيّامُ، يعلّمني مِنْ أسرارِه ما يُمكن أنْ يشمل به عقلي، وأُنصت إليه، كنتُ أشعر معه بألفةٍ لم أشعر بها منْذ قبْل، يجذبني إليه كما تجذب الأرضُ أحمالَ نفوسِنا، وكنّا -إنْ بدت الشّمسُ في حمرتِها المزاجيةِ الغاربةِ- نخرج، يومًا مِنْ بعْد يوم، نجلسُ رفقة أحدِنا الآخر على شطّ التّرعة، وأسطح البيوت مِنْ الوراء تطالعنا ونحن نسامر المياه، يقول:

-ماذا تريد أنْ تصيد اليوم؟

- مِنْ هذه التّرعة..!

فيغمز بطرفِ عينه مداعبًا، يمصمص تجويفَ فمِه الخالي، ويفتح صندوقَه، يُخرج صنّارةً، ويتركني أرمي صنّارته نحو فضاء الماء، وننتظر معًا .

-لقد أحببتُ «دُرّ» يا «روح»، وحين قتلوه، قلتُ سأكفّ عنْ الصّيد.

-تُرى يا جدّ لأيّ حدٍّ أُشبه أبي؟

-لحدّ الكمال.

ثم يُشير إلى صدرِه، ويهزّ رأسه في أسف ويُكمل:

-انظُر يا «روح»، لقد فرُغت الدّنيا إلاّ منّا، لم يعد لنا غير تلك الحكاية.

ويلوّح بإصبعه الهزيل نحو الصّندوق، ثمّ يتمتم:

-لم يعُد لنا غير التذكّر والصيد.

قرصُ الشّمسِ يغطس إلى زوالٍ داخل أخدود المياه، تتداعى قبالتنا متونُ السّماء النّهارية، فتسبح ظلالُ اللّيل - رويدًا- بيْن أكفّ الأفق المفرودة، أقولُ والصنّارة لم تؤتَ صيدًا بعْد:

- أيّ صيدٍ مِنْ هذا الماء الآسن يا جدّ؟!

ينهاني عنْ التعجّل، يقول في حكمةِ شائخٍ:

-الصبرُ يفاجئكِ بالمعجزات.. فاصْبر.

فأصبرُ، أنتظر معَه خروجَ أولى مكاسب الصنّارة، يحمل لي الهواءُ نسمات مِنْ حنين، وأنا أديم تأمّلي في جانب وجهه المليء بصفعات الزّمن.

لمَ عيناك شاخصتان في عبّ المياه؟ تُرى يا جدّ «غبري» ما الذي قد يسفر عنه صيدُ اليوم؟ مالك شارد شرود الموج؟ هل يحفل شرودك بالذّكريات؟

يهتـزّ بين أناملـه خـطٌّ اتّصالِنا بالتّرعـة، ترتجف يـدُه قليلًا فأثبّتها بمسـكةٍ مِـنْ يـدي العفيّـة، نشـدّ سـويًا الصنّـارة والمـوج يتـلألأ، ثـمّ فجـأة يغشـى أعينَنـا بريـقٌ لم يكن في بهائـه مثيلٌ، كانتْ نجمـةٌ أرجوانيـةٌ، أو هكذا بدا لي.

نلمّ سويًا - وأنفاسي مُختَطفة- بدنَ النّجمةِ الرّخو وندفئها في ثوبي.

-جدّ «غبري».. إنّها نجمةٌ حيّة!

-ومتـى كانـتْ النّجـومُ ميّتـةً؟ كلّـما أفلـتْ روحٌ عـلى الأرضِ سـقطتْ نجمـةٌ مِـنْ السّـماء في مجهـول المياه.

أخـذتْ النّجـومُ المتألّقة في السّـماء تصطفّ أعلانا في منظومـةٍ قدريّةٍ وهي تطـلّ عـلى صاحبتها التـي تضطجع في حِجـري، كانتْ النّجمـةُ ترتعش بيْن سـاقيّ كأنّهـا لم تعـرف الـدّفءَ أبـدًا، أو لعلّهـا تعزّينـي فيمَـنْ فقـدتُ! لا أدري! تخالـط عـليّ الأمـران فأوشـكتُ أنْ أنجـرف نحـو فضـاء الذّكـرى، وثمّـة دمـعٌ يتقاطـر عـلى النّجمة في حجـري فتنتفض أكثـر كما لـو أنّها تُحيى مِـنْ جديـد، كم فقـدتُ؟ ليس لي سـوى أمٌّ تتحايـل بـأواصرِ البقاء!

مـوجُ التّرعـةِ يتدافع نحونـا مزدانًـا باللّمعـان، ومِنْ صفحته تخـرج هوامٌ فردوسـية مضيئة إضـاءة ذكـرى لم تبارحني.

قال الجدُّ «غبري» في وهنٍ:

- تلك أرواحُ الماء تحتفل بتمامِ صيدنا.

ومضى يردّد مبتسمًا:

- كلُّ روحٍ آفلةٍ نجمةٌ في عرضِ ماء.

وفي السّماء، تدور النجومُ دورةً غير مسبوقة، يحتويني غديرٌ مِنْ سحرٍ طالعٍ إلى أعلى، يمسّ رُوحي والنّجومَ، فأشعر بنبضِها، ودفئِها، وأرومُ صوب لذّة الإحساسِ بالبريق الذي أضاء الكونَ مِنْ حولنا.

مصفوفةُ النّجوم بأكملها مضتْ تتساقط نحو التّرعةِ نجمة تلو أخرى، كأنّ العالمَ إلى فناء.

أجل، كأنّ العالمَ إلى فناء.

وظلّ الجدُّ «غبري» يقلّب في التّراب بيدِه، ثمّ التفت نحوي قائلًا:

- هل تعرف أنّ التّرابَ عجيبٌ؟! فيه جميعُ خصائصِنا.

وتقرفص، وأكمل:

- التّرابُ سرُّ الحجرِ وسرُّ الرّملِ وسرُّ الرّوح، في التُّرابِ تكمُن المشيئةُ، التّرابُ أصلُ الحكايةِ يا «روح»، في البدءِ كان التّرابُ، وقبْل البدءِ كانتْ الأسطورةُ، والأسطورةُ تقول إنّ أرضَ البشر هي أصلُ طاقةِ الشّر التي سادت هذا الكون مِنْ بعْد، والأساطيرُ تُنجب أساطيرَ، والكونُ خرافيٌّ، أرضُنا هذه؛ التي تُولد عليها أساطيرُ الخلق وحكاياتهم ومآسيهم وضلالهم، وعليها تفنى، وكما لم يعرفها أحدٌ مِنْ ذي قبْل، لم تكنْ أرضًا، كانتْ بحرًا عظيمًا، متلاطمًا، رأيتُه بعينيّ، قاعُه أرضٌ، وقمّتُه طوفانٌ هائلٌ، يصل عنانَ السّماء، ويقتحم بوّاباتها، أمواجُه تبلغ هالة الرّب السّاكن في قلبِ السّماء، والرّبُ يقرّر، وتكون المشيئةُ.

وصمْتَ قليلًا يستشفّ مدى إنصاتي، ثمّ استطرد:

- أوليس المجدُ للإنسان في نهايةِ المشيئة؟!

لم يكنْ منطقيًا أنْ أفهم كلامه، لكنّي فهمت، بإيحاءِ المعنى، ووجدتُ نفسي منساقًا أكثر لاستكمال حديثه في بيتِه، سرنا بيْن الشّوارع، كعلامتي تعجّبٍ انبذرتا مِنْ أحشاءِ الأرض، وعندما بلغنا البيت، أغلق بابَه، ولامسني بأصابعه، همس وهو يقترب مِنْ أذني، ويشدّ على ساعدي:

- لماذا أطلقت اللّعنات يا «روح»؟ لماذا استدعيتني مِنْ الموت؟

كلُّ الأفكارِ خاوية، والذّكريات لها طعم الطّين، أيّ لعناتٍ يا جدّ؟ أنا أسير بلا رُوح، أسير بينهم أنكّس رأسي، عليّ أنْ أحمل عبء لعنتي أنا لا لعناتهم، سأظلّ بينهم ساخطًا ومكسورًا وعاجزًا، ليس مِنْ سلاحٍ لديّ غير السّخط على قرية لا تعترف بإثمٍ قدر اعترافها بزيفٍ، أجل أسير في الطّريق بلا رُوحٍ يا جدّ، بلا معنى، يقودني العبثُ، ويحملني الألمُ فوق كتفيه، ويعصف بي مجونُ العجز وقلّة الحيلة، وعلى قارعةِ الطّريق، أجده أمامي، فارعًا، كشّجرة قديمة ثابتة داخل حشاش الأرض، وفرعها في السّماء، كان واقفًا في يده غصنُ زيتون، ويرتدي لباسًا مِنْ حرير أبيض، وبعينيه تسكن الطمأنينة، أرى أبي يا جدّ كلّ حينٍ وآخر.

ظللتُ أيّامًا أفكّر في أمرِ اللّعنات التي اتّهمني بها الجدّ «غبري»، لا أخرج ولا أطالع وجهًا غير وجه أمّي، أيّ لعناتٍ يا جدّ؟!

وبعْد أيّامٍ مِن عُزلتي، لمّا عصف بي الاشتياق إلى الجدّ «غبري»، وألحّ عليّ حنينُ الصّحبة، وجدتني أهرول إليه فجأة، وهاجس غامض يحرّكني، وفي عينيّ اعتذار عنْ كلّ الأيّام الفائتة التي لم أزره فيها.

- هلْ تأخّرتُ عليك؟

- كثيرًا..

وارتميت على صدرِه باكيًا.

- جدّ «غبري»، حدّثني عنْ اللّعنات.

- دعك مِنْ هذا الأمر وابكِ، ففي البكاءِ شفاءٌ.

- لماذا غِبت عنّي كلّ هذا الزّمن؟

- مصيري يا ولدي.

- ومصيري؟!

- مكتوب.

ولمّني بيْن ذراعيه، فاضتْ دموعُه مع دموعي، وخضّبتْ الأرض، وجمُدت مِنْ حولنا التّفاصيل، فلا الرّيح ظلّت، ولا الأصوات، غاب كلّ شيء، كأنّنا انتقلنا لعالمٍ موازٍ، تساندت على كتفِه وعجزي ماكنٌ في بؤرة سحيقة في رُوحي، وكان قد بدأ يتطاول، وينفرد، ويفرش رداؤه بطنَ الأفق، ورُحت أتطاول معه، كأنّنا يُسرى بنا، في رحلةٍ عجائبية، والكونُ أخذ يقترب، الكونُ البعيد، والبشرُ مجرّد ومضات نافقة تهوّم حولنا ومِنْ ثمّ تفنى، ووجهه يشعّ، كنبراسٍ مِنْ نور.

- فلتترك القدرَ ينفذ، ولا تبتئس.

- علّام تحرّضني يا جدّ؟!

- طاعـة الزّمـن، طاعة القـدر، المصير، طاعتـي، الطّاعـة في النّهاية واجبة يا «روح».

- إتيانُ الإثم يأتي أيضًا عبْر الطّاعة يا جدّ.

- بدايةُ الخلق إثمٌ.

- لقد قلت لي إنّ بدايةَ الخلق حجرٌ.

- وقلوبُ الخلق حجرٌ كذلك.

- قلوبُ الخلق انتهكها الشّر.

- لا، اذهب بعقلك للفكرةِ الأعظم.

وترك يدي على مهل، وهبطنا نحو الواقعِ ثانيةً، وقال:

- حتمًا سيفنى عنْ الأرضِ الدّائسون، فقد حُسمتْ المعركةُ.

ثـمّ أشـعلَ موقـده، لم أكـن أُدرك مغـزى مـا يقـول، لكنّي شرعـتُ أخبره عـنْ قصّتي مـع «ظبيّـة»، أخبره عـنْ لقاءاتنـا المتفرّقـة، قال:

- هو عشقٌ قديمٌ إذًا!

قلتُ:

- أقدم مِنْ أسراري نفسها.

- وهلْ عشقُك أيضًا سرٌّ يا «روح»؟

- عشقي حيّرني يا جدّ.

- عشقُك إنْ لم يكن على الملأ فهو عشقٌ مبتور، محكوم عليه بالموت.

- أرشدني يا جدّ..

- فلتقُم بما هو مفترضٌ.

حدجتُه بنظرةٍ متحيّرةٍ، وإنْ بدا لي المعنى، لكنّي قلّبت الأمر في رأسي على أوجهِه، هل سيحدث أفدح ممّا حدث؟

في هذا المساء، طرقتُ بابها، كان شهرُ «العزاء» والرّجالُ في الجبّانة، ومع تأخّر الوقت أيقنتُ أنّ أمّها نائمةٌ، فتحتْ لي الباب تدعك في عينيها، ثمّ مع اندهاشِها، ولجتُ، فتركتني أفعل ولم تزلْ مندهشةً، دكّتني في صدرِي وهي تهمس:

- طالت غيبتُك..! وإنْ كان الوقت لا يلاءم زيارتك!

- لم أغب عنكِ أبدًا يا «ظبيّة»، والوقتُ كلّه مِلك المغامرين.

- لو استيقظتْ أمّي ستذبحني!

- لو رأتني ستُغلِق عليها بابها مِنْ الذّعرِ.

فضحكتْ، شددتُها وجلستْ جواري، مددتُ يدي إلى رأسِها، قلتُ:

- سأقرأ لكِ الآن سرًّا..

أسبلتْ جفنيها، قلتُ:

- أعشقُكِ.

فتحتْ عينيها فاتّسعتا شوقًا، وزفرتْ زفرةً حارةً وهي ترتجف تحت

يـدي، تسـلّلتُ إلى أزرار عباءتهـا، فككتُهـا، لم أعـرف سرَّ هـذه السّـخونة التـي لفحـت وجهي وأنا أسـقطُ بفمـي على صدرِهـا؟! لم تسـتجبْ قدر ما بوغتـتْ، لحظـة المباغتة هي أشـدّ اللّحظـات التـي يُمكن أن تتحقّـق عبْرها كلّ الرّغبـات غـير المُباحـة، صدرُهـا بـرز مِـنْ فـرط النّشـوة، فلـم أُمهِلها، اشـتممتُ احـتراقَ مشـاعرها لهفـةً وانتظـارًا، وسّـدتْ رأسي صدرَهـا وانطلقـتُ بلسـاني، كان لعـابي يجـري نحـو بطنِهـا غزيـرًا، ورحـتُ أعوي لسـتُ أحذر شـيئًا، همسـتْ:

- لماذا تغيب دومًا؟! ولماذا تأتي فجأةً؟!

شـدّت بطنَهـا وهـي تتمـدّد أسـفل منّـي، رُحـت ألعـق كلّ جـزء مِـنْ جسـدِها، تعرّينـا، كان الضّـوءُ في الخارج يخبـو مضطّـرًا، كأنّي أمرتُه، وكنتُ أسـمع صـوتَ تأوّهِهـا كما لـو أنّه قـادمٌ مِـنْ عُمق رغبتـي، غالبـتْ نزعاتَها إلى الـصّراخ حتّـى لا تسـتيقظ أمّهـا، فبـدا الاحمـرارُ عـلى وجهِها وهـي تئنّ تحتـي، غرسـتْ أظافرها في سـاقيّ تدفعني للولـوج أكثر، لم أرتـوِ وأنا أنزلق داخلهـا كأنّي أهـوي مِـنْ حالقٍ.

في هذا المساء، بدتْ المعاني تُعيد ترتيب نفسها مِنْ جديد.

وفي المسـاء التّالي، حين اسـتيقظتُ أخـيرًا، وجدتني أهـرول إلى بيتِ الجدّ «غـبري»، لمحنـي ولم يبـدُ عليه فرحـةُ كلّ لقاء، كان جالسًـا يعبث بعرائسـه كأنّـما لا يأبـه لـشيء، يجلس أرضًـا جوارهم مسـتندًا بظهره على جـدار بيتِه، وكان يتنـاول بتـأنٍ شـديدٍ أطـرافَ الخيـوط المتعلقة برؤوسِـهم، ويشـبكها بأصابعِـه إصبعًـا إصبعًـا، ويرفـع عينيه صوب سـماء بـدتْ تلبدّها بقـعٌ مِنْ

غيومٍ داكنة، بلْ بدا يراقب سوادَها حين ينفرج عنْ بؤرٍ يتخلّلها شيءٌ مِنْ ضوء القمر، وفيما تتشابك أناملُه كلّها مع أطرافِ الخيوط، ببطء كان يشرع في دندنةٍ غير مفهومة، ثمّ يبدأ في تحريك الخيوط فتتحرك معها عرائسُه المرتخية، لوّح لي فذهبتُ وجلست جواره.

- هلْ تعرف كيف يُمكن أنْ تُصنع العرائسُ يا «روح»؟

هززتُ رأسي نفيًا، فقال:

- بالألم، اسمعها، إنّها تتأوّه.

وأغمضَ عينيه كأنّه يستمع إلى تأوهاتها، وبدتْ تتراقص تحت أصابعِه.

- كلّما أغمضتُ عينيّ راودتني أصوات التأوّهات، تأوّهات تحمل مِنْ الأسى قدر ما تحمل مِنْ سكينةٍ، فتتملّكني النّشوةُ.

ازداد قبض لسانِه على وتيرة الدّندنة، وأخذَ يتأرجح، بتؤدةٍ، بلا إرادةٍ، يتأرجح، ويردّد:

- الأقدارُ صانعةُ الألم.

وسكتَ، ثمّ تمتم:

- لكنّ الأقدارَ لا تصنع خطايانا.

ثمّ أمسك عنْ دندنته غير المفهومة، وحدج العرائسَ الصّامتة بيْن يديه بنظرةٍ حانقةٍ منذرًا:

- كفاكم ضجيجًا في عقلي، عرائس أنتم لا أكثر.

شعرتُ بخوفٍ، لكنّه استقام واقفًا، قذفهم جميعًا مِنْ بيْن يديه فتساقطوا مبعثرين، حاولتُ أنْ ألملهم، إنّما صاح:

- احذر.. ستدبّ فيهم الحياةُ عمّا قليل.

وهبّ إلى عُمق بيته، لمحتُهم بطرفِ عيني وبدا لي أنّهم يتحرّكون بالفعْل!

مِنْ الدّاخل، تتهاوى أشياءٌ وتتحطّم، شعرتُ وكأنّ قلوبَ العرائسِ كذلك تتهاوى وتكاد تتحطّم، شعرتُ بهم يرتجفون، والجدّ «غبري» مِنْ الدّاخل كان يضحك بصوتٍ مجلجلٍ، خرجَ وكانتْ نظراتُه زائغةً تطوّف فضاءَ الشّارع.

ثمّ برز مِنْ يده موس، وبدا لمعانُ حدّ الموسِ كلمعانِ كلّ مخاوفي، صرختُ وشفتاي ترتعشان:

- ماذا ستفعل يا جدّ؟

لم يجبني.

والتقطَ عروسةً منهم، ساقطًا على رقبتِها بالموس، جزّها كما تُجزّ رقبةُ خروفٍ، فانفصلتْ عن الجسد، وكان يضحك، ويضحك، ويحتوي سماءَ العالم كلّه بنظراته غير المستقرّة، صحتُ فيه:

- جدّ «غبري»!

إنّما؛ تحجّر مرّةً واحدةً، حين تدفّقت نافورةٌ ضعيفةٌ مِنْ دماء، وتحجّرتُ كذلك، كانتْ نافورة تقبّ مِنْ رقبة العروس، تحجّرتُ ولم

أستوعب، لكنّي خفتُ، نفس خوفي القديم مِنْ الحياة، نفس الحياة التي دبّت في غرائبية بأجسادِ العرائس الأخرى، التي راحتْ بسرعة تتقافز إلى آخر جدران البيت، وتتكوّم جوار بعضها منكمشة، قلتُ في نفسي وقد استأسد بي الخوفُ أكثر:

- أخبرتني أمّي إنّه مسكونٌ بالأسرار!

فردَ ساقيه وتنهّد، وبإبهامه حجبَ عنْ رقبةِ العروس منفذَ الدّم، ورمى إلى السّماء بصرَه، بدتْ السّماءُ تناصبه العداء، وأخذتْ تخرج منه الدّموعُ وأنا مندهشٌ، كيف لمثلِه أنْ يبكي من القهْرِ؟ تخرج الدّموعُ منحدرةً إلى صدرِه، كما مضتْ تنحدر إلى العروسِ الصّامتةِ بيْن يديه فتبلّلها، فتبدو ارتجافةُ جسدها مستجديةً، لينحني ببصرِه آسفًا نحوها، فينتفض، يهبّ واقفًا كأنّه استفاق فجأة، ويهرول إلى الدّاخل مرّةً أخرى، وكلُّ العرائس يتابعونه بأعينهم المغلوبة ونظراتهم المتوجّسة، أعينهم الضّيقة ضيق الأمل، غير أنّه لا يستغرق وقتًا إلى أنْ يعود حاملًا بيْن أصابعه خيطًا وإبرة، يجلس مكانه، يتناول رأسَ العروسِ ويرتّقها بالجسد مرّة أخرى، وبعْد قليل -بعْد أنْ يكتمل تلاحمُهما، وبعْد أنْ يزفر أنفاسَه فتهدأ، ويزدرد لعابَه منتظرًا- تكون السّعلةُ التي تطلع على استحياءٍ هي بادرة قاطعة على رجوع الحياة ثانيةً إلى جسدِ العروس الممزّق، التي ترمقه برهبة، وتنسلّ مِنْ بيْن يديه، منضمّةً إلى الإخوة والأخوات، وبدوا يتحسّسون جميعُهم تشوّهات كلّ مساء فوق الوجوه، باضطرابٍ، وحسرةٍ، وهم يحملقون فيه، في جلسته عنْد زاويةِ جدار البيت، في تأمّله المعذّب لأفقِ السّماء.

قلتُ لعلّهم يدركون أنّ ما تتركه عادتُه في ممارسة طقوسِه فوق وجوههم ورقابهم وأجسامهم آثارًا قد لا يمحوها زمنٌ، رغم ذلك كانوا ينساقون وراء نشوته صاغرين، ولعلّ ما يخفّف وطأةَ الألم، ويدفعهم أحيانًا للبكاء مثْلما يبكي، بل كثيرًا ما أشفقوا عليه، في الواقع -وتحت كلّ الظروف- هو رابطةٌ مِنْ نوعٍ شبه أبدي.

كان مطرٌ يتراشق مِنْ السّماء فوق رأسينا، وينفذ مِنْ ثقوب السّقف، فظلّ أمامي يرتجف، دون حتّى أنْ يفكر في حماية وجهه مِنْ قطرات المطر القاسية الباردة، ترك نفسَه للعرائس، فتركوا له أنفسَهم، وزحفوا نحوه بحذرٍ، ولمّا اطمئنوا أنّه هدأ أكثر، خمشوا ساقيه بأظافرِهم الضئيلة، وصعدوا ببطءٍ على جسده، إلى وجهِه، شكّلوا ساترًا حاصر الأمطارَ، حتّى انقطع نزولها.

واستدارَ لي يقول:

- أنتَ صغيرٌ على إدراك الحقيقة.

- لكنّك قلت إنّك بُعثت حين استدعيتُك.

كان القلقُ باديًا على ملامحي، فقال:

- هل قمت بما هو مفترضٌ؟

صمتُّ، ففهم، دنا منّي، سحب صندوقَه، سند يدَه عليه، وقال:

- ثمّة أسرارٌ إنْ أُدركتْ أهلَكتْ.

- وثمّة أسرارٌ لو لم أدركُها لهلَكْتُ.

- لكَ ما شئت.

وأخرج مِنْ صندوقِه أوراقًا متهالكة، استطرد:

- سأتلو عليك كتابي، وستحفظه، ثمّ تتلوه عليهم.

وأشار بيدِه نحو بيوت الدّرب.

- أيّ كتابٍ يا جدّ؟!

قلتُ منفعلًا، فأجاب:

- لقد أحطت بالأسرارِ منْذ قبْل يا «روح»، ليس غريبًا أنْ تُحيط بسرٍّ آخر!

- ولكن....

قاطعني:

- هؤلاء..

وأشارَ بيدِه إلى الخارج.

- يعرفون..

ثمّ استقام واقفًا، تقهقرتُ للوراء، بدا الانزعاجُ في عينيّ، إنّ هذه اللّيلة فارقة حتمًا يا جدّ «غبري» في مسار علاقتنا، في هذه اللّيلة تحديدًا، أشعرتني بالخوفِ منك.

يتمتم وقد ابيضّت عيناه:

- يعرفـون أنّ الرّبَ مـات، أنّ العالمَ طاش، واللّعنـات فاقت كلّ احتمال، ومـا بُعثت إلّا لأُعيد للعـالم اتّزانه.

تراجعـتُ بظهـري مذعـورًا، كان الجدُّ «غـبري» يتضخّـم ويفترش مدى البّـصر بجسـدِه، يزيح جـدران البيتِ بذراعيـه، فتتفسّـخ، وكان ثمّة غرابٌ أعلانـا يتحـوّل إلى طائـرٍ خـرافيٍّ بلـونِ النّـار، وبـدا كلّـما أوشـكتُ عـلى الخـروج، يتمـدّد فضـاء البيـت، وتتبـدّل طبائـعُ الأشـياء، أصـواتُ رعـدٍ عاصـف، وريـح تـزوم، وإذا بالعرائس تتصايـح، وإذا بي أنتفضُ في رعبٍ لم يسـبِق لي تجربتُـه، فصرختُ:

- مِنْ أنت يا جدّ «غبري»؟

فصاح في صوتٍ أشبه بالخوار:

- أنا أبوك، وأنتَ أمانتي.

أوليـتُ له ظهـري واندفعتُ إلى الخـارج، رحتُ أصيح: «أسـماء الرّب».. «ظبيّـة». لم أكـنْ أعـرف مـا الذي يطـاردني أو لمَ يطـاردني؟! لكنّ شـيئًا كان يعـدو في إثري، شـيئًا كالرّيـح في سرعتِه، كالغيـبِ في هيبتِـه، كنتُ أركض، والشّـجيرات التـي تنمـو تحت جـدران البيوت تتحـوّل إلى كائنـاتٍ بأنيابٍ طويلـةٍ، كائنـات رماديـة اللّـون، وبدا المـدى كلّـه رماديًا، والكائنـات تدنو منّـي متقافـزة، تحـاول الفتك بي، وأحـاول الفـكاك، والكائنات تنسـلخ مِنْ جلودِها، وتنسـلخ، لتصبـح بأحجام العمالقـةِ، وتتقشّر جلودُها السّـميكة، وتُفـرز عُصـارات لونُهـا أسـود، شـعرتُ أنّ فضـاء الـدّرب يتألّـق بألـوان النّـار، أنّ البيـوتَ اختفـت، أنّ الأرضَ صـارتْ عجينةً لدنـة، كلّما أسرعتُ

عرقلتني، أستنجد بأمّي، بكلّ أسراري، بأصدقائي، لم يكن أحدٌ هناك ليسمعني، كأنّما انفصلتُ عنْ هذا العالم، وعُلّقتُ بعالمٍ مجازيٍّ، أهرول وأهرول، وكلّ اللّعنات التي خشيتُها تطاردني، كلّ أسراري التي توهّمتُ أنّي أحيط بها.

لعلّ الرّب يملُك السرَّ وحده، عنده صفحةٌ أولى وأخيرة، الحكايات متناثرة، والأوراق، لكنّ الرّبَ يعرف، مِنْ غيره قد يفعل؟ حسبه يرانا، ويشعر بنا.

لكنْ، مع ذلك، أزعم أنّي لا يوجد فيما بيْني وبيْن الرّب غير الجدل.

وأزعمُ أنّي سُكنت بالجدل، قراءتي للعالم إمّا خاوية بلا معنى، وإمّا صالحة كقراءة لكلّ الخيالات، تساؤلاتي تكرّس لإجاباتٍ يُمكن أنْ تبدو شافيةً كاملةً، في الغالب التساؤلات في حدّ ذاتها عشوائية، أظنّ أنّ الكمالَ عاملٌ غير ثابت رغم كلّ شيء، وفيما بيْن التساؤل والإجابة المنتظرَة تاريخ دفين مِنْ الأسرارِ والحكايات.

حاملُ الأسرارِ أنا، بلا وعي، ولا منطق، لكنّي أحمل شعلةَ هذه الأرض، مِنْ منشأها، لا بأس، لا بأس إنْ رُوحي نُفخت عنْ غير دراية ربّما، أو عنْ غير حكمة، أو رضا، في البدء يكون السّرُ حتمًا، وفي كلّ حكاية نافذة، إذ علينا أنْ نروي الحكايات بنوافذها، لضمانِ الخروج الآمن، وها أنا لا أعرف طريقًا آمنة للخروج!

وفجأة، لم يكن متاحًا أمام بصري غير بيتِها؛ «ظبيّة».

طرقتُ الباب في عنفٍ، لا أحتسب شيئًا غير النّجاة مِنْ حصار

المخاوف، فتحتْ لي وبعينيها التساؤلات، أحسّت بي، فلمّا ارتميتُ على صدرِها، ضمّتني، رُحتُ أقبّلها في فمها وفي شعرِها وفي صدرِها، أحتاج إليها أشدّ ما يكون الاحتياج، تركتْ نفسها لطوفان الانفعال، ظللتُ أقبّلها مثْل محروم مِنْ شوقِ الأمومة، وبدوتُ انسلختُ ممّا أحاق بي في الخارج هناك، كأنّ الرّب عاد بي مِنْ هاويةٍ، كان أنينُها مليئًا بالعطف على حالي، بل كأنّي قد انفتح لي بابٌ مِنْ أبواب النّعيم على يديها، وأنّي- في غمرة الغياب معها- كدتُ أظلّ عالقًا عنْد هذا الباب، ولا رجوع لي، لولا أنْ طلّ علينا وجهُ أبيها مِنْ الدّاخل دون أن نحترز، لم أكن أعرف أنّ الصّباح جاء، وليلة «العزاء» انتهت!

انقضّ علينا، وانفتح البابُ وصاحتْ أمّها، وتجمّع النّاسُ، تدفّقوا إلى داخل البيت، غطّوا جسمي، رأيتُ بينهم الشّرَ يرمح، كانتْ العصيّ قد تمكّنت مِنْ كلّ عظامي، انحبستْ أنفاسي، اختنقتُ، جاهدت أنْ أستغيث، دون طائل، لم تخرج مِنْ حلقي كلمة، رغم ذلك، كانتْ ذراعا الأب تطوّقان الابنة، فاندفستْ في صدرِه خائفة، أدخلتْ أناملها أمسكت شعرَ صدرِه وجذبته مِنْ فرطِ الضّرب النّازل على جسمها، ثمّ التقفتُها منه، واحتويتها رغم العُصيّ التي تحاصرني، اتّسعت عينا أبيها، تحجّر وفي عينيه نظرةُ الصّدمة، قذفها نحو الجِدار وهو يصيح:

- لقد لبسك هذا الملعون..!

توقّفت الأيادي، كنتُ متهالكًا، وكانتْ متهالكة، كنتُ أضعف ما أكون في هذه اللّحظة، وفي لحظة الضّعف البشري تقوم الشّرور، كنتُ قد استنفدتُ جميع قواي، وأنا أسند ظهري على الحائط، كان الألمُ

شـديدًا، وأمّهـا تصيـح:

- طهّر ابنتنا مِنْ إثم هذا الملعون، الحكاية تُعيد نفسَها.

قادونـا إلى أوّلِ الصّحـراء البعيـدة، وخلفنـا جمعٌ مِـنْ الرّجـال والنّسـاء، وهنـاك، أوّل الصّحـراء، ربطـوا «ظبيّـة» في شـجرة «كافـور» عملاقـة، وولّعـوا فيهـا النّار، طفقـتْ تصرخ، لكنّهـا -وإنْ صرخت- لم تحرّك شـفقة واحـد منهـم، ولا حتّـى أبيها، ولّعـوا فيها، وسـمعوا صراخهـا، واغتبطوا، لأنّهـا بعْـد لحظاتٍ سـكتتْ، وانكتم صراخُهـا، حملوها ودفنوهـا في مكانِها، ولم تكـن لـديّ القـوّة ولا الحيلـة لفعْـل أيّ شيء، بعدما هجـرني أصدقائي، ومهـما اسـتنجدتُ بهـم، لم يُسـعفني أحدُهم.

كان الرّجـالُ قـد كتّفوني بالحبـال، وعندما شـاهدتُ بعينيّ مقتَـل حبيبتي احتراقًـا، انهار كلّ شيء أمام بصري، ولسـوف أستسـلم لـكلّ الأقدار، على مـا تجـيء بـه كيفما يتّفـق، فقـطْ رأيتُ فيـما يـرى الزّاهد وجـهَ أمّـي، كأنّ بي نلـت المعنـى المُرتجـى، وقـد كان ظنّـي أنّ الـذي أدرَك المعـانيَ كلّهـا لم يُولـد بعْـد، كيـف يُمكـن أنْ نُحيـط بـما لا يُحـاط؟ خُيّـل لي أنّي أرى أمّـي نافـذةً بوجههـا مِـنْ بـيْن حُجـب الغيم، تنظـر لي، كانـتْ تشـقّ طريقها إلى السّـماء بجناحـين قـدّا مِـنْ لـون الضّيـاء، وكانتْ تستمسـك بيـد الـرّب الممدودة، وتصعـد معـه عـلى مهـل، ثـمّ كانتْ تبتسـم، وقـد اصطحبـت معهـا اللّون الأحمـر السّـائد أمام بـصري، فصار الكـونُ أبيـض، وناديتُ عليها: «أسـماء الـرّب». وظللـتُ أنـادي، فلم تسـتجب، ولم تعـرني انتباهًا، بـل سرعان ما غابـت في انبعـاج السّـماء البعيد.

وبرغـم شروعِ الرّجـال في إبـراز السّـكاكين التـي سـينحرون بهـا رقبتي،

كان يدنـو الجـدُّ «غـبري» منّـي، يدنـو ويغطّـي صـدرَ الأفـق، وبـدا يلملم تفاصيـل المشـهد ويطويهـا داخـل صندوقه، كأنّـه سـيفرُغ مِنْ حكايـةٍ ليبدأ حكايـةً جديـدة، ويقـول بصـوتٍ كأنّـه يأتي مـن مجاهـل الأفق:

- أتنـادي عـلى «أسـماء الرّب»؟! أيـن هي «أسـماء الـرّب»؟ ألم أخبرك أنّ قريتكـم غارقـة في الأسرارِ؟ «أسـماء الـرّب» كانـتْ خبيئـةَ دمّ، أخرجها مِنْ دفتِهـا ولـدٌ ليس كمثلِـه أحدٌ.

«أسْطورتُهم»

الزّمنُ البَعيدُ مُختلَفٌ عليه، في هذا الزّمن كان جنسُ الرّجال وجنسُ النّساء، وبينهما جنسُ الأسرار، والأسرارُ هي متون كلّ الحكايات، وفي حكايةٍ قديمةٍ، كانتْ عادةُ أهلِ القرية، أنْ يجْزروا رؤوس النّخْل، ويتركونه كفيفًا عاريًا تحت عينِ الشّمس.

وفي حكايةٍ أخرى، أكثر حداثةً، استعاد النّخلُ بصرَه، دونما معجزةٍ مشهودةٍ، بينما عاد - بطرفةٍ بكائيةٍ - يرى سوادَ المصائر.

والحكايةُ بدأتْ مِنْ بيتٍ صغيرٍ تسكنُه الحكايات، بالأحرى تهجره الحكايات شيئًا فشيئًا مع جريان الزّمن، بيت في قريةٍ نائيةٍ، قيل إنّها ملعونةٌ، وقيل إنّها موبوءةٌ، وقيل آثمة، إنّما هي قريةٌ بائسةٌ، مجرّد قرية تعشّش في غياهب الصّمت.

والبيت في الظّل، والظّل لا يعني النّسيان، قدر ما يعني الخذلان، والبيت تلفّه جذوع نخيل ترقص رقصات وداعِها، والنّخيلُ مطروحٌ مِنْ بطن الأرض، كأُحجيةٍ مأساويةٍ، والأرضُ أسيرةُ الشّمس، والشّمسُ تُحاصر الخيال، مثلما يُحاصر الشّرُ -أيضًا- أزمِنةَ البشر.

والشّك أبو الشّرور وأوّلها، و«دُرّ» الذي يحمل ولدَه فوق كتفيه مباهيًا به في القريةِ كلّها ساوره الشّك، الشّكُ لا يُداخل أحدًا إلّا إنْ كان الشّرُ قرينَه، والصّدفة هي أصلُ الاثنيْن.

في مساءٍ قاتم، ودون تفسير الملابسات، أو تأويل المصادفات التي قادت لمثْل هذا الاكتشاف، كان «دُرّ» يُحدّق مفزوعًا في أوراق «أسماء الرّب»، عندما دخلتْ عليه، ولمّا رأتْ اندهاشَه تحجّرت، كيف لها ألّا تُهرق الماضي بيديها؟ لماذا تركتْ أوراقَها مستباحةً هكذا؟ عمَّ كان يبحث؟

بـأيّ حاسّـةٍ استرشـد إلى المسـكوت عنـه؟ ها هـو «دُرّ» يشـاهد المكشـوف مِـنْ جسـد «غـبري» داخل أوراقها، يشـاهد تسـجيل مشـهدٍ قديـمٍ، لرجلٍ عـارٍ لا يسـترُه إلّا حـبرٌ باهتٌ، لم تفطـن لمغبّة الأمـر وهي تسـجّله، ثمّ حين خبـأت الأوراقَ، لم تفطـن أنّ الصّدفـة يُمكـن أنْ تعـرّي المـاضي برمّتـه، وتتركهـا واقفـةً وجهًـا لوجهٍ أمـام عبثِ الاكتشـاف.

«دُرّ» لم يتفـوّه، نظـر لهـا بعينـيْن سـكنهما الـشّرُ، طـوى الأوراق في عـبّ ثيابِـه، وخـرج، كأنّـه يخشـى عـلى الدّليل مِـنْ الانطـماس، قـضى في الخارج أيّامًـا، وعـاد، ولم يخاطبهـا، يجلـس يحـدّق في فـراغ العـالم، وتشـعر بلوعتِه، يُغلِـق عليـه بابَـه، وتسـمع أنينَـه، يتركها للتمـزّع، ولا حتّـى كأنّهـا تفصيلةٌ محشـورةٌ عرضًـا في فضـاء البيت، حاولت أكثـر مِنْ مرّة مخاطبته، فأسـكتها، إنْ دنـت منـه جانبَهـا، وإنْ لاطفتـه زمجر، قالت لنفسِـها متى يقـع الشّر؟ إنّ انتظـار ردّ الفعـل يُميتهـا ولا يُقيـم إلّا مخاوفهـا، هـل تُعاقَب على مجـرّد ظنّ «دُرّ»؟ أم ينتظـر ليصبـح الظّـن يقينًـا؟ لم تكُـن تعرف ماذا ينتظـر، ولا كيف تماسـك كلّ هـذا الوقت، إلّا حـين قدُم «غـبري» إلى القريـة، وكان هذا بعْد مـرور شـهرٍ ويزيد.

كعادتِـه، اسـتضافه، اسـتطاع «دُرّ» أن يتمثّـل الهـدوء والرّزانـة، وكانـت «أسـماء الـرّب» كلّـما حاولـت أنْ تحـذّر «غـبري» ممّـا هـو آتٍ، حـدّق فيهـا «دُرّ»، لتُغلِـق عليهـا بابَهـا، مكتفيـة بمراقبـة الأمـر مِـنْ وراء حاجـزٍ.

- غبتَ طويلًا هذه المرّة يا صاحبي!

- رحلاتي في البلاد لا تنقطع.

- وما الذي أسفرتْ عنه رحلتُك الأخيرة؟

- كعادة الرّحلات؛ معرفة نوايا البشر.

- أقصد رحلتك الأخيرة إلى قريتنا، وحدّثني عنْ نواياك حينها.

وجزّ «دُرّ» على أسنانِه، بدا «غبري» اندهش، لكن «دُرّ» أخرج أوراق «أسماء الرّب» وأقامها أمام بصرِه، فارتبك، ثم همهم:

- لعلّه الخيال.

- الخيال كاشفٌ للرّغبات.

- بعضُ الرّغبات تقف عند حدود الخيال.

- وماذا إذا لم تقف؟

واستقام فجأة، هبط فوق جسد «غبري»، وكبّله، أحكم السّيطرة على ذراعيه النّافرين، وكانت عيناه احمرّتا، وصاح:

- أيصل الأمرُ أنْ يكون بيتي أحد أسرارك؟

- مهلًا.. إكرامُ الغضبِ دفنه يا «دُرّ».

وفي سهولةٍ، أزاحه «غبري» مِنْ فوقِه، ثمّ كتّفه بيدين مثْل الحطب، فتحتْ «أسماء الرّب» بابَها ملتاعة، وظلّت تضرب ظهر «غبري» وهي تنوح، أيقنت أنّ «غبري» بإمكانه أنْ يُزهق روح «دُرّ» بضربةٍ واحدةٍ، لكنّه استدار إليها، وهتف:

- فلتخبريه عن أمانتي، فلتخبريه عن «روح» بن «أسماء الرّب»، وابن «غبري»، فلتخبريه عن جرح ظهرٍ لم يندمل بعْد.

ارتعشت شفتا «دُرّ»، وجمُد المشهدُ كأنّ أطرافه تخدّرت، كان يُمكن أنْ

يتوقّع خيال الرّغبة، لا واقعيتها الفجّة، كيف لصاحبِه أنْ يطعنه بالحقيقة دفعة واحدة؟ كيف لحبيبته أنْ تطعنه بخيانتها وتُبقيه حبيبًا مجازيًا؟

كان «غبري» لم يزلْ يصيح:

- العشقُ إنْ لم يكن على الملأ يا «دُرّ» فهو عشقٌ مبتورٌ، محكومٌ عليه بالموت.

الولدُ الصّغير ابن الخطيّة يحبو حولهم، لا يفهم، يشدّ ذيلَ جلباب أمّه بأسنانِه، لكنّه بدا يشعر بالخطر، و«دُرّ» في لحظة يعاجل «غبري» بضربةٍ على رأسِه، فيتراجع للوراء، ويبدو استحكم الغضبُ بذراعيه حدّ أنّهما تخشّبا، وطوّق بهما رقبة «غبري»، وظلّ قابضًا عليها، فتحشرج صوتُ «غبري»، وأخذ يفحّ، مستسلمًا لخدر التلاحم، سامحًا لـ«دُرّ» أنْ يُباشر كافّة قواه وذروة مقته، وبمعونة الطّيش الأعمى، بات بإمكان «دُرّ» أنْ يكتّف «غبري» بحبلٍ متينٍ، ثمّ يشدّه بذراعٍ واحدة إلى خارج البيت، وبالذّراع الأخرى، يسحب «أسماء الرّب» مِنْ شعرها، ويجتمع ناسُ الدّرب، فناسُ القرية، والصّورةُ لا تتحرّك، تتسمّر الأجسادُ، تحوّم الأبصار في المشهد مستشرفةً، وتعود إلى أصحابِها وقد صار الخبرُ شبه يقينيّ، وقد فطنوا للأمر المؤكّد، إنّ هذيْن وقعا في محظور الإثم، أو اقتيدا خلف الشّر الطّليق، الجسدُ الوحيدُ الذي يتحرّك في الصّورة هو جسدُ «دُرّ»، في بطءٍ يتحرّك، يتّجه لمأربه الكامِن في نفسِه، يستلّ بلطةً، مِنْ تحت ذراعِه، يسقط بها على رأس «أسماء الرّب»، يشجّها، فتنبثق الدّماءُ، وتنوح النّساءُ، ويتحجّر الرّجالُ، أشباه الرّجالِ، وعينا «أسماء الرّب» تغيبان، ولا تصبح قادرةً على معاودة التنفّس، يتلوّى جسدُها،

ويتقوّس مرّة، وينفرط مرّة، و«روح» يدور حولهم مفزوعًا، يلحس التّراب ويعوي، ويعضّ ذراع أمّه، كأنّ به يحاول أنْ ينتزعها مِنْ بيْن يديّ أبيه اللتين تفترسها، بلْ وظلّ يوزّع نظراتَه الحائرة المذبذبة على النّاس الذين يتحلّقون المشهد، بلا جدوى، «دُرّ» يضرب بالبلطة أكثر فأكثر، وتنتشر الدّماءُ على الوجوه التي اكتفت بالمتابعة المتأسيّة، وبدتْ الأعيْنُ يضلّلها اللّونُ الأحمر، ولا تضلّلها رؤية الفِعل المجزوم باستحالتِه مِنْ قبْل، معدوم التكهّن، يضرب «دُرّ» بالبلطة، ولا يكفيه دمّ، يضرب، وتنشقّ رأسُ «أسماء الرّب»، فيهرع الرّجالُ مِنْ كلّ ركن، تقوم العصيّ، وتطيح، و«دُرّ» قابعٌ فوق رأسِ «أسماء الرّب» يستخرج عظامها، يلعنها، ينتزع قلبها، يمصّ دمها، يمزّقها بأسنانه وهو يفحّ مِنْ شدّة الحسرة، والرّجالُ يشكّلون دائرة، تخرج سيوف، وبلط، وعصيّ، وسكاكين، وفؤوس، كلّها تسقط فوق جسدي «أسماء الرّب» و«غبري»، ويستبيح أشباهُ الرّجال أرض الرّب، ويتمزّع جسدُ «أسماء الرّب» أكثر، ينسّره «دُرّ»، أجزاءً، ووحده الرّبُ مَنْ يجمع الأجزاء بعْد ذلك، أمّا «غبري»، فكان بعضُ الرّجال قد بدؤوا يجرّونه وهو ملفوفٌ في الحبل والدّماءُ تخرّ مِنْ جسمِه، وكان المشهدُ يتحرّك ببطء إلى التّرعة القريبة، وحوله غمامةٌ مِنْ التساؤلات المستنكِرة، أجلْ؛ ستتفرّق الأشلاءُ على كلّ الأمكنة، سوف لن ترحم السّماءُ أحدًا، النّساء يصرخنَ:

- العارُ في قريتنا.

الرّجالُ يصرخون:

- الفضيحةُ وسط بيوتنا.

و«دُرّ» يصرخ:

- الملعونة الآثمة.

هلْ مِنْ الممكن أنْ ينتهي العالمُ إثر معركةٍ عادلةٍ؟

الـدّربُ المفتـوحُ عـلى الشّـارعِ ينفتـح أيضًـا على الجنـون، «أسـماء الرّب» هامـدةٌ فـوق الأرضِ معجونـةٌ في دمائِها، بعضُها سـاح في بعضِها، والأقدامُ ترمـي «غـبري» في غيابِـة ميـاه التّرعة، يحـاول الإفلات، بلا جـدوى، يجذبه المـوجُ، لكـنْ تندفع ميـاهُ التّرعة إلى أعلى هائجة، تنسـكب إلى فوق، تتفسّـخ أرضُ الـرّب، وتـوجّ النـيران مِـنْ صدرِ الجبـلِ البعيدِ، ويشـقّ غـرابٌ بطنَ الجبـل، ويخرج، يتمثّـل كائنًـا خرافيًا له عـشرات الأجنحة، ينفث النّـارَ مِنْ فمـه، النّـار التـي تنتـشر بمـداد أرضِ الـرّب، بـلْ إنّـما تتقلّـب أرضُ الرّب هـذه، يصبـح باطنُهـا ظاهرَهـا، تمـور وتفـور، وتتزلـزل، ويسـقط أشـباهُ الرّجـال في براثـن الدّهشـةِ المحفوفـةِ بالذّعـر، وتظـلّ الحكايـةُ مُلقـاةً عـلى شـطّ العـدم، تظـلّ حكايـةً بلا مـأوى، ينهـدم زمـنُ أرضِ الرّب، فقـد يبدأ زمنٌ جديـدٌ، بعهـدٍ آخر.

يـسرح ابـنُ الخطيئـة «روح» نحـو شـجرة، كانـتْ دمـاءُ «أسـماء الـرّب» تجـري في التّراب لتتجمّـع تحتها، يحتضنها، فتـورف أوراقًا برائحةٍ لم تشـمّها أنـفٌ مِـنْ قبْـل، الرّوائـحُ الخبيثـةُ تجتـاح أرضَ الـرّب، وتقتحـم أرواحَهم، والشّـجرةُ تشـفط دمـاءَ «أسـماء الـرّب» داخلها، كأنّما سـوف تبعثهـا رُوحًا أبديـة البقـاء، تمامًـا كالأرواحِ السّـارحة هنـاك، مـا بـيْن كُتـل السّـحاب، وعـرش الـرّب، متجـرّدة مِـنْ أرضِ أشـباه الرّجال.

مـاءُ التّرعـة يصعـد إلى أعـلى، يـترك بعـضُ الرّجـالِ النّسـاءَ، يتركوهـنّ

لتأويل هذه المُعجزة، وجسم «أسماء الرّب» الممزّق تحمله بعضُ الأيادي، ليُدفن في بيتٍ مهجورٍ، والشّجرةُ العاليةُ الواقفةُ، الشّجرةُ التي تستظلّ بفروعها التّرعةُ خضراء المياه، المندفعةُ داخل خطّيْن مِنْ نباتِ الحلف الحادّ، الشّجرةُ التي ارتوت بدمّ «أسماء الرّب»، انحنتْ، وأسقطتْ مِنْ عليها كلَّ الثّمارِ دموعًا.

قيل إنّ أولاد القرية في هذا الزّمنِ البعيدِ، كان بعضُهم عرايا إلاّ مِنْ لباسٍ متهالك، أو زوجٍ مِنْ النِعال، يخلعونه على ضفّة التّرعة ويلعبون، وبعضُ الأولاد آخر هذا النّهار، والتّرابُ أسفل أقدامهم جمرٌ اعتادوا على لسعه، جروا بعيدًا عنْ التّرعة واختبئوا، وتركوا هؤلاء الذين كانوا منْذ قليل يعومون في التّرعة، اختبئوا، ومِنْ حولهم الهولُ والدّماءُ والذّهول.

و «دُرّ»، المتطوّحُ مِنْ سكرة الألم، وثبتْ في حجره قراميطُ التّرعة، لكنّه دعك عينيه ورمى كلّ القراميط التي تلعب في حجره وركض يلوذ بخلاء القريةِ مِنْ المجهول.

وكانتْ النّساءُ الواقفات داخل الدّربِ الضّيق المفضي إلى التّرعة يولولنَ، ويلطمنَ، وعيونهنّ معلّقة بالسّماء، فأولادُهنّ الذين كانوا يعومون في التّرعة منْذ قليل، الآن يسبحون في الهواء، وعمودٌ مِنْ ماء التّرعةِ يجري صاعدًا لأعلى حاملًا أولادهنّ يدور بهم بشكلٍ حلزوني، والأسماكُ والقراميطُ مِنْ داخل كيان هذا العمود المندفع إلى أعلى، قفزوا على القرية مِنْ فوق، البيوتُ فزعتْ، والحلفُ الحادُّ المتصبُ تقوّسَ.

الأطفالُ الحائرون أمام أعيْنِ آبائهم وأمهاتهم ظلّوا معلّقين في الفراغِ

يصرخون، وظلّت أياديهم تضرب الهواءَ هنا وهناك وأرجلُهم تركل بقلّةِ حيلة.

دماءُ «أسماء الرّب» و «غبري» انتشرتْ على ملابسهم، رغم ذلك، رغم مأساوية المشهد وغرابتِه، وقفوا لصنعِ حاجزٍ يصدّ «غبري» عنْ الخروج مِنْ قلب التّرعة، حيث كان كلّما يجاهد الخروجَ، يضربه أحدُهم بقدمِه فينزلق ثانيةً.

لهث «غبري» وهمدتْ قواه، أصابعُه التي تخمش حائطَ التّرعة الطّيني صعودًا، ها هي تخور، دماؤه كانتْ تسيل، دماؤه جرتْ داخل الحفرِ والشّقوق، التّرعة بيْن أحضانِها طوتْ «غبري»، وتقلّصتْ عليه وضاقت، حينما وهنَ دفاعُه، وبدأتْ تسحب رُوحَه إليها رويدًا، «غبري» نازعَ بيديه ونازع، مرّة تلو مرّة، حتّى غاصَ في أعماقِ الوحل المخلوط بدمّه، والسّماءُ ماؤها الأسود نبضَ فيه عرقٌ مِنْ لونِ الدّم.

هلْ تجهّمتْ السّماءُ؟

لم يدرِ أحدٌ، هم رأوها تكشّر، وتزمجر.

والوقتُ مرّ، قيل إنّ «غبري» كانتْ جثّتُه قد بزغتْ بعْد أيّام مِنْ بئر التُّرعةِ متآكلةً، كلّ صباحٍ كان يزداد تآكلُها، لكنْ تُركت لعواملِ الطّبيعةِ تفعل فيها ما تشاء، والرّيحُ سكنت منْذ آخرِ هذا النّهار بيتًا أعلى مِنْ سقف المياه الذي يغطّي صفحةَ السّماء، والشّمسُ كادت مِنْ وقتِها تغيب ولا تطلع، وأطفالُ القريةِ المعلّقون في الهواء بدا أنّ أجسادَهم ستشيخ، إلى أنْ حطّت المياه في التّرعة ثانيةً، بعْد أسبوعٍ كاملٍ، لم تحطّ المياه في التّرعة إلّا حين بُعث مَنْ رحل بأيديهم.

أجلْ؛ هكذا بُعث «غبري»، كأنّما لم يشْهدوا موتَه بأعينِهم.

لم يُبعث رُوحًا تطوّف فوقهم، بل جسدًا مِنْ لحمٍ ودم، كان طالعًا مِنْ التّرعة مثْل مارِدٍ، وجدوه واقفًا، عاريًا، كان حيًّا أمام أعينِهم، ألم يدفنوه منْذ أسبوعٍ؟ لم يكن أحدٌ ليصدّق، لكن إنْ لم يصدّقوا، فليس لهم أنْ ينكروا عليه الحياةَ مرّةً أخرى.

طافَ بعينيه فيهم، وتسمّروا، وتحجّروا، وبُهتوا، وجاسَ فيهم فأدركوا أنّه عاد وفي قلبه يمور حقدٌ، وتسكن الكراهيةُ في نظرتِه إليهم.

في هدوءٍ مَهيب، والماءُ يتقاطر مِنْ جسمه، اتّجه نحو البيتِ المهجور، المدفونة فيه «أسماء الرّب»، البيت القديم الذي استكان على بابه العنكبوتُ، دفع بيده البابَ ودخل، وأغلقه خلفه، كانوا يتابعونه، مِنْ بعيد، لم يجرؤ أحدٌ على أنْ ينبس، بل دهشة الإعجاز لجّمتهم.

قالوا إنّ «غبري» سينتقم لموتِه وموت عشيقته، فلم ينم أصحابُ الذّنب، خصوصًا «دُرّ».

نزل«غبري» بطنَ التّرعة، ورأى بحرًا قادمًا، ينبعث منه نورٌ، كان موجُه يندفع نحوه، ويلطمه، وإنّما انتعش، وسبحَ في البحر، وكان البحرُ يهبط به، فهبط إلى جوفِ الأرض أكثر، ورأى في جوفِ الأرض شمسًا وكونًا وعرشًا، وتدرّجت رُوحه صعودًا لأسفل، وحفر في طيّات الطّينِ، وهدأ الموجُ، ولمّا هدأ، سبحَ لأعلى، ووجد نفسَه عاريًا أمامهم وأمام المُعجزةِ، لم يعرف كم لبثَ في بطنِ الأرض، لأنّ الزّمنَ كائنٌ مراوغٌ، و«غبري» تغلّب عليه، واليوم، سيعتكف كلّ مَنْ له إثمٌ.

ومنْذ بُعث، بدا كنبيّ يجوّل في القرية، وبدا أنّ للجميع آثامًا، حيث اعتكف كلُّ أهلِ القرية في بيوتِهم، حيطة أنْ يقع سخطُه عليهم.

فرشَ أمام بيته سجّادةً باليةً أهلكها التّرابُ، وكان يجلس يصنع عرائسَ مِنْ خشبٍ ومِنْ قماشٍ ومِنْ طينٍ، بالطّبع لم يجرؤ أحدٌ على زيارته أو حتّى مجرّد الاقتراب منه أو المرور أمامه، كانوا يعرّجون في أزقّة فيما خلف البيت المهجور، وقد بدا أطول مِنْ المعتاد، هكذا قيل، اكتسب سحنةً جديدةً، وقامةً عريضةً، كأنّه عملاقٌ، يشرد كثيرًا، ويعقد حاجبيه أكثر وتطلّ مِنْ عينيه نظرةٌ مُخيفة، بات يرهبه الجميعُ بفطرةِ الخوف نفسها، الخوف مِنْ كلّ مجهولٍ وكلّ أسود مُعتم، الخوف مِنْ الشّر الذي انفلت، وكثيرًا ما كان يدور في القريةِ وعيناه شاخصتان.

ثمّ شاهد الجميعُ سحابةً ضخمةً قادمة تتدحرج مِنْ ناحيةِ الجبل الكبير أوّل الصّحراء، كان هذا ذات صباحٍ غائم، لم يكن أحدٌ قد أدرك سبيلًا للنّوم، لم تطمئنّ البيوتُ، وتقلّبتْ الألسنةُ على تفسير ما حدث، دون معرفةٍ أو تكهّنٍ جازمٍ، وشاهدوا «غبري» مضمومًا داخل السّحابة، جسمُه محمولٌ، وكان يدور في حلقاتٍ وهو قادم يتدحرج مع السّحابة، وسمعوه يصيح بصوتٍ له إيقاعُ الصّدى:

- السّحابةُ قادمة، والرّبُ ينتظر، والذّنبُ يلمع كالذّهب، والشّرُ قادمٌ يلتفح السّحابة، الشّرُ عقد الصّفقة، والصّفقةُ رابحة، والشّرُ لا يعرف الخطأ، ولا الخطيئة، والذّنوبُ ذهبٌ يملأ القلوب، والرّجالُ لا يشبعون، والسّرُ مدفونٌ، والسّرُ في عمقِ الصّحراء، الصّحراءُ مدفَن الأسرار، جميع الأسرار، والطّينُ نشف، والجدبُ قادم، الأسرارُ يحملها

الماضي، ويحملها الرّجالُ، الصّحراء بعيدة، والغواية أبعْد، والرّبُ يرى قريتكم، الشّرُ عين الرّب، والمدى دُخان، الرّمالُ تتحرّك، الرّمالُ أصلها عظام، والعظامُ رماد، والرّمادُ يحيى، والأموات أحياء والأحياء ماتوا، الرّمادُ والذّنبُ حقيقتان، وإنّما السّحابةُ قادمة.

وسكنتْ سحابةُ الرّمالِ قريتَهم، تغبّر هواؤهم، لم تعُد الأعيْنُ ترى أبعد مِنْ مسافة ذراعيْن أو ثلاث على الأكثر، أحاقتْ بالقريةِ عاصفةٌ بدتْ لن تنقشع، ولّما كانوا يرفعون أعينَهم للسّماء، يلمحون البرقَ والسّخطَ، فيُفزعون، وتحت أسقفِ البيوتِ المُغلقة، في الغُرف التي أطفئ فيها الضّوءُ، كان النّاسُ يتهامسون، كأنّهم يخشون أنْ ترتفع أصواتُهم فيسمعهم المبعوثُ ويبطش بهم، اللّعنةُ فيهم، لعلّهم يستحقون؛ كانتْ هذه الأفكارُ الجُزافية تدور في الأدمغةِ.

في اللّيلِ، يرون «غبري» مقرفصًا على ضفّةِ التّرعة، وكأنّه يوشوشَ المياه، أو يُفضي لها بسرٍّ يجهله البشرُ، وفي ليلةٍ ضرب عينيه في عُمق عيني «دُرّ» الذي يراقبه مِنْ خلف نافذة، وسط الدُّخان الذي يلفّ دُجى القرية، ولوّح له بيده هاتفًا:

- انزل..

فتسمّر قاتلُه، وارتعد جسدُه، لكنّه صمّم مكرّرًا في حسمٍ:

- قلتُ لك تعال.

فصغر، كان خائفًا، في النّهاية مِنْ يُمكنه أنْ يلوم قاتلًا على استجابته لأمرِ قتيله!

كان «غبري» يعبث في الطّينِ بأنامله، قال دون أنْ ينظر نحوه:

- اجمع الرّجالَ.

- أيّ رجالٍ!

- هـؤلاء الذيـن رمـوني في طـين التّرعـةِ، قُـل لهـم «غـبري» يريدكـم أنْ تأتـوه بعظـمِ ميّـتٍ مِـنْ الجبّانـة، انبشـوا قـبرًا، وآتـوني بعظامِـه، تـزول سـحابتُكم بلعنتِهـا.

في نفـسِ المسـاء، اجتمـع الرّجالُ في بيت كبـير القرية وتشـاوروا، تباحثوا لوقـتٍ طويل.

قال الكبير:

- هل سنستجيب لأمرِ هذا الملعون؟

ردّ أحدُهم:

- كي تزول السّحابةُ.

- بشرطِ أنْ تزول.

- هذا ما قاله.

فانصرفـوا، توجّهـوا إلى الجبّانة، في غير شـهرِ «العـزاء»، وكان هذا محرّمًا، نبـشُ القبور في غير الشّـهرِ المقـدّس، لكنّ «غـبري» كان يراقبهـم مِنْ بعيد، أخـذوا عدّتهـم معهـم، ولم يكن بديـلٌ عـن «دُرّ»، صاحب الحكايـة والدّم، كـي يـدبّ الطّوريـة في فـم أحـدِ القبـور، لكنّـه، ولأوّل مـرّة، شرب ثلاث زجاجـات مِـنْ عـرق البلـح قبْـل أنْ يُقـدِم على هـذه الخطـوة، فتحـوا أحدَ

القبـور ووجـدوا العظـامَ لامعةً تحـت التّراب، قـال «دُرّ»:

- سيرتاح هذا الميّت.

قال أحدُهم:

- وهل في نبش قبرِه راحة؟ لقد انتهكنا شهر «العزاء».

تنـاول «دُرّ» عظـامَ الميّـت، ولفّهـا في جـوال مِـنْ خيـش، ثـم اسـتدار إلى الرّجـل قائلًا:

- لن يجد الرّبُ عظامَه كي يحييها.

القريـةُ التـي كانـتْ تسـبح في هـواءٍ رمـادي، تنفّسـتْ أخـيرًا، والنّـاسُ الذيـن كانوا يسـيرون وسـط دُخـانٍ وغيم، ارتاحـوا، لم يفهم أحـدٌ ما الذي فعلـه «غـبري» الملعـون بعظامِ الميّـت، ولا لأيِّ غـرضٍ ظـلّ ينحتها ويجمع رمادَهـا النّاعـم في آنيةٍ مِـنْ نحاس، أمام أعينهـم جميعًا، خـارج بيتِه، لكنّهم -أخيرًا- شـعروا بشـعاعِ شـمسٍ قـادم مبـاشرة إليهم مِـنْ قلب السّـماء بلا حاجـزٍ، وانقشـعتْ العاصفةُ.

وما كادوا يستريحون مِنْ أثر اللّعنة، حتّى حلّت عليهم لعنةٌ أخرى.

في هذا المساء، انكشفتْ خبيئةُ الدّم.

انكشـفتْ باستشـعار «روح» غـير المسـبوق، الولد الـذي عاقر الشّـوارع ليتربّـى بـيْن أحضانِها.

عندمـا انكشـفتْ خبيئـةُ الدّم، ظـلّ «غـبري» يضحك ويضحـك، وكان الولـدُ الملعـونُ ابـن الخطيئـة يحبـو وينتـزع جثّـةَ «أسـماء الـرّب» مِـنْ قلـب

البيتِ، وكان ظلُّه يختلج في دائرة القمر، أدركوا أنّ اللّعنات لن تنتهي، ضحّوا بـ«دُرّ»، بل ترك نفسه للتضحية، هو صاحب الدّم، وصاحب الحكاية، وهم يعرفون، وكبير القرية يعرف، أنّ رجال «القبضية» غاشمون، ولن يردعهم غير التضحية برجلٍ، هو نفسه، أصل كلّ ما جرى.

رُجم أمام أبصارِهم، رُجم حتّى تصفية دمائه قطرة قطرة، وبدا خاضعًا للقدر، إنْ كان الإثمُ قد قُتل على يديه، فثمّة إثمٌ أكبر عليه أنْ يحجزه بموتِه.

يستبدّ بالرّجالِ هذا الإحساس بأنّ مصائرَهم غادرةٌ، أمّا النّساءُ فيعرفنَ الكثيرَ عنْ الذّنوب التي اقتُرِفت ذات هوىً، لكنْ جميعَهم يعرفون أنّ اللّعنات راقدةٌ تنتظر القيام، كانتْ ثمّة لعنةٌ أخرى، أعظم، قادمة إليهم.

بطونُ بناتهم تنتفخ دون رجلٍ، لعنة أخرى لقريةٍ باغية، و «غبري» ملعون حلّ على قريتهم، يروقه سيلُ اللّعنات الذي بدا لن ينقطع.

إحدى النّساء تلفّ القرية، وكانتْ تصرخ وقد هيل على رأسها ترابٌ:

- حبلت بناتُنا بلا رجال، بلا رجال.

تصرخ، تصرخ بلا جدوى، و«غبري» يقهقه، ويقول:

- لكلِّ لعنةٍ ضريبةٌ، ستزول لعنتُكم بضريبةٍ جديدةٍ.

البطونُ تنتفخ في بطءٍ، والشّهورُ تمرّ، والرّجالُ نُكّستْ رؤوسُهم، لم يكن للعنةٍ أنْ تكون أقسى مِنْ هذه، أطفالٌ يُولدون بلا آباء!

الآثامُ مدفونةٌ في بطونِ بناتِهم، والنّاسُ هُنا كثيرًا ما دفنوا أسرارَهم داخل الذّكريات، وعندما كان «غبري» مدفونًا في جوفِ التّرعة، كان صوتٌ يرنّ في أذنه: فاوض البشرَ، ستُبعث.

لم يكنْ يعلم أنّه يُمكن أنْ يرى كلّ هذا الغيب، الغريب، أنّ الغيبَ بدأ ينكشف بتمامِه وهو ميّت، فهل كان ميّتًا حقًّا؟ ليس يدري! ثمّة حكايات خرافية لم يكن يؤمن بها، الآن الحكايةُ حكايته، والصّندوقُ صندوقه، وجثّته التي كانت تتآكل في التّرعةِ مجرّد عبث، فقد اندفنَ، وعيناه رأتا - تحت الطّين- الشّمسَ، رأى شمسًا تبزغ بالعكس، عكس الطّبيعة، رأى شمسًا قادمةً مِنْ أسفل التّرعة، أسفل الأرض، قادمةً بنورِها.

مِنْ بعيد، يأتي صوتُ أحد الرّجال يسبّ السّماء، ويسبّ مطلع الصّباح، الذي جاء باللّعنة، وبدا مسّه الجنونُ.

والقريةُ محشورةٌ بيْن صحراءٍ ومجهول، كأنّها موقدٌ ملتهب، والشّمسُ - على غير عادتها- تسلّط بعضَ أشعتها كسياجٍ حول الرؤوس، ينفذ مِنْ بيْن كُتل غيم شحيحة متناثرة في السّماء، ومصرفُ التّرعةِ ازدحم بالفضلات والجّيف النّافقة، والزروعُ مستيقظة، عرقانة مِنْ لهب الشّمس، اخضرارُها شحُب، وسربٌ مِنْ الجرادِ يهوّم متعبًا في حشايا السّماء، فوق خضار الزّروع الباهت، وفي المدى دُخان سمج، يتلألأ تحت أشعةِ الشّمس الواهنة، كأنّه شلّال مِنْ ماء.

و «غبري» لم يكن يومًا عنصرًا مِنْ عناصر الحكاية، ولكنّ الأحداثَ لعلّها تنصرف عن غاياتها أحيانًا، اليوم هو تفصيلةٌ جديدةٌ تمّ صُنعها،

لا يـدري لمـاذا؟ لكنّه اسـتُحدث، وأصبـحَ الحكايـة كلّها.

والتّرعـةُ الكبـيرةُ تفلـق جسـدَ القريـة مثـل جُـرحٍ مفتـوحٍ عـلى السّـماء، وقُـرب الجبـل الكبـير، تسـدّ الأفـق أسرابٌ مِنْ الجـراد، والجـرادُ لا يرحم، يـأتي على الأخـضر، واليابـس، يهبط عـلى الزروع يلتهـم أعوادَهـا الخضراء ثـمّ يغـادر نحـو الجبـل، يتغـذّى عـلى زروعِهـم يومًا بعـد يوم.

وفي البيـوتِ، خرسـتْ الألسـنةُ، كانتْ البنـات لا يفهمنَ، مـا الذي انبذر في بطونهـنّ فنفخهـا، وكانـتْ التّأويـلات لا حـصرَ لهـا، قيـل إنّهـا أرواحٌ شرّيـرةٌ اسـتهدفت بنـاتَ قريتهـم لإذلال رجالِهـا، وقيـل إنّ الشّريـر نفسـه نفـخ رُوحـه في البنـات انتقامًا مِنْ رجال القريـة، وقيل: ضـلّ إيمانُنا بالرّب.

وصاح «غبري» وكان يجلس والنّاسُ يكتفون بمراقبتِه مِنْ بعيد:

- الرّاعي ترك القطيعَ للشّرِ ومات.

وصاح:

- مـاذا سـتفعلون الآن؟ هـل سـتدفنون كلّ بناتكـم في البيـوت المهجورة مثْلـما دفنتم «أسـماء الرّب»؟

وبعْـد أيّـامٍ مـن الصّمت المعذِّب، بـدأت أمطـارٌ تهبط، متقطّعة، سـتُهلِك الجـراد، والجبـل البعيـد يبـدو في سـطوة الظّـلام كرأسِ غـولٍ ينتظـر دوره في جلـب اللّعنـة هـو الآخـر، والسّـحبُ تغادر جبهـة السّـماء، فيَعِـدُ القمر بمزيـدٍ مِـنْ ضوء، قطـرات المطر مالحـة، لكنّ بعضَ النّسـاء يلعقنهـا، بنزوةٍ طارئـة، ومـا أكثر النّـزوات! وكانـتْ أسرابُ الجـراد البادية في عُمـق اللّيل كسّـحبٍ داكنـة- قـد بـدأت تغـادر صـدرَ الجبـل، وتغـادر سـماءَ القريـة،

وبدت لهم «أسماء الرّب» هناك، كأنّها ضلّت طريقَها في السّماء، تطير فوق بيوتِهم، تطير ناثرةً عليهم دماءها.

سيقولون: إثمُنا أنْ أزهقنا «أسماء الرّب».

سيقولون: لو غفر لنا الرّب!

ويقول «غبري»:

- صرفتُ لعنة الجراد بالمجّان، كي تفرغوا للّعنة الأكبر.

وستمرّ الأيّامُ، ستنتفخ بطونُ البنات أكثر، ويعدم النّاسُ مسلكًا للفرار مِنْ هذه اللّعنة، البنات قابعات في البيوت، والرّجالُ انقطعوا عن الجلوس على ضفّة التّرعة، رغم أنّ الخزي بات مشتركًا بيْن الجميع، وقد وجب على الجميع أنْ يكفّروا عن ذنوبٍ قديمة، كلُّ رجلٍ له ذنب، وله سرّ، وكلّ سرّ معلوم لدى صاحبِه، وكلُّ صاحب سرّ أصابته اللّعنة، وكلُّ لعنة لابدّ لها نهاية، إنّما إلى أين يسيرون، وما النّهاية؟

«غبري» عليمٌ بالأسرارِ، قال لهم إنّ بناتَهم سينجبنَ خطايا، وربّما أنجبنَ أنبياءً، النّبوة انقطعت عن الأرض منْذ زمنٍ، ولعلّها بُشرى بأنبياءٍ جُدد، لا قُدامى، أو لعلّهنّ سيُنجبنَ مسوخًا، في نهاية الأمرِ، مَنْ يعرف؟

وفي الشّهرِ الخامس مِنْ حمل البنات، استدعى «غبري» الرّجالَ، جميعَ الرّجالِ، في الشّارع الطّويل بامتدادِ التّرعة، وطافَ بينهم يتفحّصهم، ثمّ صاح بصوتٍ عال:

- آن لهذه اللّعنة أن تنقضي.

تهامس الرّجالُ، فأكمل:

- اليوم ستنتهي لعنتُكم، كما انتهت العاصفة، وكما سقط المطر، وكما رحل الجّراد.

وأضاف بعْد صمْتٍ:

- بشرط..

انتظر الرّجالُ أنْ يُملي عليهم «غبري» الملعون شرطَه، جاس بعينيه فيهم، وضحك، وجلس، وقام، وقال:

- تداخلت عليكم الأسرارُ بيْن وهم وحقيقة، في النّهاية أنا لا أروي حكايات، بل أدوّن الحكايات، مبعوثُ التّدوين ومبعوثُ التّاريخ، هذا خُلاصةُ ما قدّر لي، فلتعتِقوا ملامحَ النّور الذي كان نورَكم قديمًا ساعة الظُّلمة، ولتحرّروا طقوسَ الشّعائر التي كانت تُقال لأجل خروجكم مِنْ أرض الموات مغتسلين مِنْ آثامكم.

قال واحدٌ:

- لا إثمَ لنا.

ضحك «غبري»:

- قريتُكم قريةُ إثم.

- وما ذنبُ بناتِنا؟

- اسألوا أنفسَكم.

- ثأرُك معنا لا مع بناتنا.

- ثأري مع الضلال.

- ما هو شرطُك؟

زفر زفرة طويلة، وقال:

- أضاجع كلّ البنات، وأطلع منها بالأجنّة.

- أنتَ مجنون.

- وأنتم آثمون.

- ستدنّس قريتنا.

- دنّستها خطاياكم مِنْ ذي قبْل.

- هذه قرية أشراف الرّجال.

فضحك ضحكةً هادرةً، وصاح:

- أيُّ شرفٍ فيما تأتون!

- إلّا بناتُنا.

- ذبحتم المظلومَ واستبحتم بأنفسِكم شرفَ بناتكم، هل تحبّون أنْ أستخرج مِنْ بينكم كلّ أخٍ حبّل أخته، كلّ رجل فتح ابنته، كلّ امرأة نامت مع أخ زوجها، كلّ رجل انحنى تحت رجلٍ وتركه يولغ فيه، كلّ رجل نام مع حريم أولاده! أيُّ شرفٍ تدّعون؟

صمت الجميعُ، داروا بأعينهم في وجوه بعضِهم البعض، فقال «غبري»:

- كلّكم محمّلون بالإثم، فلا تزيّفوا عليّ.

ثمّ قال:

- لـن ينقذكـم مِـنْ اللّعنـات غـير إيمانكـم بي، وفي النّهايـة أسرارُ هـذه القريـة سـتظلّ مدفونـة فيهـا.

- نؤمن بك!

- آمنتم بالضلال مِنْ قبْل، وإنْ آمنتم بي أمنتم.

- قريتُنا قرية أنبياء.

- اعتبروني نبيًا.

- بوطءِ بناتنا!

- بالخلاص..

وجلس أرضًا:

- سـأخلّصكم مِـنْ آثامكـم، وقـد ترحلـون عن هـذه الحياة بـلا ذنوبٍ، يعنـي بضـمان عدم الحسـاب.

- دعنا نتشاور.

- تشـاورا كيـف شـئتم، إنْ ركبـت بناتكم زالـت لعنتكـم، وإنْ رفضتم، حاقـت بكـم للأبد.

ثم استطرد:

- وسوف نرى شكل الأطفال اللواتي سينجبهنّ البنات!

- سنجهضهنّ.

- والحملُ القادم!

- سنجهضه.

قهقه «غبري»:

- اللّعنات لا تُجهَض.

- غفران الرّب أكبر مِنْ كلّ لعنة.

- أتَى أمرُ الرّب فلا تستعجلوه.

- وماذا لو لم يكن هذا ما أمر به الرّب؟

- اقترب لكم حسابُكم وأنتم في غفلةٍ مُعرضون.

عند الصّباحِ، امتلأ بيتُ كبير القرية بالرّجال، كانوا جميعًا موصومين باللّعنة، فلا أحدَ له وصايةٌ على أحد، ولا أحدَ بإمكانه أنْ يلوم مِنْ يرتضي شرط الملعون.

- علينا أنْ نستردّ قريتنا مِنْ «غبري».

صاح بها كبيرُ القرية، في جمعٍ مِنْ رجالٍ يحاولون حسم قرارهم تجاه شرط الملعون، ويتداولون فيما بينهم عن أنسب الطّقوس التي يُمكن مِنْ خلالها استعادة القرية.

قال واحدٌ:

- أإلى هذا الحدّ أغضبنا الرّب؟!

قال آخر:

- ذنوبُنا ثقيلة.

- لعلّ الرّب يختبرنا.

فقال واحدٌ:

- بلْ إنّ الرّبَ مات كما قال «غبري»، وترك العالم يطيش.

لكنّ كبيرَ القرية استطرد في حزم:

- فليجهّز كلُّ رجلٍ قربانه.

اقتنع الرّجالُ، وبدؤوا يجهّزون القرابين، أجولة مِنْ البلحِ والعنبِ والسّمْسم، وقدور مِنْ البقوليات واللّحوم، وخبز وكعك، وخرجتْ نساءُ القرية، قال الكبير إنّ النّساء أولى بتقديم القرابينِ وعَقد الشّعائر طالما العلّة في النّساء، وفي الأرحام، وتساءل رجلٌ عن كيفية تقديم القرابين، فقيل في النّهر، وقيل في الغيطان، أو عنْد سفحِ الجبلِ البعيد، وقيل في المصرف، لكنّ الاقتراح الأخير استهجنه كبيرُ القرية، وقال:

- ترعتُنا سبب كلّ المصائب، وأولى بقرابيننا.

وقد كان، خرجتْ النّساءُ بالعباءات السُود، وتلفّحنَ بدعوات القبول، والرّجاء، وجلسنَ على حافّةِ التّرعة، وبدأن يلقينَ النّذورَ والقرابين داخل مجرى التّرعةِ، وسادت رُوح العجز، وشعرن بانكسار وخزي وإثم، وقلن في سرّهنّ ما بال الرّجال لا ينتهون عنْ ارتكاب الذّنوب، الأصلُ في إثم الرّجال، أمّا النّساء اللواتي افترشنَ ضفّة التّرعة فيدركن إنّما لا إثمَ عليهنّ غير الطّاعة، فكيف استبدلنَ طاعةَ

الـرّب بطاعـةِ الرّجـال؟! هـنّ حائرات، وبـدا أنّهن سـينتظرن كثـيرًا حيث يُستجاب دُعـاء، أو يُقبـل قربـان، والرّجـالُ يجلسـون وفي أفواههـم أعوادُ التبـغ، ويشربـون الشّـاي والقهـوة والزنجبيـل، ويـشرب أصحـابُ المزاج خمـرًا معتّقًا.

يجـري إلى المـاء ما طهته النّسـاءُ، ويسـبح عـلى السّـطح الخبزُ، ويسـتقرّ في القـاع الفاكهـةُ والخُضر.

وفي صبـاحِ اليّـوم التـالي، ثـمّ اليوم الـذي يليـه، لم يتغـيّر شيء، زعق فيهم «غبري»:

- سترضخون في نهايةِ الأمر، لا جدوى ممّا تفعلون، مالكم تستنكفون؟

ترقـد البنات بالبطونِ المنفوخـة، ويرقد الرّجالُ وعقولهـم تفكّر، وقلوبُهم داميـة، ما أقسـى الخطوب الجديدة عـلى قريتهم! أيُّ ذنـب ارتُكب ولم يُفشِ سرّه أحـدٌ؟! لعـلّ الـسّر إذا أُفـشيَ ترتـضي السّـماء وينقضي الغضـب! كيف يسـوقون بناتَهـم نحـو العّار الذي استباحوا دماءهـنّ لأجله مِـنْ ذي قبل؟ لـن تختلـف بناتهنّ عنْ جميـع اللـواتي أُهلكنَ في القريةِ بسـبب الإثـم، وفكّر بعضُهـم كيـف الحـال إذا أهلكنا بناتنا اليـوم؟ هل يُمكن أنْ تـزول اللّعنة أم ستُولد بنـات أخريات ببطـون منتفخـة؟ قال «غـبري» إنّ اللّعنة مسـتمرّة، لكـنّ الخـوف كلّ الخـوف إنْ أصابـت الذّكور لعنـة، إنْ لم يسـتجيبوا الكلام الملعـون، سـاعتها لـن يشـفع لهـم رجـاءٌ، ولـن يُمكـن لأحد أنْ يسـتشرف عـن اللّعنـة القادمـة التـي قـد تُصيـب الرّجـال، بـدا أنّ جميـع التكهّنات قد تسـتغلق عليهـم، وأيقن كثـيرون أنّ القادم أسـوأ.

عـلى أبـوابِ القريـة، تـضرب «القبضيـة» حصـارًا مسـتبدًّا، شـيع أمـرُ

اللّعنات، فحوصر النّاسُ، على ألّا يدخل أحدٌ أو يخرج أحد، يخشى النّاسُ في زمام الخارج هناك مِنْ هؤلاء، بل علّل كثيرون أنّ نكباتهم أصلها البغي والضّلال والكِبر والكُفر بالرّب، وذهب آخرون إلى وجوب قتال أهل القرية طالما الرّبُّ قاتلهم، واجتثاثهم مِنْ بينِهم، كما تُجتثّ شجرةٌ خبيثةٌ، وأوعزوا إلى كِبار «القبضية» أنْ يدكّوا القرية، ويُهلِكوا رجالها ونساءها وعيالها، ثمّ أرجئ الأمر لانتهاء اللّعنات.

ورغم هذا؛ الرّجالُ لا يتعسّر عليهم الالتفاف حول الحصار، أو الدّخول عبر الدّروب التي لا تعرف عنها «القبضية» شيئًا، لا الدّروب تلك التي تنفذ ْوراء الجبل، ولا التي تنفذ بيْن الغيطان والحقول.

ثمّة مرسالٌ اتّفق مع فرقة للمنشدين، وفي مساء اليوم التالي جاؤوا خلسةً عبْر هذه الدّروب، و«غبري» ضرب أبواب البيوت، وانفعل، وهاج وماج، وصرخ:

- لن ينفعكم التحايلُ، اقرعوا الطّبلَ، في النّهاية ستأتون راكعين، مهما تمادى بكم العِندُ والاستكبار.

ونفذ إليهم نظراتِه النّارية وصاح:

- أجسامكم مليئة بالشّرور والآثام، وستطُلقون الرّياح العفِنة مِنْ بطونكم حتّى تمتثلوا لي.

أثناء ذلك، والدّفوفُ تضرب، والزّمرُ شغّال، والرّجالُ يتطوّحون يمنة ويسرة، ويصرخ بعضهم، وينهنه بعضهم، كان الإثمُ حاضرًا، يدور بينهم، كأنّ «غبري» يُدرك أنّهم بالفعْل يتحايلون على قدرِ اللّعنة،

وأنّ هذيانَهم هذا بلا جدوى، وفي قلب الطّقسِ، بدأت البطونُ تُطلق الرّيح، بلا سببٍ معيّن، أو علّةٍ أو امتلاءٍ، ظلّ الرّجالُ يشمّون ريحَ بعضهم البعض، وفرقة المُنشدين لم يطيقوا الرّائحة، ولمّوا عدّتهم ولاذوا بالمغادرة، وهم يخبطون أكفّهم، ثمّ أعلنوا للجميع خارج نطاق القرية أنّ الشّر يسكنها، ولا بدّ أن تُهلك بمن فيها.

وساد هواءَ القرية ريحُ البّطون العفِن، أدركوا أنّ «غبري» لم يرحمهم، وسيبلغ مأربه شاءوا أم أبوا.

وتنصرم أيّامٌ، واللّعنةُ باقية في بطون البنات، لم يبدّدها لا قرابين مُلقاة جزافًا في عرض التّرعة، ولا دفٌّ ولا رجاء، ولا حتّى قرابين النّساء اللواتي سلّمنَ أنفسهنّ للصّنم الرّابض في معبدِ الغُرباء.

كذلك لعنة بطونِ الرّجال، سائرون أو جالسون، مستيقظون أو نائمون، تخرج الرّيحُ مِنْ بطونهم معكّرة بذرّات الشّر والإثم؛ كما قال الملعون.

الطّيورُ لم تعُد تركن في سماءِ قريتهم، تهرول مسرعةً وكأنّها تفرّ بدورها مِنْ اللّعنة، جزيئات النّور هي جزيئات النّار وفق رؤية بني البشر، العينُ قد تملأها دموعٌ في لحظتي ضحك وحزن، كلُّ إحساسٍ له ضدّ، كلُّ خطيّةٍ لها لَحْد، لكنّ قريتَهم لها عجائب الأمور!

ريحٌ تخروش عيدانَ القصب، وريحٌ تهيّج صدورَهم، وريحٌ تصفّر قُرب سقف السّماء، لعلّ السّماءَ نفسها لم تعُد تكترث.

باءتْ محاولات الرّجالِ والنّساءِ في صنعِ الطّقوس لطرد اللّعنات،

وطـرد رُوح الـشّر، بالفشـل، أصبـح معلومًـا بـضرورة الخـذلان، فبعضُهم لبّـى شرط «غـبري» قـسرًا، أمّـا البقية المعترضـة، فلم يكـن في يدِهـم حيلةٌ إلّا الإذعـان، بالتبعيـة خافوا أنْ تظلّ اللّعنةُ سـاكنةً ديارهـم دون الآخرين، فاسـتجابوا بدورهـم، ومهـما تناسـوا بعْد ذلك، فلـن يرمّم النّسـيانُ تخاذلَهم الذي كان.

كلُّ رجـلٍ لـه بنـت حُبـلى، جهّزهـا، وظلّـوا يبكون فـوق أجسـام بناتهم، سـيُوهبنَ طوعًـا لملعونٍ لا يرحـم، اليوم يوم بـكاء الرّجال، ونواح النّسـاء، يـوم تفضّ بـكارة كلّ بنت عنْ غـير حيلةٍ ولا شريعةٍ، الشّريعـةُ شريعة الشّر اليـوم، عُـرف اللّعنـة، والرّجـال سـيعرفون أنّ الإثم لـه ألفُ وجـه، تتجدّد الوجـوه عـلى مـرّ الأزمـان وتقلُّب الشّرائـع والضّمائـر، والإثمُ سـيبقى، كما سـيبقى معه مذلّـةُ الرّجال، وهوان النّسـاء، واسـتباحة البنـات البريئات.

مفتوحـةٌ أبـوابُ البيـوتِ، وفـروجُ البنـاتِ، ومُغلقـةٌ السّـماءُ أمـام كلِّ الدّعـوات، البنـات جاهـزات، تمامًـا كالعرائـسِ التـي يخلقهـا «غـبري»، البنـات جاهـزات، والرّجـالُ جاهـزون للعّار الأبـدي، أيُّ طعنـةٍ يُمكن أن يسـدّدها القـدر أمـضَى مِـنْ تلك!

وفي كلِّ غرفـةٍ مُغلقـةٍ عـلى سرّ، يلـج الملعونُ، قالـوا إنّه لفّ حول جسـدِه رداءً مِـنْ حريـر، ولـفّ عـلى رأسِـه عمامـةً مجدولـةً بـأوراقِ الشّـجر، وظلّ يقـول لـكلّ بنت:

- جدّتُك ذاقتْ الثّمرة.

دخـلَ «غـبري» عـلى البنـات، واحـدةً فواحـدة، مـضى بقضيبِـه داخـل أحشـائهنّ، وانتـزع اللّحمَ الميّـتَ العالق بها، أفـرغَ البراءة السّـاكنة، وطوى

في كلّ لحظـةٍ وطءٍ ضمـيرًا كان أبيـض، شـاهت الضّمائـرُ، وجرّبـنَ البنـات ممارسـة نبيّ، كالنّسـاء اللّـواتي زرن المعبد، تلك البنات سـتكبر، وسـتعرف طريـقَ المعبـد، تمامًـا كأمّهاتهـنّ، لأنّ الـذي جـرى في هـذا الوقت مِـنْ زمن القريـة، سـيصبح عرفًـا جاريًـا، دون مسـاءلةٍ ولا إثم.

و«غـبري» يلملـم بقايـا الأحشـاء، لغـرضٍ غـير معلـوم، ينتهي مِـنْ كلّ البنـات في عشـيّة هـذا اليـوم، انكسـرت رؤوسُ الرّجـالِ، وكتمتْ النّسـاءُ استفسـاراتهنّ الملحّـة، ولكـنّ البنـات كـنّ راضيـات، هـذا الرّضـا الـذي يداخلـه عجـبٌ ويداخلـه نـزوعٌ نحـو تجربة تحـرّر الـرُّوح نفسـها، فمع كلّ مواقعـة، كان الأمرُ مُدهشًـا، كان الأمرُ كأنّ سرًّا أزليًّا انطلقَ في أجسـادهنّ، كأنّهـا أسـئلةٌ لا تبحث عـنْ إجابـات، وقفت البنـاتُ على حوافّ الدّهشـة، وحـوافّ الغوايـة، ستُغَربْل أرواحهـنّ وتُصفّـى، وسـيعرفنَ معنـى مثـولِ الجسـدِ لصرخاتِ الاشـتهاء.

و «غـبري» عاقـر بيتَه، ظلّ سـنوات لا يخـرج، ولا يعرف رجلٌ عـنْ أمرِه شـيئًا، وإن بـدأ يُرى في الآونة الأخيرة، يسـير كنبـيٍّ، تمامًا كأوّل يـومٍ بُعث.

وقالـوا إنّـه حنّط الأطفـالَ الذين خـرج بهم مِـنْ فروج البنـات، واحتفظ بهـم داخل صناديـق صنعها مِـنْ أليافِ النّخـل، يدلّك المحنّطـين بالزّيوت، ويبخّرهـم، ويتلـو عليهم عنْد شروقِ كلّ شـمسٍ، يحتفظ بهـم في بيته، الذي لا يسـتطيع رجـلٌ أنْ يدخلـه، أو يفكّر بالمـرورِ في ظلِّ حائطٍ مِـنْ حوائِطِه.

بعْـد زمنٍ قصير، سـيجوّل بينهـم، وحوله جنـودٌ مِنْ أرواح لم تُـر مِنْ ذي قبْـل، يصرخ:

- أولادُكـم طاقـاتي، اخترتهم مِـنْ داخل أحشـاء بناتِكم لينفّذوا المشـيئة،

حنّطتهم وهيأتهم لليوم المنشود، سيكتسحون العالم، ستقبّ أرضٌ مِنْ جديد.

وكالعادةِ، قريتُهم ستظلّ تتجرّد كلّ مساءٍ مِنْ أنفاسها، وتسترخي، ستظلّ تموت لتحيى مِنْ جديدٍ بحلولِ كلِّ صباح.

ستبقى «أسماءُ الرّب» ترفرف مِنْ بين حُجب الغيوم، وشمسُ الصّباح تهلّ، كأنّها تطهّرت مِنْ أسمال الإثم.

والذي جرَى سوف ترويه الحكايات، التي قد تتحوّل يومًا إلى أساطيرٍ أو خرافات، عدا تلك الحكايات التي خرجت مِنْ صندوق الرّحال، يوم آمنوا بالمعنى.

وقد يبدأ العالمُ إثر معركةٍ غير عادلة.

«أسْطورتُنا»

أكان الطّفلُ يعرفَ الأسرارَ؟ أكان وهو يحبو على أربعٍ يفْطِن إلى مخابئ الخطرِ؟ أكنّ نساء القرية وهنّ يربينه مع أولادهنّ يعرفنَ أنّه أصلُ كلّ خرابٍ وكلّ لعنةٍ مستترةٍ بالغيبِ؟ أكان الطّفلُ ضلالَنا أم صلاحَنا؟

حين كنّا نراه نتندّرُ قليلًا، أو نداعبُه فينطلق بفرحةٍ يلعق أقدامَنا بلسانِه، يلعقها والتّراب، شهدنا يومَ مولدِه، ويومَ الفرحة الكُبرى التي شاعت في شوارع القرية، شهدنا بعْد ذلك ما جرى مِنْ أحداثٍ، تلك الأحداث التي توالت متلاحقةً، فلم نستطع لا أنْ نضع أيدينا على بداياتها، ولا إلى أين مضت بنا، فقط رُحنا ننزف أحداثَ الحكاية واحدًا بعْد الآخر، منْذ ذبْح «أسماء الرّب»، ثمّ الاعتناء بالولد الذي هجرَه أبوه، وتركَه للشّوارع وهو ابن عاهةٍ وعلّةٍ لم يزل، لا يتكلّم ولا يسير، يلهو بيننا فقط، أشفقتْ عليه بعضُ النّساء، فآوين إيّاه في بيوتهنّ عنْ رضا، أو كمَن يُقدّمْن اعتذارًا متأخّرًا لصاحبتِهنّ التي تطير فوق بيوتِهم وتنتشر دماؤها عليهم، آوينه وإنْ اعترضَ الرّجالُ، هنا يجوز أنْ نغلّب معيارَ الرّحمةِ على معيار المنطق، ولمّا كان يتنقّل الولدُ بيْن البيوت، يومًا مِنْ بعْد يوم، وليلة وراء ليلة، استقرّ في البيتِ الوحيدِ الذي سيصبح فيما بعْد سببَ هلاكه، لقد حملتُه جارتُنا مِنْ بعْد تبدّلِ البيوت، ليتربّى في بيتِها، مع ابنتِها الوحيدة؛ «ظبيّة».

حين شاهدنا «دُرّ» مربوطًا يجرّونه إلى حتفِه، أدركنا أنّ ثمّة لعنةً ستنقضي، وثمّة لعنات ليست في الحسبان سوف تخيّم على سماءِ القرية، ومِنْ لعنةٍ إلى لعنةٍ تمضي أقدارُنا، ومِنْ ملعونٍ صغير أنجبه ملعونٌ أكبر سوف تجيء النّهايات فادحةً.

جرى عُرفُ قريتنا على الخذلان، جرى هذا العُرف حين تركنا بناتَنا لعبث الشّر، حين صرنَ نساءً يعرفنَ معنى العوز والاشتهاء، حين بات معبدُ الغُرباءِ المحرّم مزارًا للتبرّك، وبجريان الزّمنِ والحكايةِ، تجري الأعرافُ على غير طبائعها، فما كان محرّمًا صار مُباحًا، وما كان مقدّسًا صار مدنّسًا، وكيفما تتبدّل طبائعُ الأعرافِ، تتبدّل صفاتُ الرّجال، فيصبح الرّجلُ الكاملُ، منقوصًا، شبهَ رجلٍ، لو جيز التعبيرُ، وتصبح النّسوةُ قادراتٍ تمامًا على التمرّد، بل يصبحنَ قادراتٍ، بتبدّل العُرفِ، على الخروج في سفرٍ طويلٍ وحدهنّ، لقضاء الحاجات، للتّسرية، بل والإنفاق على رجالٍ، لم يعُد أحدُهم لديه الشّجاعة للنّظر في عينِ رجلٍ غريبٍ، يعيّره بالإثم.

إنّ الأعرافَ محيّرة، خاصّة هذه التي يصير فيها الدّمُ محرّكًا أصيلًا، إذ سنبقى العُمر نتساءل، ما الذي تفجّر في نخوةِ الرّجال، عنْ غير استباقٍ ولا مبرّرٍ، ليجعلهم فجأة يهبّون، ليحرقوا إثمًا وليدًا، بيْن بنتٍ اسمها «ظبيّة»، وولدٍ اسمه «روح»، رغم أنّ الآثام القديمة إيّاها، نفس الآثام، أطلقت عليهم لعنات، لم تخطر على خيالِهم؟

بيْن جموعِ الرّجال والنّساء، تسير «ظبيّة»، ومِنْ خلفِها «روح»، إنّهما ذنبان أحياهما القدرُ، قيل لنا إنّ علاقتَهما الآثمة نمتْ مع الزّمنِ، ومع الاختلاطِ، قيل إنّ أمَّها تعرف، إنّ أباها كلّما جاهدَ أنْ يتستّر على الأمرِ، لم يستطع، الحريقُ يشبّ في عقرِ دارِه وينمو، والولدان يخيّم عليهما سقفٌ واحدٌ، والعلاقةُ بينهما كعلاقةِ اللّيل بالنّهار، لابدّ لأحدِهما أنْ يسبق الآخر، فإذا تداخلا، سيختلّ الكون، وهكذا كانتْ هذه العلاقة، لا

«روح» ابـن الخطيئـة يُمكـن يومًا أنْ يقتنـي «ظبيّة»، ولا الأحـداث القديمة والحكايـات واللّعنـات والـشّر الذي يسـكن الولد، لا السّـيرة التي دنسّـتها الأمّ، ولا الذّنـب الـذي أتـاه الأبُ، يُمكنهـم أنْ يكشـفوا العلاقـة للنّـور، لذا؛ كان الظّـلامُ أولى.

والفضيحـةُ تسـبقها فضائـحٌ عفا عليها الدّهرُ وسـيقت للنسـيانِ الجبري، الفضيحـةُ الآن أمـام الجميـع، والإثـمُ لا يصرعـه غـير دمٍّ، والدّمُ سـيجري في أوّل الصّحـراء، سـيثبّتون «ظبيّـة» في شـجرة كافـور قدّسـها الزّمـنُ حين تركهـا تترعـرع منذ سـنواتٍ لا تُحصَى، وسـأصبحُ شـاهدًا على فصـلٍ أخير في حكايـةٍ نافقـةٍ، سيُشـعلون فيهـا النّـار، وتشـتعل معهـا الشّـجرةُ المَصونة بأمـرِ الـرّب، وقد قيـل مِـنْ أمـرِ الشّـجرة إنّ الثّمـرَةَ القديمةَ كانت جسـدًا طيّبًـا، والجسـدُ إذ يُشـتهى يُعـصى الـذي أمـر، والشّريـر إذا اسـتكبر فجـر، فامتثـل الـذي كان مِـنْ طـين؛ ولـو بعْـد حـين، فهبـط، وكان للإنـس مِـنْ بعـدِه خيـارٌ؛ لا ائتمار.

وقيـل مِنْ أمرِ الشّـجرة إنّها بذرةٌ محرّمـةٌ، بذرها الشّريـرُ وتركها غوايةً لهم ولأولادهم، الشّـجرةُ يشـتجر تحتهـا الأجسـادُ، والذّكرُ والأنثى سـيعرفان خريطـة الغوايـة، سـيضمّهما ظـلٌّ واحـدٌ، وتحتويهـما شـجرةٌ واحـدةٌ، ومِنْ تحـت الشّـجرةِ سـيخرج نسـلٌ يـسري في أرضِ الـرّب، وأرضُ الـرّبِ فيها خـيرٌ وطيرٌ وجبـلٌ وزرعٌ ورمـلٌ وصحـراءٌ وجنوحٌ وجمـوحٌ وإثمٌ.

أرضُ الرّبِ لا تشرب الدّمَ السّفاح، لعلّهم يوقنون.

أسـفل شـجرةِ الشّريـر، أو ربّما شـجرةِ الـرّبِ نفسـه، تحـدث الوقائعُ، بل

ويبدأ العالمُ، ينبذر مِنْ جديد، نطفةٌ قديمةٌ، في حكايةٍ قديمةٍ، تتحوّل لبدايةٍ أخرى، سقفُ العالم مليء بالحكايات والخرافات والمكائد، وسقفُ ابن الإنسان لا يعرف حدّ الخطيئةِ، والخطيئةُ خطيئة دمّ، الخطايا لم تتهيّأ بالكامل بعْد، يشدّ الأبُ لحيتَه، ويدور بيْن وجوه الرّجالِ والنّساءِ، يقول:

- هكذا تستريح قريتُنا مِنْ الخطيئة.

أجلْ، هكذا تستريح قريتُهم، وتستريح قلوبُهم، لأنّ هذا المعنى سيجعلهم يستعيدون شيئًا مِنْ ذكريات الرّجولة القديمة، وسيجعلهم يُفرطون في التنهّد المُختال، حيث تخلّصوا مِنْ آخر بقايا الإثم، ربطوا البنتَ في شجرة الكافور، واحترقا، وستحترق معهما تصوّراتُهم عنْ المجهول، وسيذبحون الولدَ، سيضعون السّكاكين على رقبتِه، لكنّهم في لحظة النّحر، سيشهدون بأعينِهم آخر اللّعنات، وربّما أوّلها.

رمالُ الصّحراء تعانق أقدامَ الرّجال، والجبلُ البعيدُ سوف يدنو، وفي اللّحظةِ التي يبدأ فيها نزولُ أوّل قطرةِ دمّ مِنْ رقبة الولد، سينفتح جرحٌ في السّماء، وكلّما اتّسع جُرحُ الولد، اتّسعَ جُرحُ السّماءِ، بلْ إنّ جرحَ السّماءِ المُزامنَ لجُرحِ الولد سوف ينزف بدورِه دمًا، وستصبح الأمطارُ حمراء، وستتساقط فوق رؤوسِهم، وسيفرفط الولدُ تحت الأياديَ، لكنّه ذات غفلةٍ سينهض، سينهض كأنّه المسحورُ، سينفض عنْ جسمِه ترسّبات الحكاية، وسيُنبت له جناحان، سيرفرف هناك في الأعلى، سيصعد ببطءٍ، وسيلملم السّحابات التي تطوّف مِنْ حولِه، ويصنع بها خيطًا

مِـنْ هـواء، خيطًا سيسـحبه مِنْ فـمّ الأفق، وسـيبدأ يرتّـق به جُرحَ السّـماءِ، موضعًـا موضعًـا، وحـين تبدأ السّـماءُ تكفّ عـنْ النّزيف، حين يُغلـق الولدُ عليـه الجـرحَ، ويغـوص داخـل بطـنِ السّـماء، فـلا يرونـه، سـيُدركون أنّه، رغـم كلّ شيء، وقاهـم مِـنْ لعنةٍ لم يكـنْ ليحتملهـا أيُّ مصيرٍ، سـيعرفون، أنّ «روح» بـن «أسـماء الـرّب» لم يكن ملعونًا، بـلْ كان نبيًّا، مكشـوفًا له، فرّ جثمانُـه إلى السّـماء، وعوّذهـا، واختفـى بداخلِها، وسـيعرفون، أنّ «غبري»، الواقـف هنـاك يُراقـب، سـيفتح الآن صندوقَـه، وسـيبدأ في لمّ حكايتِهـم كلّها، سـيطويها ويحبسـها داخـل الصّنـدوق، سيحبسـها تفصيلـةً تفصيلةً، وسـطرًا سـطرًا، فلـمّا يفنـى كلّ شيء، لمّـا تفنـى الحكايـات وتفنـى الأرضُ بمـن عليها، سـيظلّ «غـبري» واقفًا، شـاهدًا عـلى حكاياتٍ أخرى، سـوف تُخلـق مِـن عدمٍ، ففـي البـدءِ، كانتْ الحكايـةُ، التي سـتتحوّل إلى أسْـطورةٍ، إنْ آمنـوا بالرّبِ.